

الدكتور
عبد الحلیم محمود

قضية التصوف المنقذ من الضلال



ويقول :

﴿ رب بما أغويتني لأزين لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين . إلا عبادك منهم المخلصين ﴾^(٣)

وإذا ما حقق الإنسان العبودية لله ، فإن الله يتولاه بالإمداد بالمعرفة . . إنه سبحانه يقول عن موسى وفتاه :

﴿ فوجدنا عبداً من عبادنا ، آتيناها رحمة من عندنا ، وعلمناه من لدنا علماً ﴾^(٤)

إنه حقق العبودية ، فكان ثمرة ذلك أن يضره الله بالرحمة ، وأن يفيض عليه العلم . .

وليست المعرفة وحدها هي ثمرة التحقق بالعبودية ، بل إن للتحقق بالعبودية ثماراً كثيرة سامية .

فأيوب عليه السلام ، يقول الله عنه :

﴿ واذكر عبدنا أيوب ، إذ نادى ربه أنى مسنى الشيطان بنصب وعذاب . اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب . ووهبنا له أهله ، ومثلهم معهم ،

رحمة منا وذكرى لأول الأبواب . ونخذ بيدك ضغثاً فاضرب به ولا تحث إننا وجدناه صابراً ، ثم العبد إنه أواب ﴾^(٥)

ولقد حقق سيدنا رسول الله ﷺ العبودية كاملة تامة .

لقد حققها في ذروتها ، فكانت صلاته ، وكانت نسكه ، وكانت حياته بأكملها ، وكان موته لله رب العالمين . . لا شريك له :

﴿ قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين . لا شريك له ، وبذلك أمرت ، وأنا أول المسلمين ﴾^(٦)

لقد حققها موفورة تامة ، فاتاه الله عز الدنيا والآخرة . .

وبتأية الرسول ﷺ ، والافتداء به ، صار الصوفية على الترتيب . . يقول صاحب « عوارف المعارف » :

(الصوفى : هو الذى يكون دائم التصفية ، لا يزال يصفى الأوقات عن شوب الأقدار ، بتصفية القلب عن شوائب النفس . . ويعتد على هذه التصفية

دوام اقتفاره إلى مولاه . . فبدوام الافتقار ينقى من الكدر . . وكلما تحركت النفس ، وظهرت بصفة من صفاتها . أدركها بصيرته النافذة وفرسها إلى ربه .

فبدوام تصفية جمعيته ، وبحركة نفسه تفرقه وكدره . . فهو قائم بربه على قلبه ، وقائم بقلبه على نفسه . . قال الله تعالى :

﴿ كونوا قوامين لله ، شهداء بالقسط ﴾^(٧)

وهذه القوامية لله على النفس ، هي التحقيق بالتصوف^(٨) ويقول في موضع آخر :

(والصوفى يضع الأشياء مواضعها ، ويدبر الأوقات والأحوال كلها بالعلم ، يقيم الخلق مقامهم ، ويقوم أمر الحق مقامه . . ويستتر ما ينبغي أن

يستر ، ويظهر ما ينبغي أن يظهر . . ويأتى بالأمور في مواضعها ، بحضور عقل ، وصحة توحيد ، وكمال معرفة ، ورعاية صدق وإخلاص)^(٩)

(٦) الأنعام : ١٦٢ - ١٦٣

(٧) المائدة : ٨٠

(٨) عوارف المعارف ج ١ ص ٢٠٨ بتحقيقنا .

(٩) عوارف المعارف ج ١ ص ٢٢٢ بتحقيقنا .

(٥) ص : آية ٤١ - ٤٤

(٣) الحجر : ٤٩ ، ٤٠

(٤) الكهف : ٦٥

لقد أخذ الصوفية أنفسهم بالناسى بالرسول ﷺ فيما دق من الأمور ، وما
وضح منها . . . وفي السير من أعالمهم ، والعظيم منها . . . ومن أمثلة ذلك :

في الجهاد :

ولا يتأتى أن نذكر تاريخاً مفصلاً لجهاد الصوفية الحربي ، ولكننا نكتفي هنا
ببعض الأمثلة :

كان « شقيق البلخي » وهو من قم الصوفية الشاذلية ، يسارع إلى خوض
المعارك لا يبالي على أى جنب كان في الله نصرعه . . .

انظر إليه : خائضاً المعارك ، محارباً العدو ، مسلحاً بإيمانه ، وثقة في الله ،
وعذته الحربية . . . شاهراً سيفه ، فارساً بكل ما تتطلبه كلمة الفروسية من معنى ،
هادئاً ، مطمئناً ، كامل الثقة في الله . . .

ولقد وصلت ثقته بالله ، إلى حد أنه - وهو لا يرى إلا سيوفاً مصلتة ،
ورقياً تقطع ، ورموساً تتساقط - يقول لمن يجواره في هذا الجو : كيف ترى
نفسك ؟ أترى نفسك في سعادة ، تشبه سعادتك في الليلة التي زفت فيها امرأتك
إليك ؟

فأجابه الذي يجواره : لا . . . والله . . .

فقال « شقيق » : لكفى والله . . . أرى نفسي في هذا اليوم ، مثلها في الليلة
التي زفت فيها امرأتى إلى . . .

لقد كان سعيداً بجهاده ، ومات شهيداً في معركة الشرف والبطولة ، في
ساحة الحرب والجهاد .

وشخص آخر - هو من قم الصوفية أيضاً - : إنه « حاتم الأصم » : كان

يدخل المعارك ، ويخوضها في غير خوف ولا فرح ، وما كانت نفسه تطير شعاعاً
من الأبطال . . . وما كان يقول لها : لن تراعى : لقد كان كيانه كله في ثقة مطلقة
بالله - وهذه الثقة تمثل أجمل ما يكون المثل ، حيناً أخذوه أسيراً وطرحوه
أرضاً ، وجثم العدو على صدره لينجم . . .

إنه يصف شعوره وهو في هذه الحالة فيقول :

لم يشتغل به قلبي - بل كنت أنظر ماذا يحكم الله تعالى في . . . فينا هو
يطلب السكين التي يذبح بها ، أصابه سهم فقتله . . . ولت سليماً معافى . . .
قام سليماً معافى . ليعاود المعركة من جديد .

وإذا قفزنا في ساحة الزمن ، قفزة واسعة ، فوصلنا إلى معركة المنصورة ،
فإننا نجد كبار المؤمنين ، وصفوة الصوفية في قلب المعركة .

لقد تركوا بيوتهم وأسرهم ، وهبوا متدفعين إلى المنصورة ، ليساهموا في
النصر والاستشهاد في سبيل الله ، ولتكون الجنة تحت ظلال سيوفهم . ولقد
كان - وهذا له أهميته الخاصة - « أبو الحسن الشاذلي » وهو من صفوة الصفوة
الصوفية قد تجاوز الستين ، وكان قد كف بصره ، ومع ذلك فإنه ترك بيته ،
وذهب إلى المنصورة . مساهماً في المعركة بقدر استطاعته .

لقد كانت معركة شغله بالنهار ، وشغله بالليل ، لقد كانت تشغله
مستيقظاً . فيمر بسمته الوقور ، وبهيته المستمدة من تقواه ، وبالنور يشرق من
وجهه ، بين الجنود . مشجعاً ، حاثاً ، مبشراً بالنصر وبالجنة ، فإذا ما جئته
الليل ، أخذ ينهل إلى الله سبحانه وتعالى ، متضرعاً ، خاشعاً ، راجياً التوفيق
والنصر ، للأمة الإسلامية .

وفي ليلة من ليالي . رأى رسول الله ﷺ - في رؤيا طويلة وأصبح رضى

الله عنه يبشر بالنصر.

ولم تكن هذه هي الموقعة الأولى ، التي أسهم فيها « أبو الحسن الشاذلي »
رضي الله عنه - ولم تكن الأخيرة .

وإذا ما قفزنا مرة أخرى - في ساحة الزمن - قفزة واسعة ، فإننا نلتقي
بالصوفي الشهير : « عبد القادر الجزائري » .

كان من كبار الصوفية ، ومن كبار القادة في الحرب . ولقد حارب الاستعمار
في الجزائر ، وفعل بإيمانه القوي ، وصوفيته العميقة الأعاجيب ، في الشجاعة
والإقدام .

ولقد بدأ الحرب بأفراد قلائل . سرى إيمانه وإقدامه فيهم ، فتمثلت فيهم
الشجاعة في أسمى مظاهرها ، وأخذ عددهم يزداد ، شيئاً فشيئاً ، حل مر
الأيام .

أما أسلحتهم : فقد كانت ما يحصلون عليه من أسلحة العدو .
ولقد وجه الأمير « عبد القادر » النداء تلو النداء ، للأمة الإسلامية ، من
أجل العون المالي ، والإنساني ، ومن أجل العون في العتاد . فكانت
المساعدات التي قدمت إليه منجدة ، يتهدى لها الجيبي .

ولم تشعر الأمة الإسلامية ، بأنها أمة واحدة . . وكأنها لم تسمع ولم تقرأ قول
الله سبحانه وتعالى :

﴿ إن هذه أمتكم أمة واحدة ، وأنا ربكم فاعبدون ﴾ (١٠) .
وقوله تعالى :

﴿ وإن هذه أمتكم أمة واحدة ، وأنا ربكم فاتقون ﴾ (١١) .

(١٠) الأنبياء : ٩٢ .

(١١) المؤمنون : ٥٢ .

إن الأمة الإسلامية لم تتجاوب معه تجاوب الإخوة ، وكأنها لا تشعر بقوله
تعالى : ﴿ إنما المؤمنون إخوة ﴾ (١٢) .

ولا تحس بالإحساس الإسلامي .

(المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه ولا يسلطه ولا يجذله) (١٣) .

(المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً) (١٤) .

ترى المؤمنين في توادهم ، وتراحيمهم كالجسد الواحد ، إذا اشتكى عضو ،
تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى .

ولم يكن كل ذلك الأمير « عبد القادر » ، عن متابعة الحرب ، والكفاح ضد
المتعمر ، وحيناً أسراً ، كرمه الأعداء أنفسهم ، لشجاعته وشهامته ومروءته ،
ولما حالت الظروف القاهرة بينه وبين الجهاد والتضحية الحربية - وذلك بعد
الأسر - مكث في « دمشق » يدرس التصوف ، متخذاً « الفتوحات المكية »
كتابه المفضل في الشرح والتفسير . .

ولقد طبع هذه الفتوحات . . وفي أثناء إقامته بدمشق ألف كتاب
« المواقف » . . وهو كتاب في التصوف عريق ، بين فيه وجهة النظر الصوفية ،
في مختلف الموضوعات .

في التزام الشريعة :

أما فيما يتعلق بالتزام الشريعة ، فإننا نبتدئ بذكر كلمة « للإمام ، الكامل
الفقيه ، الأصولي ، المفسر ، الإيسرائيلي » . صاحب كتاب : « التبصير في

(١٢) الحجرات : ١٥ .

(١٤) البخاري .

(١٣) مسلم .

الدين . . . وهو من أئمة أهل السنة ، المعنيين أشد عناية بالرد على كل من يخالف مذهب أهل السنة .

إنه يذكر ما يمتاز به أهل السنة ، عن غيرهم من الخوارج ، والروافض ، والقدورية . . . فيذكر أن سادس ما يمتاز به أهل السنة هو .

علم التصوف والإشارات ، وما لهم فيها من الدقائق والحقائق ، لم يكن قط لأحد من « أهل البدعة » فيه حظ . . . بل كانوا محرومين مما فيه : من الراحة والحلاوة ، والسكينة والطمأنينة .

وقد ذكر « أبو عبد الرحمن السُّلَمي » من مشايخهم ما يقرب من ألف ، وجمع إشاراتهم وأحاديثهم . . . ولم يوجد في جملتهم قط من ينسب إلى شيء من بدع « القدورية » ، والروافض ، والخوارج .

وكيف يتصور فيهم من هؤلاء ، وكلامهم يدور على التسليم والتفويض ، والتبرئ من النفس ، والتوحيد بالخلق والمشية .

وأهل البدع ينسبون الفعل ، والمشية ، والخلق والتقدير ، إلى أنفسهم ، وذلك بمنزل عما عليه أهل الحقائق من التسليم والتوحيد .

بعد هذا نبدأ في النظر إلى طريق التصوف ، وصلته بالشريعة :

يقول الإمام « الغزالي » :

إن الطريق إلى ذلك إنما هو : « تقديم الجاهدة ، أو نحو الصفات المذمومة ، وقطع العلائق كلها ، والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى . . . ومهما حصل ذلك ، كان الله هو المتولى لقلب عبده ، والمتكفل له بتزويده بأنوار العلم .

وإذا تولى الله أمر القلب فاضت عليه الرحمة ، وأشرق النور في القلب ، وانشرح الصدر ، وانكشف له سر الملكوت ، وانتشع عن وجه القلب حجاب

الغرة ، بلطف الرحمة ، وتلاآت فيه حقائق الأمور الإلهية ، فليس على العبد إلا الاستعداد . . . بالتصفية المجردة ، وإحضار الهمة ، مع الإرادة الصادقة ، والتعطش التام ، والترصد بدوام الانتظار ، لما يفتحه الله تعالى من الرحمة . . . وعن هذا الطريق ، يقول « ابن خلدون » .

« وقد كان الصحابة رضی الله عنهم على مثل هذه الجاهدة ، وكان حظهم من هذه الكرامات أوفر المحفوظ ، لكنهم لم يقع لهم بها عناية .

وفي فضائل « أبي بكر » . « وعمر » ، « وعثمان » ، وعلى ، رضی عنهم كثير منها ، وتبهم في ذلك أهل الطريقة ، ممن اشتملت رسالة « القشيري » على ذكركم ، ومن تبع طريقته من بعدهم .

هذا فيما يتعلق بالطريق . . .

أما فيما يتعلق بالموضوع ، والشعور ، والأحوال فإن الصوفية - على وجه العموم - نبهوا في صور حاسمة إلى وجوب التزام الشريعة ، يقول الإمام « أبو الحسن الشاذلي » رضی الله عنه :

(من دعا إلى الله تعالى . بغير ما دعا به رسول الله ﷺ ، فهو بدعي) .
ويقول :

(إذا لم يواظب الفقير على حضور الصلوات الخمس في الجماعة ، فلا تعباً به) .

ومن أجمل كلماته في هذا ، قوله :

(ما ثم كرامة أعظم من كرامة الإيمان ، ومتابعة السنة . . . فن أعطيتها ، وجعل يشاق إلى غيرهما ، فهو عبد مفر كذاب ، أو ذو خطإ في العلم والعمل بالصواب . كمن أكرم بشهود الملك على نعت الرضا ، فجعل يشاق إلى سياسة

صوب ، وعلج الرضا) .

وكل الصوفية ينجون هذا النج . ومن هؤلاء مثلاً : « أبو يزيد البسطامي »

عسى يفرق في قوة حاسمة ، وفي نطق صادق .

(لو نظرنا إلى رجل أعطى من الكرامات ، حتى يرتق في الهواء ، فلا تغفروا

، حتى تغفروا كيف يجذونه عند الأمر والنهي ، وحفظ الحدود ، وأداء

الشريعة) .

ولقد تحدث الإمام « الجنيد » أكثر من مرة ، فيما يتعلق بالصلة بين التصوف

والشريعة . وما قاله في ذلك :

(الطرق كلها مسبوقة على الخلق ، إلا على من اتقى أثر الرسول ﷺ ،

واتبع سنته ، ولزم طريفته) .

وقال أيضا :

(من لم يحفظ القرآن ، ولم يكتب الحديث ، لا يقتدى به في هذا الأمر ،

لأن علمنا هذا مقيد بأصول الكتاب والسنة) :

ولقد كان الإمام « الغزالي » ، في سلوكه ، وفي قوله ، وفي حياته الخاصة

والعامة يلتزم الشريعة ، ويقول : إن المحققين قالوا :

(لو رأيت إنساناً يطير في الهواء ، ويمشي على الماء ، وهو يتعاطى أمراً يخالف

الشرع ، فاعلم أنه شيطان) .

والواقع : أن المثل الأعلى للصوفية على بكرة أبيهم ، إنما هو رسول الله

ﷺ ، وهم يحاولون - باستمرار - أن ينجوا نجاهه ، وأن يسيروا على منواله ،

فهو إمامهم الأسمى في كل ما يأتون ، وما يدعون وهم يتابعونه مهتدين في ذلك

يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة ، لمن كان يرجو الله واليوم

الآخر ، وذكر الله كثيراً ﴾ .

وبعد : فقد تبيننا مما سبق أن الطريق إلى الله هو التحقيق بالعبودية ، وقد

سار الصوفية في هذا الطريق ، فأثمر لهم ثماراً سامية كثيرة :

منها الجهاد .

ومنها التزام الشريعة .

وماذا بعد ذلك ؟

أما عن الصوفية والعلم : فإن الصوفية يمثلون العلم الإسلامي في قته ، في

جميع فروعه : في الفقه ، وفي التفسير ، وفي الحديث ، وفي الأخلاق . . .

وإذا أردنا أن نتحدث عن القمة العلمية الشائعة ، التي لا تضارع فيما

اجتمع لديها من علوم مدروسة ، مرواة محكمة ، فيها الإتقان ، والاستنتاج

المتبصر ، والتبصر المتابع ، والاتباع الواعي ، أضفى شخصية الشيخ الأكبر

« محيي الدين » فإن الحديث عنها يستغرق مجلدات .

وإن مقارنات مؤرخي الفكر ، بين الشيخ الأكبر وغيره من الغربيين

والشرقيين ، تصعد به إلى القمة .

والشيخ الأكبر يذكر دائماً بحجة الإسلام « الغزالي » الذي جمع في

إحيائه ، أربعين كتاباً ، كل منها له استقلاله ، وله ذاته ، وألف منها - في

إحكام محكم - كتابه « إحياء علوم الدين » .

ولقد انهار تحت قلمه في سهولة ويسر ، عباقرة الفكر الفلسفي ، فتهاوتوا ،

وانهاروا ، وأتى عليهم كتابه النفيس « تهافت الفلاسفة » .

وأخذ حجة الإسلام بدعة الفلسفة ، وعيث الفلسفة في الشرق
«إسلامي» .

وللإمام « الغزالي » أكثر من ثمانين كتاباً «رسالة» في الأصول ، والفقه ،
التوحيد ، والفلسفة ، والتصوف .

ولا تزال كتبه تقرأ أو تتداول عليها دائماً طابع النضرة - طابع الخلود .
والصورة الجميلة في الصوفية - في الأغلب الأعم - هي صورة

«الجنيدي» .

لقد كان الكتاب (اللغويون والأدباء) يحضرون مجلته ، لألفاظه .
والفقهاء ، لتقريره .

والفلاسفة ، لدقة نظره ومعانيه .

والتكلمون ، لتحقيقه .

والصوفية ، لإشاراته وحفاته .

يقول صاحب « الرسالة القشيرية » عنه :

وكان فقيهاً على مذهب « أبي ثور » وكان يفتي في حلقاته بحضرة ، وهو ابن
عشرين سنة .

ويروى صاحب « الرسالة القشيرية » عن « أبي الحسين علي بن إبراهيم
الحداد » ، يقول : حضرت مجلس القاضي « أبي العباس من شريح » ، فتكلم

في الفروع ، والأصول ، بكلام حسن ، عجبت منه ، فلما رأى إعجابي ،

قال : أتدرى من أين هذا ؟

قلت : يقول به القاضي .

فقال : هذا بركة مجالسة « أبي القاسم الجنيدي » .

وإذا ذكر « الجنيدي » ذكر أستاذه : « الحارث المحاسبي » . وقد كان

« الحارث » مثقفاً في الدين والعربية ، كأحسن ما يكون المثقف ، لقد كان

فقيهاً ، وكان محدثاً ، وكان متكلماً ، وكان عالماً في الأخلاق ، وكان صوفياً ،

ولقد دخل - في قوة - كل المشاكل التي وجدت في عصره ، باحثاً ، مرشداً ،
مجادلاً هادياً إلى الحق ، والحق في نظره هو ما كان عليه الرسول ﷺ
وأصحابه .

وألف « المحاسبي » الكثير من الكتب ، في شتى مجالات العلوم .

وليأخذ الإنسان أي صوفي من هؤلاء الذين ذكرهم « السلمي » في
« طبقاته » ، أو الذين ذكرهم « القشيري » في « رسالته » ، أو الذين تحدث

عنهم صاحب « الحلية » فسيجد أنهم قوم اتخذوا من العلم عبادة وعكفوا على
دراسته تقريراً إلى الله سبحانه .

وما كان علم الكتب هو غايتهم الأخيرة ، وإنما مع علم الكتب ، كان

طموحهم إلى العلم الوهبي : العلم الذي يمنحه الله لبعض عباده ، العلم الذي

سافر « موسى » عليه السلام سفرة شاقة مجهدة ، ليتلقى في نهايتها مع عبد من
عباد الله تعالى ، علمه الله من لدنه علماً . يقول سبحانه عن « موسى » وفتاه :

﴿ فوجدنا عبداً من عبادنا ، آتينا رحمة من عندنا ، وعلمناه من لدنا
علماً ﴾ .

وهو علم يمنحه الله لمن حقق له العبودية .

ولأن هذا العلم - وهو معظمهم الأخير - لا يتأتى إلا بإخلاص العبودية

له ، لأن إخلاص العبودية لله لا يتأتى إلا بأن يكون الاستفراق في العمل :
صلاة وذكر وصياماً . . . من الأسس الجوهرية في حياة الإنسان ، فإنهم

المجهول في صورة موفقة إلى العمل ، لقد أخذوا الكتاب بقوة ، وكانوا أتقياء .
فأفاض الله عليهم من إلهاماته ، واتسم ما دُونوه بطابع الروحانية ، واتسم
بالنصرة ، وكان طابعه أن يركز على مر الزمن .

والصورة الحية المثالية للإلهامات هي كتاب « إحياء علوم الدين » لحجة
الإسلام وكتاب « الحكم لابن عطاء الله » .

ولقد كان لكتيب الأثر الكبير الواضح في النهاية على مر العصور .

• • •

وقد يتساءل قوم : وماذا عن العمل ، والضرب في الأرض ، واكتساب

الرزق ؟

وأبتدئ في هذا الموضوع بذكر بعض ألقاب الصوفية :

القصار ، الوراق ، الخراز ، الخراس ، البرزاز ، الحلاج ، الزجاجي ،

الحصري ، الصوفي ، المقرئ ، الفراء :

وهذه ألقاب مأخوذة من مهن كانت لهم .

ولقد كان الصوفية كثيرهم ، منهم الفقير ، ومنهم الغني ، ومنهم العازف

عن الثراء المريض ، ومنهم أصحاب الثروات الضخمة ، التي يؤدون فيها حق

الله ، ويتفقون منها في سبيله ، إنهم يؤتون حق المال يوم حصاده :

﴿ وفي أموالهم حق معلوم ، للسائل والمحروم ﴾ .

وهذا مثلا « أبو الحسن الشاذلي » رضى الله عنه ، وهو من صفوة الصفوة

الصوفية ، كانت له مزارع .

وتقول « مزارع » بالجمع ، لتابع في هذا التعبير حديث المؤرخين عنه ،

وكان له حصاد ، ودراس .. وكانت له ثيران .. وكان يتاجر ..

ومن دعائه المشهور :

« اللهم وسع على رزقي في دنياي ، ولا تحببني بها عن أخرى » .

ومن دعائه بشأن الدنيا :

« اللهم اجعلها في أيدينا ، ولا تجعلها في قلوبنا » .

والفرق بين الصوفية وغيرهم في هذا : هو أن الدنيا لا تستبد بهم : وإنما

تستبد غيرهم .

إنهم لا يلقون بقيادهم إلا الله سبحانه وتعالى ، فلا يلقون بقيادهم إلى مال

أو جاه ، أو منصب أو رياسة ، أو غير ذلك مما يذل له أهل الدنيا ، وأهل

الآهواء ، الذين يتخفون دنياهم ، وأهوامهم آله يعبدونها من دون الله . .

إنهم أغنياء أو فقراء تحققوا بقوله تعالى :

﴿ لكيلا تأسوا على ما فاتكم ، ولا تفرحوا بما آتاكم ﴾ .

و « ابن عطاء الله السكندري » يقص في كتابه الجميل : « لطائف المنن » .

قصة ترى صوفى تحقق بالآية القرآنية الكريمة ، فلم يمنعه تراؤه الضخم

المريض أن يكون صوفياً .

يقول « ابن عطاء الله » :

« قال بعض المشايخ : كان رجل بالمغرب من الزاهدين في الدنيا ، ومن

أهل الجهد والاجتهاد ، وكان عيشه مما يصيده من البحر ، وكان الذي يصيده

يتصدق ببعضه ، ويتقوت ببعضه ، فأراد بعض أصحاب هذا الشيخ أن يسافر

إلى بلد من بلاد المغرب ، فقال له هذا الشيخ :

إذا دخلت إلى بلد كنا ، فاذهب إلى أخي فلان ، فأقره مني السلام ،

وتطلب الدعاء منه لي ، فإنه ولي من أولياء الله تعالى :

قال : فسافرت ، حتى قدمت تلك البلدة ، فسألت عن ذلك الرجل ، فدللت على دار لا تصلح إلا للملوك ، فتعجبت من ذلك ، وطلبتة فقيل لي : هو عند السلطان ، فازداد تعجبي ، وبعد ساعة ، وإذا هو آت في أفخر ملابس ومركب ، وكأنما هو ملك في موكبه .

قال : فازداد تعجبي أكثر من الأول .

قال : فهمت بالرجوع وعدم الاجتماع به ، ثم قلت : لا يمكنني مخالفة الشيخ .

فاستأذنت ، فأذن لي ، فلما دخلت رأيت ما هالني من العبيد ، والخدم ، والشارة الحسة ، فقلت له :

أخوك فلان يسلم عليك .

قال : جئت من عنده .

قلت : نعم .

قال : إذا رجعت إليه قل له :

إلى كم اشتغالك بالدنيا ؟ وإلى كم إقبالك عليها ؟ وإلى متى لا تنقطع رغبتك فيها ؟

فقلت : هذا والله أعجب من الأول ، فلما رجعت إلى الشيخ ، قال : اجتمعت بأخي فلان ؟

قلت : نعم .

قال : فما الذي قال لك ؟

قلت : لا شيء .

قال : لا بد أن تقول لي ؟

فأعدت عليه ما قال ، فبكي طويلاً وقال :

صدق أخي فلان ، هو غسل الله قلبه من الدنيا وجعلها في يده ، وعلى

ظاهره ، وأنا أخذها من يدي ، وعندى إليها بقايا التطلع .

وفي نهاية هذه الكلمة نورد صورة لشخصية صوفية متكاملة ، وإن كانت

مشهورة ، نورها عن « الطبقات الكبرى » « للشعراني » في اختصار :

يقول الإمام « الشعراني » - عن هذه الشخصية الصوفية - رضي الله عنه :

« ومنهم شيخنا وقدوتنا إلى الله تعالى : الإمام الصالح الورع الزاهد

« شمس الدين الديروطي » ، ثم « اللمياطي » الواعظ .

كان في الجامع الأزهر أيام السلطان « قانصوه الغوري » ، وكان رضي الله

عنه مهابةً عند الملوك ، والأمراء ، ومن دونهم ، زاهداً ورعاً ، مجاهداً ، صامحاً

قائماً ، آمراً بالمعروف ، ناهياً عن المنكر . وقد حضرت مجلس وعظه في الجامع

الأزهر مرات ، فرأيت مجلساً تفيض فيه العيون ، وكان إذا تكلم أنصتوا

بأجمعهم ، وكان يحضرها أكابر الدولة ، وأمراء الألو ف كان كل واحد يقوم

من مجلسه ، متخشعاً ، صغبراً ، ذليلاً . رضي الله عنه . . وكان إذا مر في

شوارع مصر ، يتزاحم الناس على رؤيته ، وكان من لم يحصل ثوبه ، رمى

برداءه من بعيد على ثيابه ، ثم يأخذ رداءه فيمسح به على وجهه ، رضي الله

عنه .

حط مرة على السلطان « الغوري » في ترك الجهاد ، فأرسل السلطان خلفه ،

فلما وصل إلى مجلسه ، قال للسلطان : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته - فلم

يرد عليه - فقال : إن لم ترد السلام فسقت وعزلت . فقلت : وعليكم السلام

ورحمة الله وبركاته ، ثم قال :

الفصل الأول

التصوف

- لفظاً
- وتعريفاً
- وطريقاً
- ومصادر
- ونشأة
- وشيخة عامة عنه

حول كلمة « تصوف »

١- يروى عن أحد الصالحين : أنه كان يمتنع عن التحدث بما يتعلق بشخصه ، ولو أمكنه أن يلقى سيرته الشخصية من أدهار الناس ، ولو أمكنه أن يلقى اسمه لفعل راضياً مغبطاً ، ذلك أن التسمية والجلاب الشخصي القردى فى الإنسان لا قيمة لها ، إذا نظرنا إلى الآفاق العليا من الروحانية .

ومما يتلاءم مع هذا الاتجاه قول بعض الصوفية ما معناه :

إن طائفة الصوفية : لو تترعت عن الفردية والشخصية لترهم الله عن التسمية تترهاً مطلقاً ، ولكن لما شابته الفردية أعمال بعضهم وصح لهم اسم واندرجوا تحت عنوان « الصوفية » .

وسئل « الشبلى » رضى الله عنه : لم سميت « الصوفية » بهذا الاسم ؟
فقال :

هذا الاسم الذى أطلق عليهم ، اختلف فى أصله وفى مصدر اشتقاقه : ولم يتنه الرأى فيه إلى نتيجة حاسمة بعد .

ومن أقدم الآراء التى قيلت ، وأطرفها : ما ذكره « البيرونى » من أن هذا اللفظ إنما هو تحريف لكلمة : « سوف » اليونانية التى تعنى الحكمة يقول « البيرونى » .

إن من اليونانيين من كان يرى الوجود الحقيقى للعبة الأولى صعباً لاستعنائها بذاتها فيه ، وحاجة غيرها إليها ، وأن ما هو مفقود فى الوجود إلى عبده هو وجوده

كالخيال غير حق ، والحق هو الواحد الأول فقط ، وهذا رأى السوفية ، وهم الحكماء ، فإن «سوف» باليونانية الحكمة ، وبها سمى «الفيلسوف» بلا سوا أى عبد الحكمة سوف .

ولما ذهب فى الإسلام قوم إلى قريب من رأيهم ، سمو باسمهم . ويرى «البيرونى» أن التصحيف دخل هذا الاسم بعد ذلك ، فقال : مفسراً ومعللاً . ولم يعرف اللقب بعضهم ، فنسبهم - لتوكل إلى الصُّفَّة ، وأنهم أصحابها فى عصر النبي ﷺ .

ثم صحف بعد ذلك فصير : من صوف التيوس . . .

ورأى «البيرونى» هذا على طرافته لا يستقيم لسبب بسيط ، وهو أن النسبة «بالصوف» كانت موحودة قبل ترجمة الحكمة اليونانية إلى اللغة العربية . «فالبيرونى» يقول فى صراحة :

«ولما ذهب فى الإسلام قوم إلى قريب من رأيهم سمو باسمهم» . ورأى «البيرونى» إذن لا يستقيم ، إلا هل أن هذا اللفظ : نشأ فى الإسلام بعد أن عرفت الكلمة اليونانية ، وعرف معناها وتداولتها الألسنة ولاكتها الأفواه ، وألفت معناها العقول ، أى حوالى منتصف القرن الثالث للمجرى ، على أقل تقدير مع أن الكلمة عرفت قبل ذلك بكثير ، بل لقد عرفت فى العهد الجاهلى على ما يرى صاحب «اللمع» .

ولكن إذا كان رأى «البيرونى» لا يستقيم ، فإلام توجه فى اشتقاق هذه الكلمة .

إن الآراء أصبحت معروفة ، بل لقد كانت معروفة من قديم الزمان وصاحب الرسالة القشيرية يستعرضها رأياً ، رأياً ، ويتقضاها جميعاً .

١- فأما قول من قال : إنه من الصوف ، وتصوف إذا لبس الصوف كما يقال : قمص إذا لبس القميص ، فذلك وجه .

ولكن القوم لم ينجسوا بلبس الصوف .

٢- ومن قال : إنهم منسوبون إلى صفة مسجد رسول الله ﷺ : فالتسبة إلى الصفة لا تجىء على نحو الصوف .

٣- ومن قال : إنه من الصفاء .

فاشتقاق «الصوفى» من الصفاء بعيد فى مقتضى اللغة .

٤- وقول من قال : إنه مشتق من الصف فكأنهم فى الصف الأول بقلوبهم من حيث المحاضرة من الله تعالى : المعنى صحيح .

ولكن اللغة لا تقتضى هذه النسبة إلى الصف .

وإذا كان صاحب الرسالة القشيرية : يتقد كل هذه الآراء ، فإنه إذن لا يرى الاشتقاق ويقول : هذه النسبة غلبت على هذه الطائفة ، فيقال : رجل صوفى . وللجماعة صوفية ، ومن يتوصل إلى ذلك يقال له : متصوف وللجماعة : للمتصوفة .

وليس يشهد للاسم - من حيث العربية - قياس ولا اشتقاق ، والأظهر فيه أنه كاللقب :

لقد استعرضنا الآراء التى قيلت فى هذا الموضوع قديماً ، فهل يا ترى هناك من جديد ؟

٢- ما رأى الباحثين الحديثين في أصل كلمة (تصوف) .

يقول الشيخ « عبد الواحد يحيى » :

أما أصل هذه الكلمة : « صوف » فقد اختلف فيه اختلافاً كبيراً ، ووضعت فروض متعددة ، وليس بعضها أولى من بعض ، وكلها غير مقبولة . إنها في الحقيقة تسمية رمزية ، وإذا أردنا تفسيرها ينبغي لنا أن نرجع إلى القيمة العددية لحروفها ، وإنه لمن الرائع أن نلاحظ : أن القيمة العددية لحروف « صوف » تماثل القيمة العددية لحروف « الحكيم الإلهي » فيكون الصوف الحقيقي إذن ، هو الرجل الذي وصل إلى الحكمة الإلهية . إنه (العارف بالله) إذ أن الله لا يعرف إلا به .

وتلك هي الدرجة العظمى (الكلية) فيما يتعلق بمعرفة الحقيقة .

وقد انفرد الشيخ « عبد الواحد يحيى » ، فيما نعلم بهذا الرأي ، وهو رأى لا يمكن أن ينقض بالأدلة المنطقية ، ولكنه لا يمكن أيضاً أن يؤيد بالأدلة المنطقية يستيفه قوم دون برهان ، وينفر منه آخرون من غير ما حجة .

وإذا تركنا الشيخ « عبد الواحد » لننظر إلى الباحثين في هذه اللفظة ، فإننا نجدهم ينقسمون إلى فريقين لا ثالث لهما .

يخارى فريق منهم « أبا الريحان البيروني » في أنها مأخوذة عن أصل يوناني هو كلمة « سوفيا » اليونانية .

وقد قال بهذا الرأي (فون هامر) من المستشرقين .

واعترفه كثير من الأساتذة الباحثين .

وأيده في حرارة « محمد لطفى جمعه » .

أما السبب الذي جعلهم ينصرفون عن نسبة الكلمة إلى الصوف ، فهو : إهمم يعتقدون أن نسبتها إلى الصوف : يعيد الصوفية عن الحكمة الإلهية ، وينسبها إلى الظاهر والشكل ، وعلى حد تعبير « محمد لطفى جمعه » : « يورد هذه الفرقة المنتمية إلى الإسلام ، من صفة الحكمة والفضيلة » .

وقد بينا رأينا في هذا الموضوع فيما مضى ، ونقول الآن :

إن أصحاب هذا الرأي يعطون قوة وتأيداً ، لمن يزعم أن التصوف الإسلامي وليد الفلسفة « الأفلاطونية » وهو رأى باطل .

ولقد هاجم الدكتور « زكي مبارك » هذا الرأي في قوة وفي منطق سليم . لقد كان العرب - حسماً يرى - مولعين بحفظ ما يدخل لغتهم من الألفاظ الأجنبية ، ولو كان (التصوف) من (سوفيا) لتصرنا عليه ، في كثير من المؤلفات .

ثم إن كلمة (سوفيا) اليونانية ، معناها الحكمة . وكانت (الفلسفة) عند اليونان القسما تهم بالعلوم الطبيعية ، وكان كثير من فلاسفتهم أطباء ، وقد ترجمتها العرب : فسموا الطب : « الحكمة » وكلمة « حكيم » لاتزال تؤدي معنى كلمة : « طبيب » والفلسفة نفسها سماها العرب « الحكمة » وقالوا : تاريخ الحكماء .

فهم عرفوا من سوفيا : « الفلسفة والطب » . أما الحكمة الروحانية ، فمن البعيد أن يكونوا لموها لأنهم كانوا يرون اليونان من عبدة الأوثان .

ثم يقول الدكتور « زكي مبارك » : في ظرف ظريف ، وفي صورة من الجلد هي تعبير ، أبلغ التعبير ، عن التهمك والسخرية : على أنه ما الذي يمنع أن تكون « سوفيا » بمعنى الحكمة الروحانية ، جاءت من كلمة : « صوف » وهي قديمة في العربية ؟

لغة الصوف المخذ من الصلال

تصوف ، قديم جداً عند العرب ، وهو أساس المسيحية ، وليس
كلمة تصوف : كان علامة التشف ، فليس من المستبعد أن تحل
كلمة « صوف » إلى معابد اليونان .

وهو يبق بعد ذلك إلا أن يكون هذا الرأي ، على حد تعبير الدكتور زكي
مبارك : « ليس إلا ضرباً من الإغراب » .

أما لفريق الثاني من الباحثين الحديثين - وهم أكثرية - فإنه يرى أن كلمة
« تصوف » مأخوذة من « الصوف » .

إني أرى - كما نرى الغالبية العظمى من الباحثين الحديثين -

أن لفظة « التصوف » تنسب إلى الصوف ، وكما أنه يقال : تمصص إذا
القميص - كذلك يقال : تصوف إذا لبس الصوف ، ومن أبرز القائلين
الرأي : المرحوم الأستاذ الأكبر الشيخ « مصطفى عبد الرزاق » ، والرحوم
«كتور زكي مبارك» والمستشرق «مرجليوث» .

وإذا كانت الكلمة تنسب إلى اللبس - وهو مظهر وشكل ورمز - فليس
ذلك أن التصوف مظاهر وأشكال .

وليس من المنعم دائماً أن يكون المعنى الأصلي للاسم هو المراد بما وضع الاسم
المعنى الأصلي : قد يتطور ويتغير ويختلف ، وقد يقصد عكسه ، ومن أجل
فإنه لا مجال لتخوف هؤلاء الذين لا يريدون أن ينسبوا التصوف إلى
صوف ، بحجة أن انتسابه إلى المظاهر يحط من شأنه .

حقيقة أن الباحثين كثيراً ما يجدون صلة وثيقة بين المعنى الأصلي للاسم ، وما
الاسم له ، أو بين الاسم والمسمى ، ولكن ذلك ليس مطرداً .

والواقع أن التصوف معي معروف ، لا شأن له بظواهر والأشكال .
وإذا كان بعض الأشخاص لا يزالون يمارون في قيمته أو فائدته ، فإنهم
لا يتحدون التسمية تكأة لهذه الماراة ، ولو فرضنا أنهم تخلوها تكأة لخرجوا عن
صحت الباحثين ، ولأصبحوا صخرية للساخرين .

عل أني أرى - كما يرى كثير غيري وكما يثبت التاريخ - : أن هذه الكلمة
« تصوف » لم توضع في الأصل للتصوف بمعناه العادي ، الذي نفهمه الآن ،
وإنما وضعت في المبدأ لتدل على تمط من العزوف عن الدنيا ، إنها كانت علامة
الزاهدين والمتسكين ، فسمى بها هؤلاء الذين انصرفوا عن الدنيا .

إن العزوف عن الدنيا : عادة قديمة جداً ، يتمسك بها بعض الناس ،
تمشياً مع فكرة دبية وإرصاء لشعور تسكى .

وقد حدثنا القرآن عن هؤلاء الذين يترهبون ابتغاء رضوان الله .
ويتمذهب بها بعض الناس إرضاء لفكرة منطقية ، وتباعاً للمذهب عقلي ،
يرى أن السعادة في الهدوء ، والهدوء لا يتأتى إلا بتحديد اربعبات ، والعد عن
الشهوات وذلك هو الزهد .

وسواء أكان العزوف عن الدنيا ديناً أم كان متطقاً فإنه موجود منذ أقدم
العصور .

فالدين صاحب الدنيا منذ نشأة الإنسان فيها .

والمنطق صاحب الإنسان منذ وجوده .

ولقد رأى هؤلاء الزهاد - من ناحية الملبس - في الصوف : ما يحقق
أهدافهم التي تتصل بالتشف ، والشطف والخشونة ، فهو متين رخيص نحش
لا يحتاج ، الإنسان معه في الشتاء إلى غيره ولا يحتاج إلى تمييزه كثيراً ، ذلك أنه

لا يدل بسرعة فتصوفوا . أى ليسوا الصوف .

وكى لا بد من اسم يطلق على هؤلاء ، وكان من السهولة بمكان أن يطلق عليهم صوفية ، وأطلق الاسم مصادقة أو تصدداً فداع وشاع ! وأصبح الزهاد يعرفون - في البيئات العربية - باسم « الصوفية » .

هؤلاء الزهاد ! كانوا موجودين في العصر الجاهل تديناً أو معنياً ، وكانوا موجودين في صدر الإسلام تديناً أو منطقياً ! حتى إذا كانت « رابطة » ، وكان « الجيد » وكان « ذو النون » . حتى إذا داع التصوف وانتشر بمثلوا عازفين عن الدنيا لأبين الصوف ، أطلقت الكلمة عليهم .

ولم يميز الناس بين حالتين مختلفتين كل الاختلاف هما : حالة الزهد البحت ، وحالة التصوف ، ولم يثر الصوفية على التسمية في حد ذاتها ، ومن لم يرض منهم نسبتها إلى الصوف ، ذهب في نسبتها مذاهب أخرى .

وإذا كانت الكلمة تنسب إلى الصوف فهي كلمة موفقة كل التوفيق ، ولعل عناية المقادير : هي التي هيأت لها الجو لظهور والشروع ، إذ أنها تمت بصلة حرفية ، نغمة جرسية ، إلى كثير من الكلمات التي تدل على معان وثيقة الصلة بالتصوف : كالصفاء « وصلته بالتصوف ظاهرة » .

والصف « الصف الأول في الجهاد : جهاد العدو وجهاد النفس » .

والصفة « صفة مسجد رسول الله ﷺ التي كان يعيش فيها قوم وهبوا أنفسهم للجهاد » .

والصفة « الصفة الجميلة » .

وسوما اليونانية : « التي تدل على معرفة الغيب على وجه الخصوص » .

وكان من التوفيق أيضاً : قدما الغموض نفسه في أصل الكلمة ، لما من شك في أن اختلاف المذاهب والآراء في أصلها : يبين الكثير من معاني التصوف ومن مظاهره .
وبالله التوفيق .

تعريف التصوف

١- يتجه الكثير من الناس - في تعريف التصوف - إلى الجانب الأخلاقي ، وهذا الاتجاه : شائع عند الصوفية أنفسهم ، وعند غيرهم من الباحثين في التصوف والمؤرخين له ، ونذكر الآن عدة أمثلة ، نبين بها هذا الاتجاه :

يقول « أبو بكر الكتاني » ، المتوفى سنة ٢٣٣ هـ :

« التصوف : خلق ، فمن زاد عليك في الخلق ، فقد زاد عليك في الصفاء » .

وتروى الرسالة القشيرية : أن « أبا محمد الجريدي » المتوفى سنة ٣٩١ هـ ، سئل عن التصوف فقال :

« اللخول في كل خلق سعي ، والخروج من كل خلق ذني » .

وأحد تعريفات « أبي الحسين النوري » ، للتصوف - كما تذكره تذكرة الأولياء : « ينشأ عن التصوف أن يكون رسماً ، أو علماً ، ومجده بأنه خلق » . إنه يقول :

« ليس التصوف رسماً ، ولا علماً ، ولكنه « خلق » ثم يعقل ذلك بقوله : لأنه لو كان رسماً ، لحصل بالجاهدة ، ولو كان علماً ، لحصل بالتعليم ، ولكنه تخلق بأخلاق الله ، ولن نستطيع أن نقبل على الأخلاق الإلهية بعلم أو رسم » .
ويحدد أبو الحسين النوري - في تعريف آخر - الأخلاق التي يتكون منها التصوف فيقول :

(التصوف : الحرية . وانكسار . يبيت لتكليف ، والسخاء) .

هذا الاتجاه الأخلاقي في تعريف التصوف ، شائع في الشرق وفي الغرب ، وهو - أيضاً - شائع في الزمن القديم وفي الزمن الحديث ... ومع ذلك ، فإنه لا يعبر عن التصوف تعبيراً دقيقاً

على أن هؤلاء اللذين ذكروا هذه التعريفات الأخلاقية للتصوف ، ذكروا ، هم أنفسهم ، تعاريف أخرى ، وذلك - على الأقل - ببدل دلالة لا ليس فيها ، على أنهم : لم يروا كفاية حرة . حلال في تحديد التصوف وتعريفه . والواقع أننا لو نظرنا إلى كثير من التعريفات التي اشتهروا بالسوء ، في الجانب الأخلاقي الكريم ، وتصور مروج الصفات الأخلاقية ، وانحرفوا الفضيلة مذهباً وشعاراً ، فإننا نجد من أمثلة في المحيط الأخلاقي ، وفي المجتمع .

ولكن ليس معنى ذلك أنهم ، لا يحسنون ، من الصوفية .

ولو نظرنا في البيئة اليونانية لوجدنا دعابة إلى الفضيلة ، وتمتدحاً بها ، ومحاولاً نشرها بشق الوسائل ، وبمختلف طرق ، سواء أكان ذلك بالدعوة الإقناعية ، أو بالمنطق الجليل ، أو بالأسرة الكريمة . ذلك هو سقراط ومع ذلك فإن سقراط هذا لم يكن صوفياً بمعنى الدقيق لكلمة : (صوفي) .

وإذا انتقلنا إلى البيئة الإسلامية ، نجد الحسن البصري ، رضي الله عنه ، من أروع وأجمل الشخصيات الأخلاقية العالمية ، لقد كان مثلاً صادقاً للشعور الأخلاقي ، في طهره وصفاته . وكان ينشر الفضيلة بوعظه المؤثر ، ومطرفة القوى ، وسلوكه المثالي ، ومع ذلك فلم يكن الحسن البصري صوفياً بالمعنى الدقيق لكلمة (صوفي) .

على أنه من الطبيعي : أن تكون الأخلاق الكريمة أساساً من أسس التصوف ، وأن تكون الأخلاق في أسس صورة من صورها ، ثرة للتصوف . ومن الطبيعي أيضاً ، أن تكون الأخلاق الكريمة شعاراً للتصوف ، فيها بين الأساس والثمر ، فهي إذن ملازمة للتصوف وللصوفي ، ملازمة تامة لا تتخلل عنه ، ولا يتخلل عنها ، ولكن ليس معنى ذلك أنها هي التصوف .

٦- وهناك اتجاه أكثر شيوهاً من الاتجاه السابق : هو تعريف التصوف بـ « الزهد » .

وحيثما يسمع كثير من الناس كلمة : « التصوف » ، يفهم منها معنى « الزهد » ولا يفهم من كلمة « صوفى » إلا الزاهد في الدنيا . وما من شك في أن الصوفي : لا يتعلق قلبه بالدنيا ، ولو كان عنده الآلاف والملايين ، بيد أن الزهد في الدنيا شيء ، والتصوف شيء آخر ، ولا يلزم عن كون الصوفي زاهداً ، أن يكون التصوف : هو « الزهد » .

٣- ويختلط كثير من الناس بين الصوفي والعابد ، فإذا ما رأوا أو سمعوا عن شخص كثير العبادة ، قالوا عنه إنه « صوفى » . ولا ريب أن « الصوفى » كثير العبادة ، ولكنك قد تجد أشخاصاً كثيرين يقيمون الصلوات المفروضة ، ويكثرون من التواضع ، ويدومون على العبادة ، ولا يكون معنى ذلك أنهم من « الصوفية » .

ولختلط الناس بين الزاهد والعابد والصوفي ، حاول (ابن سينا) أن يفرق بينهم ، وبين أهداف كل منهم يقول في كتابه « الإشارات » :

١- المعرض عن متاع الدنيا وطيباتها يحص باسم « الزاهد » .

٢- المواظب على فعل العبادات ، من القيام والصيام ومحوها ، يحص

باسم « العابد » .

٣- المتصرف بفكره إلى قدس الجبروت ، مستندجاً لشروق نور الحق في سره ، يخص باسم « العارف » .

وه العارف « عبد ابن سينا » ، هو « لصوفى » .

ويتحدث « ابن سينا » - كما يذكر غيره - أن الزاهد قد يكون عابداً ، والعابد قد يكون زاهداً ، فيمتزج الزهد والعبادة في شخص واحد ، ولا يكون عبادته وزهده معاً : « صوفياً » .

ولكن « الصوفى » لا محالة ، زاهد عابد .

على أن هناك تفرقة حاسمة ، بين زهد الصوفي وعبادته ، وبين زهد غير الصوفي وعبادته .

وهذه التفرقة : إنما هي في الهدف ، أكثر منها في الأسلوب والمنهج . ولقد تحدثت السيدة « رابعة العدوية » ، رضى الله عنها ، عن هذا بأسلوب مؤثر ، وتحدثت غيرها ، والكل يتفق على أن زهد غير الصوفي ، إنما هدفه الاستمتاع في الآخرة ، فهو نوع من المعاملة « كأنه يشتري بمتاع الدنيا متاع الآخرة » .

أما الصوفى : فإنه يزهد في الدنيا ، لأنه ينتزه عن أن يشغله شيء من الله . وعبادة غير الصوفى ، هدفها . دخول الجنة . كأنه يعمل في الدنيا لأجرة يأخذها في الآخرة : هي الأجر والثواب . مثله : كمثل الأجير : يعمل طيلة النهار ليأخذ أجره في المساء .

أما عبادة الصوفى ، فإنها استدامة لصلته بالله تعالى ، إنه يعبد الله : (لأنه مستحق العبادة ، ولأنها نسبة شريفة إليه ، لا لرغبة أو رهبة) .

وتقول السيدة « رابعة » رضوان الله عليها ، ما معناه : « اللهم إن كنت أعبدك خوفاً من نارك فألقني فيها ، وإن كنت أعبدك طمعاً في جنتك فأحرمها ، وإن كنت أعبدك لوجهك الكريم . فلا تحرمني من رؤيته . »
 هذه المعاني الخاصة بأهداف الزهد والعبادة - من حيث كونها لوجه الله - إنها معان عادية عند الصوفية ، وكأنها بديهية في عيظهم وفي جوامعهم :
 ﴿ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالعبادة والعشوى يريدون وجهه ﴾ .
 والتصوف إذن : ليس خلقاً فحسب ، ولا زهداً فقط ، ولا عبادة لا غير ، وهو وإن كان متضمناً للخلق الكريم ، وللزهد الرفيع ، والعبادة المتجردة ، فإنه مع كل ذلك شيء آخر .

وكلمة أخيرة قبل أن نفرغ إلى تعريف التصوف : إن الذين يربطون بين التصوف من جانب ، والكرامات وخوارق العادات من جانب آخر كثيرون ، ولكن التصوف ليس كرامات ، ولا خوارق العادات ، إنه شيء يتجاوز الكرامات ، ويتجاوز خوارق العادات .

إن هذه الكرامات مسألة لا يابه بها الصوفية كثيراً ، بل يعدونها من الأشياء البسيطة ، التي تبث السرور في قلب من يجربها الله على يديه ، ولكنه إذا فرح بها واكتفى ، تدل على أنه لم يبلغ بعد في التصوف قدماً ثابتة ، ولا درجات ممتازة .
 ٤- ما هو إذن التعريف الصحيح للتصوف ؟

نذكر الآن بعض التعريفات التي تتجه الوجهة الصحيحة مما يتعلق بالمعنى الحقيقي لهذا الموضوع .

١- أبو سعيد الخراز المتوفى سنة ٢٦٨ هـ .

سئل عن الصوف فقال :

« من صق ربه قلبه ، فامتلاً قلبه نوراً ، ومن دخل في عين اللذة يذكر الله » :

٢- « الجنيد البغدادي » المتوفى سنة ٢٩٧ هـ .

التصوف : هو : أن يبتك الحق عتك ، ويحيك به .

٣- « أبو بكر الكثاني » المتوفى سنة ٣٢٢ هـ .

التصوف : صفاء ومشاهدة .

٤- « جعفر الخلدي » المتوفى سنة ٣٤٨ هـ .

التصوف : طرح النفس في العبودية ، والخروج من البشرية ، والنظر إلى الحق بالكلية .

وسئل « الشبلي » عن التصوف ، فقال :

بدؤه معرفة الله ، ونهايته توحيده

وإذا نظرنا إلى تعريف « الكثاني » ، فإننا نجد أن عبارته المختصرة قد جمعت بين جانبيين هما اللذان - فيما نرى - يكونان - في وحدة متكاملة - تعريف التصوف .

أحدهما : « وسيلة » .

والثاني : « غاية » .

أما الوسيلة : فهي « الصفاء » .

وأما الغاية : فهي « المشاهدة » .

والتصوف من هذا التعريف طريق ، وغاية .

وطريقه يتضمن نواحي كثيرة تشير إليها تسميتها نفسها ، ولعل ذلك من الأسرار التي كانت السبب في هذه التسمية ، والتخاذل عواناً على هذه الطائفة

لقد قال جماعة : إنما سميت « صوفية » : لصفاء أسرارها ، ونقاء آثارها .
وقال « بشر بن الحارث » : الصوفي : من صفا قلبه لله .
وقال بعضهم : الصوفي : من صمت لله معاملته ، وصفت له من الله عز
وحل كرامته .

وهؤلاء يهدفون إلى أن كلمة : « الصوفية » إنما تشير إلى الصفاء ، وهذه
الإشارة لا تخضع لمقاييس اللغة ، وما دامت « إشارة » فإنه من التسف أن
يجادل إنسان في أمر انسجامها مع اللغة ، وعدم انسجامها .
ويقول قوم إنهم إنما سموا : « صوفية » لأنهم في الصف الأول بين يدي الله
عز وجل ، بارتفاع همهم إليه ، وإقبالهم بقلوبهم عليه ، ووقوفهم سرائرهم
بين يديه .

وهؤلاء إنما يعبرون عن إشارة الصوفية إلى الصف : أي إلى الصف الأول
في العمل على الوصول إلى الله والجهاد في سبيله .

أما إشارة الكلمة إلى « أهل الصفة » ، الذين كانوا على عهد رسول الله
ﷺ ، إنما تشير إلى أوصيائهم من العادة ، والتجهد ، وعدم الطمع في
الدنيا ، واستعدادهم الدائم للجهاد في سبيل الله .

وتشير الكلمة للصفة : أي الصفة الكريمة ، التي لا يتعلق فيها القلب
بالمادة وإنما يتعلق بالله تعالى .

وكل ذلك إنما هو حديث عن الوسائل .

على أن هذه الوسائل التي تشير إليها الكلمة لها وسائل أخرى . هذه الوسائل
الأخر منها ما يعبرون عنه بقولهم : « لا يملك ولا يملك » .
ويعنون بذلك أنه « لا يستره الطمع » .

وهذه الكلمة لها مدلول واسع . هي « حبر » من الدنيا ، حتى ولو
منكها عريضة طويلة ، يتحرر من حده . من « حبر » في الملمات ، من الجبري
وراء المال ، من حب السلطان ، من حب « حبر » من الصفات التي تتنافى مع
الفضيلة .

وخاتمة المطاف في هذه الوسائل : « ترتب » من الصفاء ، فإذا ما حل
الصفاء كان عند الإنسان استعداد كم من نشهمة ، فبجود الله عليه بها ، إن
شاء .

هذه المشاهدة هي أسنى درجات معرفة . وهي الغاية النهائية التي يسعى
وراءها ذور الشعور المرهف ، والفطر حلائية ، والشخصيات الربانية .

فالتصوف إذن معرفة - أسنى درجات المعرفة بعد النبوة - إنه مشاهدة وهو
طريقة إلى المشاهدة .

وإذا أردنا أن نجأ إلى الإمام « الغزالي » في تلخيص الطريق والغاية ، فإننا
نجده يقول في كتابه الخالد : « إحياء علوم الدين » .

« الطريق تقديم المجاهدة ، ومحور الصفات المدعومة ، وقطع العلاقات كلها ،
والإقبال بكنه الله على الله تعالى ، ومها حصل ذلك كان الله المتولى لقلب
عبده ، والمتكفل له بتنويره بأنوار العلم .

وإذا تولى الله أمر القلب فاضت عليه الرحمة ، وأشرق النور في القلب
واشرح الصدر ، واكشف به سر نسكوت ، وانفتح عن وجه القلب حجاب
الغرة نلطف الرحمة ، وتلاأت فيه حقائق الأمور الإلهية » .
فإذا ما حصل ذلك كانت شهادة .

ومن القصص اللطيفة التي تصور الوسيلة إلى المشاهدة في سهولة ويسر
قصة التالية:-

قال - ذو النون - :

رأيت امرأة ببعض سواحل الشام .

قلت لها :

من أين أتيت رحمتك الله ؟

قالت :

من عند أقوام تتجاف جنوبهم عن المضاجع ، يدعون ربهم خوفاً وطمعاً .

قلت :

وأين تريدان !

قالت :

إلى رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله .

قلت :

صفيهم لي ، فأنشأت تقول :

قوم همومهم بالله قد حطت
فطلب القوم مولاهم وسيدهم
يا حسن مطلبهم للواحد الصمد
ما إن تنازعهم دنيا ولا شرف
ولا لبس ثياب فائق أتق
ولا لروح سرور حل في بلد
إلا مسارعة في إثر منزلة
قد قارب الخطر فيها باعد الأبد
فهم رهائن غدران وأودية
وفي الشوامخ تلقاهم مع العمد
والمشاهدة التي هي الغاية (للصوفية) هي أيضاً تحقيق واقعي للتعمير ، الذي

ننطق به في كل آونة حينما نقول :

(أشهد أن لا إله إلا الله)

فالشهادة هي غاية الصوف ، وهو إنما يسمى جاهداً إليها بشق الوسائل

ليحقق بالفعل مضمون ما يلفظ به قولاً ، أو ما يقرله حروفاً .

وما من شك في أن تعاريف التصوف الكثيرة التي تجدها متشورة هنا

وهناك ، والتي تكاد تبلغ الألف إنما تعبر في أغلب الأحيان عن زاوية من زوايا

التصوف ، تتصل بالوسيلة ، أو تتصل بالغاية ، فلا يمكن أن يقال عنها إذا ما

كانت كذلك ، إنها خطأ تام ، ولكن الخطأ إنما هو في أخذها ، على أنها تعبر

عن الحقيقة الكاملة . أما ما يعبر عن الحقيقة الكاملة ، فإنما هو تعريف

(الكتاني) : التصوف (صفاء ومشاهدة) .

الطريق الصوفي

المقامات والأحوال :

إن الصوفية لهم طريق روحي ، يسرون فيه |
وهذا الطريق يعتمد أساساً ومنهجاً وعناية على القرآن الكريم ، والسنة النبوية
الشريفة .

وقد ذكرنا في غير هذا الفصل بعض كلمات لكبار الصوفية ، تؤكد وتوضح
اعتمادهم على القرآن الكريم في سيرهم إلى الله تعالى .

وهذا الطريق قد جربه الصوفية ، فثبت ثماره عن طريق التجربة أيضاً ،
وجوهر الطريق الصوفي هو ما سماه الصوفية : المقامات والأحوال .

والمقامات هي المنازل الروحية التي يمر بها السالك إلى الله ، فيقف فيها فترة
من الزمن مجاهدًا في إطارها ، حتى يبسّ الله سبحانه وتعالى له سلوك الطريق إلى
المرتز الثاني ، لكي يتدرج في السمو الروحي من شريف إلى أشرف ، ومن سام
إلى أسهى ، وذلك مثلاً كمرتز « التوبة » الذي يبسّ إلى مرتز « الورع » ،
ومرتز « الورع » يبسّ إلى مرتز « الزهد » ، وهذا حتى يصل الإنسان إلى مرتز
الحجة ، وإلى منزل الرضى .

وهذه المنازل لا بد لها من جهاد وتركبة ، ولذلك يقولون عنها : إنها
مكسة

إنها اجتهاد في الطاعة ، ومواصلة في التماسي في تحقيق العودية لله
سبحانه |

أما الأحوال فإنها النسبات الروحية التي تب على السالك ، فتتعمش بها
نفسه لحظات خاطفة ، ثم تمر تاركة عطرًا . تشوق الروح للعودة إلى تنسم
أريجها ، وذلك مثل : الأانس بالله .

وسواء أكتب بصلد المقامات أم بصلد الأحوال ، فإن الصوفية قد اختلفوا
فيها بين مجمل لها ومفصل .

ولكن الملاحظ أنهم - في وصف المقامات والأحوال - لا يتعارضون .
واختلافهم إذن ليس اختلاف تناقض وتعارض ، وإنما هو اختلاف بسيط
وإيجاز .

ويقول الإمام « أبو نصر السراج الطوسي » عن المقامات .

« والمقامات مثل التوبة ، والورع ، والزهد ، والفقر ، والصبر والرضى ،
والتوكل ، وغير ذلك » (١) .

ويقول عن الأحوال :

« وأما معنى الأحوال : فهو ما يحل بالقلوب ، ونحن به القلوب من صفاء

الأذكار |

وقد حكى عن « الجنيد » رحمه الله ، أنه قال : أحال نازلة تنزل بالقلوب

فلا تدوم » (٢) .

ويقول الطوسي أيضاً :

« وليس (الحال) من طريق المجاهدات والعبادات ، والرياضات -

كالمقامات التي ذكرناها . وهي - أي الحال - مثل : المراقبة ، والقرب ،

والحجة ، والخوف ، والرجاء والشوق ، والأانس ، والطمأنينة ، والمشاهدة

(٢) للسخ : ٦٦

(١) للسخ : ٦٦

واليقين ، وغير ذلك (٣) .

ويقول الإمام « القشيري » عن المقامات :

« والمقام . ما يتحقق به العبد بمنازلته - أي بتزوله فيه ، وبما اكتسب له - من الآداب مما يتوصل إليه بنوع تصرف ، ويتحقق به بضرب تطلب ومقاساة تكلف .

للقام كل أحد : موضع إقامته عند ذلك ، وما هو مشغول بالرياضة له . وشرطه : ألا يرتقى من مقام إلى مقام آخر : ما لم يستوف أحكام ذلك للقام ، فإن من لا قناعة له لا يصح له التوكل . ومن لا توكل له لا يصح له التسليم ، وكذلك من لا توبة له لا تصح له الإنابة ، ومن لا ورع له لا يصح له الزهد (٤) .

ويقول عن الأحوال :

« والحال عند القوم : معنى يرد على القلب ، من غير تعمد منهم ولا اجتلاب واكتساب لهم ، من : طرب ، أو حزن ، أو بسط ، أو قبض ، أو شوق ، أو ازعاج ، أو هيبة ، أو احتياج .

فالأحوال : مواهب ، والمقامات : مكاسب !

والأحوال تأتي من عين الجود ، والمقامات تحصل ببذل المجهود . .

وصاحب المقام يمكن في مقامه ، وصاحب الحال مترق عن حاله (٥) .

(٣) نفس المصدر السابق .

(٤) الرسالة القشيرية ٢٣٤ .

(٥) الرسالة القشيرية ٢٣٦ .

حب الله ورسوله :

وهذا الطريق - الصوفى الذى نتحدث عنه - يستند إلى مقياس يزن به نفسه ، وهو : الاقتداء برسول الله ﷺ : ولا يتأتى الاقتداء به صلوات الله وسلامه عليه ، ما لم يملأ حب رسول الله ﷺ جميع أقطار النفس .

ونبدأ إذن بالحديث عن حب رسول الله ﷺ :

يقول الله تعالى :

﴿ قل إن كان آباؤكم ، وأبناؤكم ، وإخوانكم ، وأزواجكم ، وعشيرتكم ، وأموال اقترنتموها ، ونجارة نخشون كسادها ، ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله ، وجهاد في سبيله فتربصوا ، حتى يأتي الله بأمره ، والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾ (٦) .

وفى معنى الآية الكريمة يروى الإمام « البخارى » رضى الله عنه عن

« عبد الله بن هشام » قال :

« كنا مع رسول الله ﷺ ، وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب فقال : والله

يا رسول الله لأنت أحب إلى من كل شيء إلا من نفسى !

فقال رسول الله ﷺ :

« لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه . »

فقال عمر : فأنت الآن أحب إلى من نفسى !

فقال رسول الله ﷺ : « الآن يا عمر . »

وقول الرسول ﷺ : « الآن يا عمر » أى : الآن وقد صار الرسول ﷺ

(٦) النورة : ٢٤ .

أحب إليك من نفسك ، فقد استقامت أمور الإيمان عندك ، وصرت إلى ما أحب الله ورسوله .

ومحة رسول الله ﷺ تتضمن كشرط أساسي جوهرى انجاده ﷺ قدوة في السلوك والعمل والدرجة الجوهرية في القدوة به ﷺ إنما هي متابعتها في إسلام وجهه لله سبحانه وتعالى .

لقد باع رسول الله ﷺ نفسه وماله لله سبحانه ، وكان أول البائعين ، وكان أمثل الناصحين ، وحقق بذلك وحقق أصحابه ومن اتبع هديه متأسين به قول الله تعالى :

﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، يقاتلون في سبيل الله ، فيقتلون ، ويقتلون ، وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم ﴾ (٧)

لقد اشترى الله في عقد الإيمان النفس والمال ، بشمن هو الجنة ، فإذا بخل المؤمن بنفسه في سبيل الله ، فقد أخل بعقد الإيمان .

وإذا بخل بماله في سبيل الله ، فقد أخل بعقد الإيمان .

وحب رسول الله ﷺ - إذن - إنما هو إيثار ما يجب ، واتباع هديه ، والعمل بسنته في الإيجاب ، وإيثار كل ذلك على الآباء والأبناء وغيرهم ، مما يجب الإنسان من أشخاص أو من أشياء .

وفي هذا يقول رسول الله ﷺ فيما رواه الإمام البخارى ، رضى الله عنه :

« والذي نفسى بيده لا يؤمن أحدكم ، حتى أكون أحب إليه من والده

(٧) التوبة ١١١ .

وولده والناس أجمعين » .

فحب رسول الله ﷺ مرجعه إلى صفات كريمة سامية عليا ، تمثلت فيه طيلة حياته .

والآية الكريمة ، والأحاديث الشريفة التي رويناها ، تدل كلها دلالة صريحة على أنه إذا تعارضت أمور الدين مع المصلحة الشخصية أو مع أمور الدنيا ، فإنه يجب على المؤمن أن يؤثر أمور الدين على غيرها .

يقول الإمام « الرازى » :

« إذا وقع التعارض بين مصلحة واحدة من مصالح الدين ، وبين جميع مهات الدنيا . وجب على المسلم ترجيح الدين على الدنيا » .

أما بعد :

فيقول صاحب الكشاف عن الآية الكريمة التي صدرنا بها هذا الحديث ما معناه :

« وهذه آية شديدة لا ترى أشد منها ، كأنها تنمى على الناس ما هم عليه من رخاوة عقد الدين ، واضطراب حمل اليقين ، فليتنصف أروع الناس وأنقاهم من نفسه ، هل يجد عنده من التصلب في ذات الله ، والثبات على دين الله ما يجعله يؤثر دينه على الآباء والأبناء ، والإخوان ، والعشائر ، والمال ، والمساكن ، وجميع حظوظ الدنيا ويشجر منها لأجله ؟ أم أن الشيطان يغويه من أجل حط من حظوظ الدنيا . فلا يبالي كأنما وقع على أنفه ذباب فظيره ؟ ثم أما بعد :

فإن الحب الصادق له ﷺ يتمثل حقيقة في المحاربة الصادقة ، لالتزام صفاته ﷺ في النفس والعمل على سيادتها في المجتمع .

ومؤلاً لا ينسب لهم في الاقتداء برسول الله ﷺ حيث لم يتوافر فيهم

شرط رجاء الله سبحانه .

والشرط الثاني : أن يرجو الإنسان اليوم الآخر .

ورجاء اليوم الآخر هو رجاء النجاة فيه .

ورجاءه إذن إنما هو المصل للنجاة ﴿ يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى

الله بقلب سليم ﴾ .

ومن لا يرجو اليوم الآخر فليس له في الاقتداء برسول الله ﷺ من

نصيب .

أما الشرط الثالث الذي يجب أن يتوافر في الإنسان حتى يأتي له الاقتداء

برسول الله ﷺ : فهو أن يذكر الإنسان الله كثيراً .

وقد حدد الله الذكر بالكثرة ونص عليها سبحانه ، والذكر الكثير من سمات

المتبين حقاً

والندبين والذكر الكثير من سمات أصحاب العقول الراجحة الذين يذكر الله

سبحانه أن من صفاتهم التفكير للفتنة والاعتبار في خلق السموات والأرض

ومن صفاتهم الذكر في جميع حالاتهم التي هم عليها ، وذلك كله على

أساس من الإيمان الخالص .

يقول الله تعالى في أسلوب رائع ، وفي معان تتسلسل نوباً وتلافاً غيباء

﴿ إن في خلق السموات والأرض ، واختلاف الليل والنهار آيات لأولي

الالباب . الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وحلماً وجنوبهم ، ومنكفون في خلق

السموات والأرض ، ربنا ما خلقت هذا باطلاً ، سبحانه ، فمنا عذاب

النار . ربنا إنك من تدخل النار فقد أضرته ، وما للظالمين من أنصار . ربنا إننا

الأسوة الحسنة :

وحسب رسول الله ﷺ يستلزم لا عمالة الناس به ﷺ ، يقول الله تعالى :

﴿ لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر

وذكر الله كثيراً ﴾ (٨) .

إن الأسوة برسول الله ﷺ خير ما يحقق النجاة في الدنيا والآخرة .

ورسول الله عليه الصلاة والسلام هو المثل الكامل الواقعي ، التطبيق ،

للدين الإسلامي !

إنه الصورة الحية للقرآن الكريم ، وفي ميسر كل إنسان الاقتداء به ، إذا

توافرت فيه ثلاث شروط ، بينها الآية الكريمة :

أولاً : أن يرجو الله ، ورجاء الله يبيته الله سبحانه بقوله :

﴿ لمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً . ولا يشرك بعبادة ربه

أحدًا ﴾ (٩) .

فحقق الرجاء في الله أن يخلص الإنسان وجهه لله في العبادة ، وأن يكون

من ذوى الأحوال الصالحة ، وإلا كان رجاءه في الله شكلاً ، لا حقيقة له .

وظاهراً ، لا جوهر له .

أما الذين لا يرجون لقاء الله فيصنعهم الله تعالى بقوله :

﴿ إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها ، والذين

هم عن آياتنا غافلون ، أولئك مأواهم النار ، بما كانوا يكسبون ﴾ (١٠) .

(٨) يوسف : ٧ - ٨ .

(٩) الأحزاب : ٢١ .

(١٠) الكهف : ١١٠ .

سـ سادياً ينادى للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنوا ، ربنا فاغفر لنا ذنوبنا ، وكفر
عن سيئاتنا ، وتوفنا مع الأبرار ، ربنا وآتانا ما وعدتنا على رسلك ، ولا تحزنا يوم
القيامة إنك لا تخلف الميعاد ﴿١١﴾ .

ويضرب الله على ذلك بقوله :

﴿ فاستجاب لهم ربهم ﴾ !

وبعد :

فإنه إذا توفرت في الإنسان هذه الشروط ، فقد أصبح جديراً بالناسي
برسول الله ﷺ ، وأصبح بذلك من الذين يحونه ، والمره مع من أحب !

التوبة :

وإذا أراد الإنسان أن يتأسي برسول الله ﷺ ، فيحاول أن يقترب ما
استطاع من :

﴿ إن صلاتي وسكوتي ومحاياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له ﴾ .

إذا أراد الإنسان أن يدخل في معنى « الإسلام » كيف يبدأ ؟

ما هي الخطوة الأولى ؟

ما الطريق ؟ ثم إلى أين ؟

ما هي الثمرة المرجوة ، وما هو النفع الذي يعود عليه من ذلك ؟

إنه يبدأ السنول في النظام للقرآني !

والسنول في النظام القرآني معناه : العزم المصمم على التخل عا ليس

بقرآني :

(١١) آل عمران : ١٩٠ - ١٩٤

وهذا ما يسمى في العرف الإسلامي أو في النظام القرآني :

« التوبة » !

ولقد أمر الله في القرآن بالتوبة ، وحث عليها ، وحسب فيها ، وأوجبا في

بعض الأحيان .

والواقع أنها اللبنة الأولى إلى الله ، وهي اللبنة الأولى في طريق إسلام الوجه

الله ، يقول أبو يعقوب يوسف بن حمدان السوسي ، رحمه الله : أول مقام من

مقامات المتقطعين إلى الله تعالى : التوبة . وسئل السوسي عن التوبة ، فقال :

التوبة الرجوع من كل شيء ذمه العلم ، إلى ما مدحه العلم .

ولقد فتح الله باب التوبة على مصراعيه ، تفصلا منه ورحمة ، يقول

سبحانه في حديث قدسي ، وفي أسلوب كله رافة :

(يا عبادي إنك تخطئون بالليل والنهار ، وأنا أغفر الذنوب جميعاً ،

فاستغفروني أغفر لكم) .

ويقول رسول الله ﷺ :

« كل ابن آدم خطاء ، وخير الخطائين التوبون » .

وما من شك في أن توبة العوام - كما يقول « ذو النون » رضي الله عنه -

هي من الذنوب ، وأما توبة الخواص فإنها من الخلة ، وتصل التوبة في سموها

فتكون مما سوى الله تعالى . .

ورسول الله ﷺ يخبر أن الله سبحانه وتعالى « يفرح » بتوبة عبده المؤمن ،

ويعرفنا رسول الله ﷺ أن ربنا ينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا عند ثلث الليل

الأخير فينادي :

(ألا هل من مستغفر فأغفر له ، ألا هل من تائب فأؤوب عليه)

ويقول الله سبحانه وتعالى في صورة من تجل الرحمة وسعة من شمول الرأفة بالعباد :

﴿ قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم ، لا تقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعاً ، إنه هو الغفور الرحيم ﴾ .

ويلى هذه الآية الكريمة ما يبين الطريق إلى المعفرة والرحمة ، يقول سبحانه وتعالى :

﴿ وأنبئوا إلى ربكم ، وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون ﴾ .

أى : ارجعوا إلى الله بالتوبة وإسلام الوجه له .

ثم بين لهم الطريق الصحيح الذى بلى التوبة إذا صدقت بقوله تعالى : ﴿ واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم ، من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة ، وأنتم لا تشعرون ﴾ .

والله سبحانه وتعالى في هذا يوجه الذين صدقوا في توبتهم إلى أن يتبعوا أحسن ما أنزل إليهم من ربهم .

وإذا صدقت التوبة فإن هذا الصدق يستجيب - كلازم من لوازمه - أن يستقيم الإنسان على الطريق .

والله سبحانه يسد على الذين يبين لهم الطريق باب المعادير فيما بعد ، مهدداً تهديداً يقصد به حث الإنسان على أن يسارع بالتوبة الصادقة ، فهو تهديد من رحمن رحيم !

يقول سبحانه :

﴿ أن تقول نفس : يا حسرتنا على ما فرطت في جنب الله وإن كنت لمن

الساخرين . أو تقول : لو أن الله هداني لكنت من المتقين ، أو تقول - حين ترى العذاب - : لو أن لى كرة فأكون من المحسنين ﴾ .

فإذا ما قال الإنسان ذلك أو تعطل بأمثاله ، فإن الرد يأتيه من رب العزة : ﴿ بلى قد جاءتك آياتى فكلمت بها ، واستكبرت ، وكنت من الكافرين ﴾ .

ثم يبين الله سبحانه وتعالى حال الكافر والمؤمن يوم القيامة فيقول : ﴿ ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة ، أليس في جهنم مثوى للمتكبرين . وينجي الله الذين اتقوا بمغفرتهم ، لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون ﴾ .

والآن : قد وضع الطريق ألهو :

أولاً : التوبة .

وثانياً : اتباع أحسن ما أنزل الله .

ولقد كان أسلافنا رضوان الله عليهم - متابعين للأوضاع الإسلامية - يبدعون أعمالهم الهامة بالتوبة الخالصة النصوح ، لقد كانوا يبدعون شهر رمضان بالتوبة ، ويبدعون الحج بالتوبة .

والرحلة المباركة ، رحلة الإسراء والمعراج ، بدأت بشق الصدر ، وشق الصدر بالنسبة لنا ، إنما هو التوبة الخالصة النصوح ، لأن التوبة تطهر وطهر . وإذا تاب الإنسان فإن ذلك يكون بمثابة إتيان ملكين يشقان عن صدر الإنسان ، ويفسلانه بالثلج والبرد ، أو بماء زمزم ، أى : يطهرانه .

إن التوبة تطهر الإنسان من المحصية ، إنها تجب ما قبلها ، أى تزيله وتمحوه .

والتوبة التي من هذا الخط لها شروط ، لا بد من توافرها ، حتى نحسب
الإنسان لشق الطريق إلى الله تبيحة موقفة |

يقول الإمام « النووي » في رياض الصالحين :

« قال العلماء : التوبة واجبة من كل ذنب ، فإن كانت المعصية بين العبد
وبين الله تعالى لا تتعلق بحق آدمي فلها ثلاثة شروط :

أولها : أن يقلع عن المعصية .

والثاني : أن يتدم على فعلها .

والثالث : أن يعزم ألا يعود إليها أبداً .

فإن فقد أحد الثلاثة لم تصح توبته . .

وإن كانت المعصية تتعلق بآدمي فشرطها أربعة :

هذه الثلاثة ، وأن يبرأ من حق صاحبها ، فإن كانت مالا أو نحوه رده
إليه ، وإن كانت حد قذف ونحوه ، مكته منه ، أو طلب عفو ، وإن كانت
غيبية استحلها منها .

ويجب أن يتوب من جميع الذنوب ، فإن تاب من بعضها صححت توبته
عند أهل الحق من ذلك الذنب ، وبقي عليه الباقي .

وقد تظاهرت دلائل الكتاب والسنة ، وإجماع الأمة على وجوب التوبة ،
هذا فيما يتعلق بالتوبة .

وبقي الحديث فيما يتعلق باتباع أحسن ما أنزل الله |

وأتباع أحسن ما أنزل الله يبدأ بما كان يبدأ به رسول الله ﷺ مع الداخلين
في الإسلام ، أعني مواد البيعة .

ومن المبايعات التي بايع عليها رسول الله ﷺ أصحابه ما كان قبل فتح

مكة ، بل قبل الهجرة إلى المدينة ، كما في بيعة العقبة ، فيها قال الرسول ﷺ
لمن حضر من الأنصار - فيما ذكره « ابن إسحاق » - :

« يا يعقوب على السمع والطاعة ، في الشايط والكسل ، والنفقة في العسر
واليسر ، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأن تقولوا في الله لا تخافوا في
الله لومة لائم ، وعلى أن تنصروني فتنصروني إذا قدمت عليكم ، مما تمنعون منه
أنفسكم ، وأزواجكم ، وأبناءكم ، ولكم الجنة ... » .

ومن هذه المبايعات ما كان بعد هذه البيعة .

روى « البخاري » ، بسنده عن « عبادة بن الصامت » ، أن رسول الله ﷺ
قال - وحوله عصابة من أصحابه - :

بايعوني على ألا تشركوا بالله شيئاً ، ولا تسرقوا ، ولا تزنوا ، ولا تقتلوا
أولادكم ، ولا تأتوا بيهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ، ولا تعصوا في
معروف لمن وفي منكم فأجره على الله ، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب في
الدنيا فهو كفارة له ، ومن أصاب من ذلك شيئاً ثم ستره الله فهو إلى الله ، إن
شاء عفا عنه ، وإن شاء عاقبه ، فبايعناه على ذلك . .

وقد تحدث القرآن الكريم عن بيعة النساء يقول تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يَبَايَعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يَشْرِكْنَ اللَّهَ شَيْئاً ، وَلَا
يَسْرِقْنَ ، وَلَا يَزْنِينَ ، وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ ، وَلَا يَأْتِينَ بِيَهْتَانٍ يَفْتَرِنَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ
وَأَرْجُلِهِنَّ ، وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ ، فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَخْفِرْ لِمَنْ أَلَّاهُ ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ
رَحِيمٌ ﴾ .

وكانت هذه البيعة عقب فتح مكة ، بعد بيعة الرجال ، ويتحدث « ابن

جرير » عن هذه البيعة فيقول :

و ثم اجتمع الناس بمكة لبيعة الرسول ﷺ على الإسلام ، فجلس لهم على الصفا ، وعمر بن الخطاب أسفل من مجلسه ، فأخذ على الناس السمع والطاعة لله ورسوله ، فيما استطاعوا ، فلما فرغ من بيعة الرجال بايع النساء قائلًا : « يا بنتي على ألا تشركن بالله شيئاً ، ولا تسرقن ، ولا تزوين ولا تقتلن أولادكن ، ولا تأتين بيهتان تخفريه بين أيديكن وأرجلكن ولا تعصينني في معروف » .

ثم قال ﷺ « لعمر » :

« يا أيها من استغفر من الله إن الله غفور رحيم » .

وردى عن جرير بن عبد الله ، رضى الله عنه ، قال :

بايعت رسول الله ﷺ على إقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والنصح لكل مسلم .

الورع :

وإذا صدقت التوبة ، استلذمت لا محالة : الورع .

والورع هو أن يترك الإنسان كل ما فيه شبهة .

ولا تتحدث عن ترك الحرام : وذلك أن التوبة الصادقة إنما هي - أولاً

وبالذات - توبة عن الحرام : كل الحرام .

وتوجيه رسول الله ﷺ - متأسفاً في ذلك مع القرآن - كثير مستغضب فيها

يتعلق بالورع ، من ذلك ما أخرجه الشيخان عن « النعمان بن بشير » قال :

سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« إن الحلال بين ، وإن الحرام بين ، وبينها مشبهات ، لا يعلمهن كثير

من الناس ، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام ، كالراعى يرعى حول الحمى ، يوشك أن يرتع فيه ، ألا وإن لكل ملك حمى ، ألا وإن حمى الله محارمه ، ألا وإن في الجسد مضغة ، إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهي القلب (١٢) » .

ومن ذلك ما رواه « الحسن بن علي » رضى الله عنهما قال :

« حفظت من رسول الله ﷺ : دع ما يريك إلى مالا يريك » .

رواه « الترمذى » وقال حديث حسن صحيح ، ويقول الإمام « النووى »

معناه : اترك ما تشك فيه ، وخذ مالا تشك فيه .

وعن « عطية بن عمرو السعدي » الصحابي رضى الله عنه ، قال : قال

رسول الله ﷺ :

« لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع مالا بأس به ، حذراً بما به

بأس (١٣) » .

والورع يكون في الحديث ، والقلب : والعمل .

أما في الحديث : فإنه التورع عن اللغو بجميع ضروبه ، إنه ترك كلمات

الفضول ، وترك كل حديث ليس من شأنه إلا قطع الوقت دون فائدة أو ثمرة .

والورع في الحديث ليس سهلاً ، ويقول فيه الإمام « الفشيرى » :

الورع في المنطق أشد منه ، في الذهب والفضة .

ولا تدخل العيبة والبيمة فيما نحن فيه ، وذلك أننا في مستوى لا يتزل إلى

(١٢) متفق عليه

(١٣) ورواه الترمذى وقال حديث حسن .

والورع في القلب ، هو عدم انشغاله بالتوافه من الخطرات ، ويتصلى
الورع في القلب حتى يصل إلى ما يقوله الإمام « الشبل » وهو من كبار أئمة
الصوف :

« الورع : أن تتورع عن كل ما سوى الله .. »

أما الورع في الأفعال ، فإنه يتضمن التحري فيما يتعلق بالمأكل ،
والمشرب ، والملبس ، حتى يكون كل ذلك من حلال طيب .
ولقد كان أسلافنا رضوان الله عليهم يتحرون في ذلك ما استطاعوا ، وذلك
أن النور في القلب ، والصفاء في العبادة ، والتيسير بما يأتي الإنسان وفيها بدع ،
كل ذلك له علاقة قوية بطيب المطعم ، والمشرب ، والملبس .

والجو الإسلامي كله يبحث على ذلك ، ومن الأحاديث النبوية الشريفة التي
تجمع بين توجيه القرآن الكريم ، وتوجيه الرسول ﷺ متناسقاً مع القرآن
الكريم ، ما يلي :

عن ابن عباس قال : تليت هذه الآية عند النبي ﷺ :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلالًا طيبًا ﴾ .

فقام « سعد بن أبي وقاص » ، فقال : يا رسول الله : ادع الله أن يجعلني
مستجاب الدعوة .

فقال : يا سعد أطب مطعمك ، تكن مستجاب الدعوة ، والذي نفس
محمد بيده ، إن الرجل ليقتنف اللقمة الحرام في جوفه ، ما يتقبل من أربعين
يوماً ، وأما عبد نبت لحمه من السمحة والربا ، قالنار أولى به .

وعن أبي « هريرة » رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ :

« أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً ، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به
الرسول فقال :

﴿ يَا أَيُّهَا الرِّسْلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ ، وَاعْمَلُوا صَالِحاً ، إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ
عَلِيمٌ ﴾ .

وقال :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ ، ثم ذكر الرجل يطيل
السفر أشعث أغير ، يمد يده إلى السماء ، يارب ، يارب ، ومطعمه حرام ،
ومشربه حرام ، وملبسه حرام ، وغذى بالحرام ، فإني يستجاب لذلك ؟ .
وتروى لأئمتنا في هذا الجانب قصص منها ما يلي :

يقول « أبو علي الدقاق » :

كان « الحارث المحاسبي » إذا مد يده إلى طعام فيه شية ، ضرب على رأس
إصبعه حرق فيعلم أنه غير حلال .

وقال : إن « بشراً الحافي » دعى إلى دعوة ، فوضع بين يديه طعام ، فجهد
أن يمد يده إليه ، فلم تمتد ، ففعل ذلك ثلاث مرات ، فقال رجل يعرف ذلك
منه :

إن يده لا تمتد إلى طعام فيه شية ، ما كان أغنى صاحب هذه الدعوة أن
يدعو هذا الشيخ ؟ ! .

كلمات لأئمتنا في الورع :

يقول « القشيري » :

« أما الورع فإنه : ترك الشبهات . »

ويقول « إبراهيم بن أدهم » .

« الورع ترك كل شبهة ، وترك مالا يعينك » .

وقال « أبو سليمان النخعي » :

« الورع : أول الزهد ، كما أن الفناحة طرف من الرضا » .

ويقول « يحيى بن معاذ » :

« الورع على وجهين : ورع في الظاهر ، وهو . ألا يتحرك إلا لله تعالى .

ورع في الباطن ، وهو : ألا يدخل قلبك سوى الله تعالى » .

ودخل « الحسن البصري » مكة ، فرأى غلاماً من أولاد « علي بن

أبي طالب » رضى الله عنه ، قد أسند ظهره إلى الكعبة يحفظ الناس ، فوثب

عليه « الحسن » وقال له :

« ما ملاك الدين ؟ فقال : الورع ، فقال له : لما آفة الدين ؟ فقال :

الطمع .

فتصعب « الحسن » منه .

الزهد :

يقول الإمام أبو نصر سراج الطوسي :

« والورع يقتضى الزهد » .

ويقول : « والزهد مقام شريف : وهو تماس الأحوال الرضية والمراتب

السنية ، وهو أول قدم القاصدين إلى الله عز وجل ، والمتقنين إلى الله ،

والراضين عن الله ، والمتوكلين على الله تعالى ، فن لم يحكم أساسه في الزهد ، لم

يصح له شيء مما بعده ، لأن حب الدنيا رأس كل خطيئة ، والزهد في الدنيا

رأس كل خير وطاعة » (١٤) .

ومسألة الزهد من المسائل التي كثرت الجدل في تحقيق مفهومها ، وكثرت الجدل

فيها قبولاً ورفضاً .

وجوهر المناقشات يتركز حول امتلاك المال ، والثراء العريض : « أهو مقبول ؟

أهو مكروه ؟ ما هو موقف الدين من ذلك ؟

وإذا كان الثراء العريض لا يتفق مع الأجواء الدينية ، فكيف ملك بعض

كبار الصالحين الثروات الكبيرة ؟

كيف ملك الأنبياء عليهم السلام ، الأموال والضياع ، مثل : « داود » ،

« سليمان » و « إبراهيم » و « أيوب » ونظائرهم ، و « يوسف » ، عليه السلام ،

على خزائن الأرض ، و محمد ﷺ ، والصالحين من بعده ؟

حول هذه الأسئلة يدور جوهر الحديث في الزهد .

وقد سبق أن كتبنا عدة مرات في هذا الموضوع في عدة من كتبنا ، ولا نريد

هنا أن نكرر ما سبق أن كتبناه ، وإنما نحب - بتوفيق الله - أن نورد نصاً - وإن

كان مطولاً - من التصوص النفيسة في هذا الموضوع ، وهو نص قد وفق الله

سبحانه « أبا سعيد الخراز » لكتابته في صورة دقيقة محكمة ، ونراه فيصلاً في هذا

الموضوع .

يقول « أبو سعيد » في كتاب « الصلح » :

« اعلم أن الأنبياء ، عليهم السلام ، والعلماء ، والصالحين من بعدهم ،

رضى الله عنهم : أمثاء الله تعالى ، في أرضه على سره ، وعلى أمره ، ونبيه ،

(١٤) الصلح : ٧١ - ٧٢

وعلمه ، وموضع وديته ، والنصحاء له في خلقه وربته وهم الذي عقلوا عن الله تعالى ، أمره وشيئه ، وفهموا لماذا خلقهم ، وما أراد منهم ، وإلام نديهم ؟ فوافقوه في محبته ، ونزلوا في الأمور عند مشيئته ، ثم وقفوا عند ذلك مواقف العبيد الألباء ، القابلين عن الله ، والحافظين لوصيته ، وأصنوا إليه بأدان فهمهم الواجبة ، وقلوبهم الطاهرة ، ولم يتخلفوا عن نديته ، فسمعوا الله - عز وجل - يقول :

﴿ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ ﴾ (١٥) .
ثم قال :

﴿ ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون ﴾ (١٦) .
وقال تعالى :

﴿ لله ما في السموات وما في الأرض ﴾ (١٧) .
وقال تعالى :

﴿ ألا له الخلق والأمر ﴾ (١٨) .

فأيقن القوم : أنهم وأنفسهم لله تعالى ، وكذلك ما حولهم ، وملئهم ، وإنما هو له ، غير أنهم في دار اختبار وبلوى ، وخلقوا للاختبار وابلوى في هذه الدار .

وهكذا يروى عن « ابن الخطاب » رضي الله عنه ، حين سمع :

(١٥) الحديد : ٧
(١٦) يونس : ١٤
(١٧) البقرة : ٢٨٤
(١٨) الاحزاب : ٥٤

﴿ هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً ﴾ (١٩) .
قال : « ياليتها تمت ! - يعني « عمره » قبل قراءة :

﴿ إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه ﴾ .

ومعنى قول « عمر رضي الله عنه : « ياليتها تمت » يعني : لم يخلق حين سمع الله تعالى يقول : ﴿ لم يكن شيئاً مذكوراً ﴾ .

وذلك من معرفة عمر - رضي الله عنه - بواجب حق الله ، وقدر أمره وشيئه ، وعجز العباد عن القيام به ، وقيام الحاجة لله تعالى عليهم عند تفصيلهم وماتوا أحدهم به إذا ضيعوا .

ويروى عن « الحسن » رضي الله عنه أنه قال :

« إن الله تعالى إنما أهب آدم عليه السلام ، إلى الدنيا عافية ، وجعلها سجناً له حين أخرجه من جواره ، وصيره إلى دار التعب والاختبار .
لمن ملك - من أهل العمل عن الله تعالى ، وأعمل الصلح - شيئاً من الدنيا ، فهو معتقد : أن الشيء لله جل وعز ، لا إله إلا هو ، من طريق حق ما خوله الله تعالى ، وهو مبل به حتى يقوم بالحق فيه ، لأن العمة بلاء ، حتى يقوم العبد بالشكر فيها ، ويستعين بها على طاعة الله تعالى :
وكذلك البلوى والضراء ، هو اختبار وبلاء ، حتى يصبر عليه ، ويقوم بحق

الله تعالى فيه !

وكذلك قال بعض الحكماء : « العلم كله بلاء حتى يعمل به » قال الله عز

وجل :

(١٩) توله الدهر .

﴿الذي خاف الموت والحياة ليلوكم﴾ (٢١)

وقال :

﴿وليلوكنكم حتى يعلم المجاهدين منكم والصابرين ، وبلو

أنهاركم﴾ (٢١)

فالأنياء صلوات الله عليهم ، والصالحون من بعدهم ، الذين شرعهم الله : بأن أهلهم في الدنيا بالسعة ، وحوطهم : كانوا إلى الله - جل وعز - ساكنين ، لا إلى شيء ، وكانوا غزاةً لله - جل ذكره - في الشيء الذي ملكهم ، ينفذونه في حقوق الله تعالى ، غير مقصرين ، ولا مفرطين ، ولا متوايين ، ولا متأولين على الله التأويل ، وكانوا غير متلذذين بما ملكوا ، ولا مشغولي التلوي بما ملكوا ، ولا مستأثرين به دون عباد الله تعالى .

ومن ذلك ما روى عن سليمان بن داود - عليها السلام - في ملكه ، وما أباحه الله تعالى - من الكرامة ، حين يقول تعالى :

﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنِ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (٢٢)

قال أهل التفسير : « لا حساب عليك في الآخرة ، وإنما كان عطاء عيناً إكراماً من الله - عز وجل - له .

ذكر العلماء : أن سليمان عليه السلام وكان يطعم الأضياف الحواري ، - وهو لياب البر ، وخالص الدقيق - التقي ، ويطعم عياله الخشكار - وهو الدقيق الخشن . . . ، ويأكل هو الشعير .

(٢٠) الملك : ٢

(٢١) القتال : ٣٦

(٢٢) ص : ٣٩ .

وكذلك روى العلماء : أن إبراهيم الخليل - صلوات الله وسلامه

عليه :

« كان لا يأكل إلا مع الضيف ، فربما لا يأتيه الضيف فيطويها ، وربما كان

يشي الفرسخ ، أو أقل ، أو أكثر ، تلقياً للضيف . . . »

قال : « وكان أيوب النبي - عليه السلام - لا يسبح أحداً يحلف بالله تعالى إلا

رجع إلى منزله ، فكفر عنه . »

وروى العلماء : أن يوسف عليه السلام ، كان على خرائن الأرض ،

فكان لا يشبع ، فقيل له في ذلك ، فقال :

« أخاف أن أشبع ، فأنسى الجوع . »

ولقد روى : أن سليمان - عليه السلام - بيما هو ذات يوم ، والريح

تحمله ، والطير تظله ، والجن والإنس معه ، وعليه قبص جديد ، فلفصق

بيده ، فوجد اللذة فسكنت الريح ، ووضحه على الأرض .

فقال لها : مالك ؟ قالت : إنما أمرنا أن نطيعك ما أطعت الله .

ففكر في نفسه : من أين أتى ؟ فذكر ، فراجع ، فحملته الريح .

ولقد روى : « أن الريح كانت تضعه في اليوم مرات ، من هذا

وأشبهه . » قال قوم : كانوا خارجين عن ملكهم في ملكهم ، ناعمين بذكر الله

وعبادته ، غير ساكنين إلى ما ملكوا ، لا يستوحشون من فقده إن فقدوه ، ولا

يفرحون بالشيء ، ولا يحتاجون إلى العلاج والمجاهدة في إخراجه .

قال الله - تعالى - للنبي ﷺ :

﴿ أولئك الذين هدى الله فبإذنهم اقتدوا ﴾ (٢٣)

(٢٣) الأنعام : ٩٠

وعند النبي - ﷺ : « بينا جبريل - عليه السلام عنده ، إذ تغير جبريل ، إذا ملك قد نزل من السماء ، لم يتزل قط ، فقال جبريل عليه السلام : خشيت أنه نزل في أمر ، فجاء إلى النبي ﷺ بالسلام من عند الله عز وجل ، وقال له : هذه مفاتيح خزائن الأرض ، تسير معك ذهباً وفضة ، مع القه فيها إلى يوم القيامة ، ولا تنقصك مما لك عند الله شيئاً !

فلم يختر النبي ﷺ ذلك وقال :

« أجمع مرة ، وأشجع مرة ! »

وعد ذلك من الله عز وجل - بلوى - واختباراً ، ولم يره من الله تعالى اختباراً ، ولو كان من الله تعالى - اختياراً لقبلة ، ولكنه علم أن محبة الله تعالى في الترك للدنيا ، والإعراض عن زينتها ، وبهجتها .

ولذلك أدبه الله تعالى - حين قال تعالى :

﴿ ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم ، زهرة الحياة الدنيا ، لغنتهم فيها ﴾ (٢٤)

ويروي عنه ﷺ : أنه لبس حلة فيها علم ، فطرحها ، وقال : كادت تلهيني أعلامها - أو قال : ألفتني أعلامها ، خذوها والتوني بأنبيجانية .

وكذلك روى : « أنه صنع خاتم ذهب ليختم به الكعب ، إلى من أمره الله تعالى بإنذاره ، فلبسه ، ثم طرحه من يده ، وقال لأصحابه : إليه نظرة ، وإليكم نظرة ! »

وكذلك روى : « أنه ﷺ ، غير شراك نعله ، فجعل مكانه جديداً . فقال : ردوا الشراك الأول ! »

(٢٤) طه : ١٣٦

وكذلك كل قلب ظاهر صاف ، قد أشرف على الآخرة ، وحرف قيام الله تعالى عليه : يفرغ من خفايا الكون إلى الدنيا ، والتحل بشيء منها . ومثل هذا في الأخبار كثير ، والعاقل الفطن تكفيه الإشارة إليه بالشيء : وهؤلاء أصحاب محمد - ﷺ - حين حثهم على الصدقة . جاء « أبو بكر » بماله كله ، لأنه كان أقوى القوم ، فقال له النبي ﷺ : ما خلفت لعيالك ؟

قال : الله ورسوله ، ولي عند الله مزيد !

أفلا ترى « أبا بكر » - رضى الله عنه - إنما كان سكونه إلى الله تعالى ، لا إلى الشيء ، ولم يكن لشيء عنده قسر ، وكان ما عند الله عنده أسر ؟ ! فحين رأى موضع الحق ، لم يخلف منه شيئاً . وقال : خلفت الله ورسوله ! ثم جاء « عمر » - رضى الله عنه - بنصف ماله ، فقال النبي ﷺ -

ما خلفت لعيالك ؟

قال : نصف مالي ، وقفه عندي مزيد !

فقد أعطى نصف ماله ، ويقول : والله عندي مزيد ! ثم « عثمان » - رضى الله عنه - يجهز جيش العسرة كله ، بجميع ما يحتاج إليه ، ويحضر « بئر رومة » !

أفلا ترى أن القوم كانوا معدين الشيء لله تعالى ؟ ! وما يدل على صدق قولنا : أن القوم كانوا خارجين مما ملكوا وهو في

أيديهم ، يعدونه لله عز وجل !

وقد روى عن النبي ﷺ - أنه قال :

إننا معشر الأنبياء لا نورث ، وما خلفناه صدقة ؟

أفلا ترى أنهم في حياتهم لم يفتنوا بالشيء عن الله عز وجل ؟
وكذلك لم يورثوه ، وخلفوه لله - عز وجل - كما كان في أيديهم لله تعالى ،
لم يفتنوا فيه ، ولم يخولوه من بعدهم أحدًا !
وإن هذا لبلاغ لمن عقل عن الله ، وأنصف من نفسه ..
وهؤلاء : أئمة الهدى بعد رسول الله - ﷺ - أبو بكر ، رضي الله عنه -
حين ملك الأمر ، وجاءته الدنيا راغمة من حلها ، لم يرفع بها رأساً ، ولم
يصنع ، وكان عليه كساء بخله - أي يخييط ما به من خلل وشق - وكان يدعى
ذا الخلالين !

وهذا : عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه - حين جاءته الدنيا راغمة من
حلها ، وكان طعامه الخبز والزيت ، وفي ثوبه بضع عشرة رقعة ، بعضها من
أدم - وقد قمت عليه كنوز (كسرى) و (قيصر) !
وهذا : عثمان - رضي الله عنه - كأنه واحد من عبده في اللباس
والزى !

ولقد روى عنه : أنه رأى خارجاً من بستان له ، وعلى عنقه حزمة من
حطب ، فقيل له في ذلك ، فقال :
أردت أن أنظر نفسي ، هل تأبى !

أفلا ترى أنه كان غير غافل عن نفسه ، وتجاهدها ورياضتها ؟
وهذا : علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - في الخلافة ، قد اشترى
إزاراً بأربعة دراهم ، واشترى قميصاً بخمسة دراهم ، فكان في كفه طول ،
فتقدم إلى حراز - أي خياط - فأخذ الشفرة فقطع الكم مع أطراف أصابعه ،
وهو يفرق الدنيا بينة ويسرة !

وهذا : الزبير - رضي الله عنه - بنصف - حين مات - من الدين مائتي
ألف ، أو أكثر ، بكل ذلك من الخود والسخاء والبهل !
وهذا : طلحة بن عبيد الله ، - رضي الله عنه - يطلى حلى أهله لمن
سأله .
فهذا يدل على أن القوم كانوا ، كما قال الله - عز وجل - حين أمرهم
بقال :

﴿ أنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه ﴾^(٢٥) .

ولا يستحي عبد من عبادة الله من أهل زماننا هذا ، عندما ملك من
الشهات التي علم الله تعالى : كيف هي ؟ وس أين هي ؟ وكيف قدرها في قلبه ؟
وإيثاره لها ، وسكرته إليها دون الله عز وجل ؟ ومالا يجمع من عبه في قلبه في
ذلك واشتغاله بذلك ؟^(٢٦) .

حتى إن أحدهم ليزعم : أنه يملك كم ملك من مضي ، ويحتج بهم في اتباع
هواه ، مع إقامته على خلاف سنة القوم .
بل الاعتراف لله تعالى بالتقصير من العبد الغافل . أقرب إلى السجدة ،
وسؤاله الله - عز وجل - أن يلفه ببلغ القوم ، وبالله التوفيق .

التوكل :

الإسلام أن يسلم لله قلبك . إنه التوحيد .
وهو ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ .

(٢٥) الحديد : ٧

(٢٦) كتاب الصلوة ٢٥-٢٥

وهو : إسلام الوجه لله .

وذلك يقتضى التوكل على الله ، كجزء لا يتجزأ عن الإسلام .
ويتلون التوكل بحسب درجاته ، ويأخذ اسماً تبعاً لدرجته ، فيكون :
« توكلاً » ويكون « تسليماً » ، ويكون « تفويضاً » .

والتوكل بداية هذا المقام الروحي ، والتسليم واسطة ، والتفويض نهاية ، إن
كان للتقوى في الله نهاية .

ومع ذلك فإن كلمة « التوكل » تطلق على كل درجاته ، ونستعمل في كل
أنواعه ، وعلى هذا الوضع يأمر سبحانه وتعالى به ، جاعلاً منه صفة لا تنفك
عن الإيمان قائلاً :

﴿ وعلى الله فتوكلوا ، إن كنتم مؤمنين ﴾ .

ويأمر سبحانه به أمراً مطلقاً كل مؤمن فيقول :

﴿ وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ .

وإذا توكل الإنسان على الله سبحانه فإن ثمره ذلك أمران :

الأمر الأول هو حب الله له ، يقول سبحانه :

﴿ إن الله يحب المتوكلين ﴾ .

والأمر الثاني هو كفاية الله له ، يقول سبحانه :

﴿ ومن يتوكل على الله فهو حسبه ﴾ .

وهناك ثمار ، هي تفصيل هذين الأمرين ، أو هي نتائج لها : نتحدث عنها

إن شاء الله تعالى .

ومع أن أمر التوكل في الجبر القرآني ، وفي جو السنة ، واضح كل
الوضوح ، فإن الناس جعلت من التوكل مشكلة : يتجادلون فيها ويختلفون ،

وتتجدد المشكلة كلما جاء ذكر للتوكل ، ومن أجل ذلك لحب بتوفيق الله - مع
أن الأمر بين واضح - أن نلقى ببعض الأضواء في هذا المجال .

لقد سئل « يحيى بن معاذ » - وهو من أئمة الصوفية : متى يكون الرحل
متوكلاً ؟

فقال : إذا رضى بالله تعالى وكليلاً . .

ويتحدث القرآن الكريم عن بعض الظروف التي ظهر فيها أن المؤمنين
الصادقين هم الذين يتخلون الله وكليلاً ، يقول سبحانه وتعالى عن المؤمنين في
غزوة أحد :

﴿ الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم ، فاخشوهم ، فزادهم
إيماناً ، وقالوا حسبنا الله ، ونعم الوكيل ﴾ .

ماذا كانت النتيجة ؟

إنها ما عبر الله سبحانه عنها بقوله :

﴿ فانقلبوا بنعمة من الله وفضل ، لم يمسهم سوء ، واتبعوا رضوان الله ،
والله ذو فضل عظيم ﴾ .

من هم هؤلاء ؟ إنهم :

﴿ الذين استجابوا لله والرسول ، من بعد ما أصابهم القرح ﴾ .

ما هي نصبتهم ؟

إن مشركي مكة لما أصابوا من المسلمين يوم أحد ، أخذوا في العودة إلى
مكة ، فلما استمروا في سيرهم ندموا : لم لم يتسوا على أهل المدينة ومعلوها
الفيصلة ؟ وكان من كلامهم :

لا محمداً قلتم ، ولا الكواعب أردفتهم ، بشما صنعتم ، ارجعوا . وأرادوا

العودة إلى المدينة .

ولكن «أبو سفيان» لم ينس يوم بدر ، ولم ينس أن الفضة القليلة يوم بدر غلبت ثلاثة أمثالها ، مع وفرة العدة في الكثرة ، فأحب أولاً أن يعجم عود المسلمين ، وكان من المصادفات ، أن مر به ركب من «عبد القيس» ، فقال : أين تريدون ؟ .. قالوا : نريد المدينة ..

قال : ولم .. قالوا نريد للميرة .

قال : فهل أنتم مبلغون عنى محمداً رسالة أرسلكم بها إليه ، وأحمل لكم في مقابل ذلك زيبياً بمكافئ ، إذا وافيتونا ؟ قالوا : نعم . قال : إذا وافيت محمداً فأخبروه أنا قد جمعنا السير إليه . وإل أصحابه لنستأصل بقيتهم .

ومر الركب برسول الله ﷺ وهو بجمراه الأمد ، فأخبروه بالذي قال «أبو سفيان» وأصحابه ، فكان رد الفعل عند رسول الله ﷺ ، وأصحابه ما صوره الله تعالى بقوله :

﴿الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم ، فاخشعوا فزادهم إيماناً ، وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ، فانقلبوا بنعمة من الله وفضل ، لم يمسهمْ سوء ، واتبعوا رضوان الله ، والله ذو فضل عظيم﴾ .

قالوا ذلك واستعدوا مباشرة للقتال من جديد : من كان مجروحاً ضمده جرحه ، ومن كان قد كل سيفه أحده ، ومن كان أمره متفرقاً في نفسه ، أو ماله أصح أمره جميعاً .. واستعدوا لخص المعركة ، بكل ما يملكون من وسائل .. وكان «أبو سفيان» يتظر نتيجة الرسالة ، وما تحمده من عدى .. ورجع واحد من وفد «عبد القيس» يقول «لأبي سفيان» :

«لقد رأيتم كالأسد المتوردة ، عازمة على الأحد بالثأر» .
ولما سمع «أبو سفيان» ذلك أخذ في العودة إلى مكة ، طلباً للسلامة .. والتوكل - إذن - والمتوكلون يتخذون الأساس ، ويستعدون كأكمل ما يكون الاستعداد ، وأدق ما يكون الاستعداد ..

وصورة أخرى للتوكل :

يقول الله تعالى على لسان سيدنا «هود» :

﴿إلى توكلت على الله ربي وربكم ، ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها ، إن ربي على صراط مستقيم﴾ .
أخذ سيدنا «هود» عليه السلام يعمل على نشر الحق الموحى إليه ، الحق الذي دعا إليه كل نبي ورسول ، والذي يخلص بها قال عليه السلام .

﴿يا قوم اعبدوا الله ، ما لكم من إله غيره﴾ .

وابتدأوا في ذلك بالاستغفار والتوبة ، فإذا استغفرتم وتبتم إلى الله ، فإني عنابته سبحانه محيط بكم ، ورعايته تكلؤكم :

﴿ويا قوم استغفروا ربكم ، ثم توبوا إليه ، يرسل السماء عليكم مدراراً ، ويزدكم قوة إلى قوتكم﴾ .

ولكن قومه أعرضوا عنه ، ولم تفلحهم الأمثلة بالذين أعرضوا عن الله ، فنكل بهم ، وقالوا :

﴿يا هود ما جئنا ببينة ، وما نحن بتاركى آجتنا عن قولك ، وما نحن لك بمؤمنين﴾ .

وأخذ الصراع بين هود وقومه يشتد ، ويصعب ، حتى إذا استصعب هود جميع عناصر الخير منهم ، واستخلص منهنى ما يمكن استخلاصه من أشخاص

آمنوا به ، ولم يبق إلا من لا خير فيه : جاءهم عذاب الله ، دون أن يصيب
هوداً والذين آمنوا معه ، يقول تعالى :

﴿ ولما جاء أمرنا نجينا هوداً والذين آمنوا معه برحمة منا - ونجيتهم من
عذاب غليظ ﴾ . . .

أما الذين لم يؤمنوا به ، واستكبروا ، وخرهم الباطل ، فإن الله سبحانه
وتعالى أهلكتهم جميعاً ، بريح صرصر عاتية ، سخرها عليهم سبع ليال ، وثمانية
أيام حسوماً ، ففترى القوم فيها صرعى ، كأنهم أعجاز نخل خاوية . . .
ونحب - بتوفيق الله - أن ننبه أولاً إلى أن الله سبحانه بين في هذه القصة -
كما يروى « القلشاني » - وجوب التوكل على الله ، وكونه حصناً حصيناً ، وأن
ربوبيته شاملة لكل أحد ، ومن يرب - يدبر - أمر المربوب ، ويحفظه فلا حاجة
له إلى كلامة غيره ، وحفظه .

ونبه ثانياً : إلى أن التوكل ليس ترك الأسباب ، فقد أخذ « هود » يناضل
ويكافح ، ويدعو إلى الله سبحانه بكل وسيلة شريفة يستطيعها ، يقول الإمام
« الغزالي » :

وقد يظن أن معنى التوكل ترك الاكتساب بالبدن ، وترك التدبير بالقلب ،
والسقوط على الأرض ، كالخزقة الملقاة ، وكاللحم على الوض ، وهذا ظن
الجهال ، فإن ذلك حرام في الشرع .

إن المعنى الحقيقي للتوكل : هو أن يعتقد الإنسان اعتقاداً جازماً أن الأسباب
الظاهرة ، لا تلغى إرادة الله ، وأن إرادة الله مشرقة على تلك الأسباب في
أسسها وبواطنها ، وهي مشرقة على الأسباب في ظاهرها ، ونهاياتها ، وعلى

الإسان أن يعمل ، كما أمر الشرع ، وعليه أن يكل أمر النتيجة إلى الله سبحانه
وتعالى .

وقد كان رسول الله ﷺ إمام المتوكلين ، وكان إمام المجاهدين الكاضحين ،
الآخذين بالأسباب ، وسيدنا « أبو بكر » رضي الله عنه حينما بويج بالخلافة
أصبح ذاهباً إلى السوق ، يتجر كعادته ، فتكاثر عليه المسلمون قائلين : كيف
تعمل ذلك ، وقد آلت لخلافة النبوة ؟ فقال لهم :

« لا تشغلوني عن عيالي فإنني إن أضعتهم كنت لما سوامم أضيع » .
حتى فرضوا له قوت أهل بيت من المسلمين . . .

لقد كان كبار الصحابة رضي الله عنهم يعملون ، ويكسبون ، وكانوا مع
ذلك من كبار المتوكلين .

ويعد : فإن الإمام « القشيري » - من أئمة الصوفية - يقول :

واعلم أن التوكل عمله القلب ، والحركة بالظاهر لا تنافي التوكل بالقلب بعد
ما تحقق العبد أن التقدير من قبل الله تعالى ، فإن تعسر شيء فبتقديره ، وإن
انفق شيء فبتيسيره .

التقدير من قبل الله تعالى :

إذا آمن الإنسان بذلك - ولا بد أن يؤمن به - فهو متوكل . . .

والتوكل يتخذ الأسباب ، اقتداء برسول الله ﷺ .

والآن نسير مع السيرة النبوية الشريفة بعد عزوة أحد ، لنصل إلى عزوة

الأحزاب ، ولنصل إلى صورة التوكل الذي يتلون بلون التسليم .

إن من التوكل الذي يتلون بلون التسليم ، ما يحدثنا به القرآن الكريم في قوله

تعالى :

﴿ ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله ، وصدق الله ورسوله ، وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً ﴾ .

لقد زادتهم رؤية الأحزاب - الجيوش الحارقة التي أتت لتهدم المدينة ، ونقتل من فيها - إيماناً وتسليماً . .

ماذا فعلوا ؟

لقد سهروا ليلاً ، وأقاموا نهاراً من وراء الخندق ، يرقبون حركات العدو ، ويستعدون لكل شأن من شئونه .

لقد لبسوا دروعهم ، وتسلحوا بسيفهم ، وأقواسهم ، وسهامهم .

لقد أحكموا كل أمر من أمور الحرب ، بحسب طاقتهم ، ولكن الأمر فيما يسلّمون به لله كله : ﴿ إليه يرجع الأمر كله ﴾ .

﴿ وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً ﴾ : إيماناً قليلاً وتسليماً قليلاً . .

وإن من الملاحظات التي لا تخفى على قارئ القرآن أن آية الأحزاب هذه سبقها مباشرة قوله تعالى :

﴿ لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة ، لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ، وذكر الله كثيراً ﴾ .

ولقد تابع المؤمنون الرسول ﷺ في توكله ، واتبعوه مسلمين في استعداده وتأهبه ، لقد اتخذوه قدوة .

ويقول الإمام « سهل بن عبد الله » - من أئمة التصوف - هذه الكلمات الجميلة حقاً الصادقة حقاً :

التوكل حال النبي ﷺ ، والكسب سته فن بقي على حال فلا يتركن سته .

ويقول :

من طعن في الحركة فقد طعن في السنة ، يسر حسر في التوكل فقد طعن في الإيمان ،

أما كيف عرف « سهل » نفسه التوكل « جنبه قدر

التوكل : الاسترسال مع الله تعالى على - - -

وهي كلمة قبيحة . . الاسترسال مع الله عز - - - ، في كل ما أراد

سبحانه :

في الجهاد في الضرب في الأرض ، طرد تزيق - في التزود من العلم ، في حسن الخلق .

إنه الاسترسال مع الله على ما يريد ، وهذا يقتضي أن يسكن الإنسان إلى

النتائج بعد أن يكون قد اتخذ الأسباب ، بقدر قدرته . ويقتضى أمراً آخر هو :

الابتعاد عن كل مالا يريد سبحانه .

ويعد : فإن هذا التعريف سهل رضى الله عنه يتناسق مع تعريف الإمام

« حمدون القصار » - من كبار الصوفية - حيث سئل عن التوكل فقال :

التوكل : هو الاعتصام بالله تعالى .

إنه الاعتصام بالله تعالى في اتباع أوامره . وهو الاعتصام بالله تعالى في

اجتناب نواهيه ، وهو الاعتصام بالله تعالى في الحركة ، وهو الاعتصام بالله في

النتائج ، أي السكون إليه في كل ذلك ، السكون المصاحب للنضال المتواصل

مع السكينة فيما يتعلق بالنتائج .

وقصة ثلاثة بقصها القرآن الكريم : تبين صورة للتوكل الذي يتلون بلون :

التضويض .

قصة رجل مؤمن صادق الإيمان وقف تاصحاً في وجه الظنبيان والجبروت ،
يذهب إلى الله ، ويشر بالتعاليم الصادقة ، وينثر ، ويهدد بعقاب ، في أسلوب
نحوي ، لا يخشى فيه لومة لائم .

تلك قصة « مؤمن آل فرعون » الذي بعد أن نصح ويشر وأثلر ، قال :
﴿ فستذكرون ما أقول لكم ، وأفوض أمري إلى الله ، إن الله بصير بالعباد ﴾ .
وكانت النتيجة ما قصه الله تعالى بقوله :

﴿ فوفاه الله سيئات ما مكروا ، وحاق بآل فرعون سوء العذاب ﴾ .
وبحسن أن تذكر القصة بتمامها من كتاب الله سبحانه ، كما وردت في سورة
غافر ، يقول الله تعالى :

﴿ وقال الذي آمن يا قوم أتبعون أهدكم سبيل الرشاد . يا قوم إنما هذه
الحياة الدنيا متاع ، وإن الآخرة هي دار القرار . من عمل مثيلاً فلا يجزي إلا
مثله ، ومن عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن ، فأولئك يدخلون الجنة ،
يرزقون فيها بغير حساب .

ويا قوم مالي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ ، وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ .
تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ ، وَأَشْرِكُ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ ، وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ
الْعَمَارِ .

لا جرم أنما تدعونني إليه ليس له دعوة في الدنيا ، ولا في الآخرة ، وأن
مردنا إلى الله ، وأن المسرفين هم أصحاب النار .

فستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمري إلى الله ، إن الله بصير بالعباد . .
وفواه الله سيئات ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب ﴾ .
ومن كل ما تقدم تنتهي كما بدأنا ، بأن التوكل جزء لا يتجزأ من الإيمان ،

والصورة المثل فيهِ ، هي صورة رسول الله ﷺ ، الذي كان إمام المتوكلين ،
وكان إمام المناضلين ، ومن بعده صورة « أبي بكر » رضي الله عنه ، والصحابه
الأجلاء الذين كانوا متوكلين ، وكانوا مناضلين في الحرب ، وفي التجارة ، وفي
الزراعة . .

وبعد ، فيقول الله تعالى :

﴿ إن الله يحب المتوكلين ﴾ .

الحبة :

يقول الله تعالى في حديث قدسي :

« من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب
إليّ من أداء ما افترضته عليه ، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالوافل حتى أحبه ،
فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي
يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، ولئن سألني لأعطينه ، ولئن استعاذني
لأعيذنه . »

وفي هذا الحديث الشريف يبدأ الله سبحانه بالتوجيه في قوة إلى صفاء
القلب وطهارة النية بالنسبة لأولياته .

وأولياؤه هم :

﴿ الذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾ .

ومن عاداهم فإنما يعادى المؤمن التقى .

وتنتيجة هذه العداوة ما يقوله تعالى :

آذنته بالحرب .

ثم يرسم الله سبحانه الطريق إلى حبه .
وأول خطوة في هذا الطريق :
أداء ما افترضته عليه .

ولن يتأق حبه الله سبحانه دون الشرط الأول - شرط القرب من
سبحانه - وهو أداء الفرائض .

والحب دون أداء الفرائض زيف وكذب .

بل إن أداء الفرائض شرط لحسن الظن بالله : لقد ترك قوم العمل وقالوا :
نحن نحسن الظن بالله ، وكذبوا - كما يقول رسول الله ﷺ - لو أحسنوا
الظن لأحسنوا العمل .

لا بد من أداء الفرائض ، وإلا لما كان لمهلها إلى القرب من الله تعالى من
سبيل

ومع أداء الفرائض - في جو القرب - الإكثار من التواضع : فإذا أكثر من
التواضع ، أحبه الله تعالى :

ويترتب على حب الله تعالى للعبد هذا الخير الكثير ، الذي ذكره الله سبحانه
وتعالى في الحديث القدسي .

ويربط أسلافنا رضوان الله عليهم ربطاً محكماً بين محبة الله تعالى ، واتباع
رسول الله ﷺ متناسقين في ذلك مع توجيه الله سبحانه وتعالى :

﴿ قل : إن كنتم تحبون الله ، فاتبعوني يحببكم الله ﴾ .

وهذا الربط معناه الربط بين محبة الله تعالى والعمل .

ومفردات محبة الله تعالى هي العمل ، ونتيجة محبة الله تعالى هي العمل .
يقول الإمام « أبو سعيد الخراز » :

« وبلغنا عن « الحسن البصري » رضي الله عنه : أن ناساً قالوا على عهد
رسول الله ﷺ : يا رسول الله إنا نحب ربنا حباً شديداً ، فجعل الله تعالى لمحبة
علماء وأتزل عز وجل :

﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ﴾ (٢٧) .

فمن صدق المحبة - اتباع الرسول ﷺ ، في هديه ، وزهده ، وأخلاقه ،
والتأسي به في الأمور ، والإعراض عن الدنيا وزهرتها وبهجتها ، فإن الله عز
وجل جعل محبداً ﷺ ، علماً ودليلاً ، وحجة على أمته .

ومن صدق المحبة لله تعالى ، إيتار محبة الله عز وجل في جميع الأمور على
نفسك ، وهواك ، وأن تبدأ في الأمور كلها بأمره ، قبل أمر نفسك ، اهـ
ويقول :

« علامة الحب : الموافقة للمحبوب ، والتجارى (٢٨) مع طرقاته في كل
الأمور ، والتعرب إليه بكل حيلة ، والحرب من كل مالا يعينه على
منهجه (٢٩) » .

أما عن صلته بالإيمان فإن الإمام « الغزالي » يقول :

« وقد جعل رسول الله ﷺ - الحب لله من شرط الإيمان في أخبار كثيرة ،
إذ قال « أبو رزين العقيلي » : يا رسول الله ! ما الإيمان ؟ قال :
« أن يكون الله ورسوله أحب إليك مما سواهما » .
وفي حديث آخر .

(٢٧) آل عمران ٣١ .

(٢٨) التجارى : المسيرة : نهي للاتباع .

(٢٩) ملهه : نفسه وطريقه .

« لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما » .
وفي حديث آخر:

« لا يؤمن العبد حتى أكون أحب إليه من أهله ، وماله ، والناس أجمعين »
وفي رواية : « ومن نفسه » :

كيف وقد قال الله تعالى :

﴿ قل إن كان آباؤكم ، وأبناؤكم ، وإخوانكم ، وأزواجكم ، وعشيرتكم ، وأموال اقترنتموها ، وبجارة نخشون كسادها ، ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله ، وجهاد في سبيله ، فآبوا ، حتى أتى الله بأمره ، والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾ (٣٠)

وإنما جرى ذلك في معرض التهديد والإنكار (٣١) .

ومن أجمل تعبيرات المهين عن شعورهم ما يقوله « يحيى بن معاذ » :
« إلهي إني مقم بفنائك ، مشغول بشانك ، صعباً أخذني إليك ، وسريلتي بمعرفتك ، وأمسكتني من لطفك ، ونقلتني في الأحوال ، وقلبتني في الأعمال :
سداً وتوبة ، وزهداً ، وشوقاً ، ورضاً ، وحباً . . . تسقى من حياضك ،
وتهملني في رياضك . ملازماً لأمرك ، ومشغوفاً بقولك ، ولما طر شاربي ، ولاح
طالري فكيف أنصرف اليوم عنك كبيراً ؟ وقد اعتدت هذا منك صعباً ، فلي
ما بقيت حولك دندنة ، وبالضراعة إليك مهمة ، لأني محب ، وكل محب
بجيبه مشغوف ، وعن غير حبيبه مصروف . . . »

وبعد : فإن ثمرة محبة الله تعالى هي ما قاله سبحانه عن أوليائه :

(٣٠) هدية : ٢٤

(٣١) للفتد : ٩٣ - ٩٤

﴿ لهم البشري في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، لا تبدل لكلمات الله ، ذلك
هو الفوز العظيم ﴾ .

للرضا :

وإذا كانت المحبة تبعها الرضا ، وذلك أن المحب راض دائماً عن أعمال محبوبه .

وللرضا في الإيمان ركائز قوية ، وذلك أن المؤمن من يعتقد أن الله سبحانه
وتعالى حكيم وتصرفاته - سبحانه - تجرى على مقتضى الحكمة . ويعتقد المؤمن
أنه سبحانه رحمن . وتصرفاته - سبحانه - تجرى على مقتضى رحمته الحكيمة .
وحكته الرحيمة .

فإذا ما وصل المؤمن مع ذلك إلى محبة الله تعالى . فقد أصبح راضياً بالرضا

كله . ودخل في نطاق :

﴿ رضى الله عنهم . ورضوا عنه ﴾ .

ولكن أمر الرضا يلتبس على بعض الناس . فيما يتعلق بالسلبية والإيجابية .

هل الرضا يتنافى مع العمل ؟

هل الرضا يقتضى ألا يحاول الإنسان الخروج من الضيق إلى السعة ؟ ومن

الدل إلى العز ؟ ومن الهزيمة إلى النصر ؟ ومن المسر إلى اليسر ؟ ومن الحسن إلى

الأحسن ؟ ومن الشريف إلى الأشرف ؟

هل الرضا أن تسكن مستسلماً ؟

كلا ! ! !

وإذا انجبه أحد إلى ذلك فإنه يكون تليساً إبليسياً - على حد تعبيرات

ابن الجوزي .

إِنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ يَذَكِّرُ الرِّضَا فِي مَنَاسِبَاتٍ . مِنْهَا :

﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ ، فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ ، وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ .

لقد رضى الله عنهم ، وهم يبايعون على الجهاد ، وعلى الموت في سبيل الله !

إن البيعة كانت على القتال ، لتحقيق العزة لله ورسوله !

إنها كانت بيعة على الجهاد لإعلاء كلمة الله تعالى :

بقول الإمام « الألبانى » :

« وأصل هذه البيعة - وتسمى بيعة الرضوان لقول الله تعالى فيها :

(لقد رضى) . . الخ - أن النبي ﷺ - لما نزل الحديدية بعث « حراشاً »

- بكسر الحاء المعجمة ، وفتح الراء المهملة ، وألف بعدها شين معجمة -

« ابن أمية الخزاعى ، رسولاً إلى أهل مكة ، وحمله على جمل له . يقال له :

« الثعلب » ، يعلمهم أنه جاء معتمراً لا يريد قتالاً ، فلما أتاهم ، وكلمهم

عقروا جملة ، وأرادوا قتله ، فتمعه « الأحابيش » فخلوا سبيله حتى أتى

الرسول - ﷺ فدعا « عمر » رضى الله تعالى عنه ليعنه فقال : يا رسول الله إن

القوم قد عرفوا عداوتى لهم ، وغلظى عليهم ، وإنى لا آمن وليس بمكة أحد من

« بنى عدى » يتغصب لى إن أوديت . فأرسل « عثمان بن عفان » ، فإن عشيرته

بها ، وهم يحبونه ، إنه يبلغ ما أردت ، فدعا رسول الله ﷺ « عثمان » فأرسله

إلى قريش وقال : أنصبرهم أنا لم نأت لقتال ، وإنما جئنا عماراً ، وادعهم إلى

الإسلام ، وأمره عليه الصلاة والسلام أن يأتى رجالاً بمكة مؤمنين ، ونساء

مؤمنات ، فيشرهم بالفتح ، ويضربهم أن الله تعالى يظهر دينه بمكة ، فذهب

« عثمان » رضى الله تعالى عنه إلى قريش ، وكان قد لقيه « أبان بن سعيد بن العاص » ، فترل عن دابته ، وحمته عليها وأحاره . فأتى قريشاً فأحبرهم فقالوا له : إن شئت فطع بالبيت . وأما دخولكم علينا فلا سبيل إليه . فقال رضى الله تعالى عنه :

ما كنت لأطوف به حتى يطوف به رسول الله ﷺ ، فاحتسبوه ، فبلغ

رسول الله ﷺ والمسلمين أن « عثمان » قد قتل ، فقل عليه الصلاة والسلام :

« لا يبرح حتى تاجر القوم » ، ونادى مناديه عليه الصلاة والسلام ألا إن

روح القدس قد نزل على رسول ﷺ - فأمره بالبيعة ، فأخرجوا على اسم الله

تعالى فبايعوه ، فثار المسلمون إلى رسول الله ﷺ - وبايعوه .

قال « جابر » - كما في صحيح مسلم وغيره - : بايعناه ﷺ - على ألا

نفر ، ولم نبايعه على الموت !

وأخرج « البخارى » عن « سلمة بن الأكوع » قال : بايعت رسول الله -

ﷺ - تحت الشجرة ، قيل : على أى شىء نبايعونه يومئذ ؟ قال : على

للموت (٣٢) !

وأخرج « مسلم » عن « معقل بن يسار » أنه كان آخذاً بأغصان الشجرة عن

وجه رسول الله ﷺ وهو يبايع الناس . . . (٣٣) .

ويقول تعالى :

﴿ لا يجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ، ولو

(٣٢) لا تعارض بين الحديثين كما يرويه ظاهر نصيبها فإن المبايع على الجهاد تنصص البيعة على

الموت .

(٣٣) روح المطالب ٢٦ / ١٠٦ .

كانوا آباءهم ، أو أبنائهم ، أو إخوانهم ، أو عشيرتهم ، أولئك كتب في قلوبهم الإيمان ، وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ، رضي الله عنهم ورضوا عنه ، أولئك حزب الله ، ألا إن حزب الله هم المفلحون ﴿٣٤﴾ .

إن الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه لا يرادون من حاد الله ورسوله ، وإنما يعادونهم ويحاربونهم !
ورضا الله تعالى إنما هو في أن يقف الإنسان موقفاً صلياً في وجه كل من يباد الله ورسوله ، يقول تعالى للمؤمنين :
﴿ وليجدوا فيكم غلظة ﴾ .

ويتحدث الله سبحانه عن جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ، ويسعون في الأرض فساداً ، فيقول :

﴿ إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ، ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا ، أو يصلبوا ، أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ، أو ينقوا من الأرض ، ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم ﴾ (٣٥) .
فالحرب دائرة على مر الزمن بين أنصار الله وأعدائه ، بين من يتصرون للمفضيلة . ومن يحاولون إشاعة الرذيلة ! بين عباد الرحمن ، وأتباع الشيطان !
وحزب الله الذي يدخل في إطار هؤلاء الذين .

﴿ رضي الله عنهم ورضوا عنه ﴾ .
إنما هذه الطائفة التي يقول رسول الله ﷺ فيها :

(٣٤) الجادة : ٧٢ .
(٣٥) المائدة : ٣٣ .

« ما تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق - لا يضرهم من خالفهم ، ولا من خالفهم ، حتى تقوم الساعة » .

وهم ظاهرون على الحق بكل ما في استطاعتهم من إمكانات ، ظاهرين على الحق بالسيف ، ظاهرين على الحق بالمنطق ! رسول الله ﷺ وهو إمام المحبين وسيد الراضين ، كانت حياته كلها كفاحاً في سبيل الله تعالى :
جهاداً بالسيف ، وجهاداً بالقول ، لقد كانت جهاداً قولاً ، وعملًا ، وكان ﷺ الأسوة للراضين .

ما معنى الرضا إذن ؟

إن معنى الرضا ، أن يبذل الإنسان جهده ليصل إلى ما يحبه الله ورسوله ، ولكنه من قبل الوصول إليه ، وفي أثناء محاولاته للوصول إليه مطمئن إلى النتيجة على أي وضع أحياها الله ، راض بها ، إن : « إليه للعصر » .

وإن : ﴿ والله عاقبة الأمور ﴾ .

وإن : ﴿ إليه يرجع الأمر كله ﴾ .

يجب أن يكون كل ذلك وقرأ في ذهنه ، مدفوعاً به شعوره ، مع إيمانه بأنه سبحانه حكيم ، رحمن ، رحيم ، إنه الرضا ! يقول صاحب اللوح :
« والرضا باب الله الأعظم ، ووجه الدنيا ، وهو أن يكون قلب العبد ساكناً تحت حكم الله عز وجل » ويقول :

« والرضا آخر المقامات ، ثم يقتضى من بعد ذلك أحوال أرباب القلوب ، ومطالعة الغيوب ، وتهذيب الأسرار لصفاء الأذكار ، وحقائق الأحوال » (٣٦) .

(٣٦) اللوح : ٨٠ - ٨١ .

حول مصادر التصوف الإسلامي

بحاول المستشرقون ، وغيرهم من الذين يكتبون في التصوف الإسلامي ، رد الحياة الروحية الصوفية في الإسلام إلى مصدر أجنبي بحت ، « هندی » ، أو « يوناني » : إلخ ، أو إلى عدة مصادر ؛ منها القرآن ، أو حياة الرسول ، صلوات الله وسلامه عليه .

وبحاول بعضهم أن يظهر بمظهر الاعتدال ، فيرى أن العامل الأول في نشأة التصوف ، إنما كان القرآن وحياة الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - ومنها استمد التصوف بنوره الأولى ، ثم كانت الثقافة الأجنبية - « هندية » ، أو « يونانية » أو « فارسية » ، أو « مسيحية - هي التي أثرت فيه ، وجعلته يتطور ، وهي التي أمدته من الآراء ، بما زعموا أنه بعيد عن روح الإسلام وطبيعته . ويرغم أن الأستاذ « لويس ماسينيون » يقول في صراحة : « أما دراسة مصادر التصوف ، فإن الشقة بيننا وبين استكناها مازالت بعيدة » ، فإن المستشرقين ؛ ومن هج هجهم يحاولون جاهدين أو يعزوا التصوف إلى مصدر معين ؛ أو إلى مصادر مختلفة ، يشترك فيها المصدر الإسلامي ، أو لا يشترك . والتصوف إذن على رأي بعضهم « مذهب دخيل في الإسلام مأخوذ : إما من رهبانية الشام ، وهو رأي « ميركس » ، وإما من « أفلاطونية اليونان » الجديدة . وإما من « زرادشتية الفرس » ، وإما من « فيدا الهندود » ، وهو رأي « جونسن » .

ويأخذ المستشرقون بعضهم في مناقشة البعض ، وهدم « صميم معضاً » بل إن الشخص الواحد منهم يغير رأيه ، فيختلف باختلاف فترات حياته ، والمستشرق « ثولك » مثلاً يذهب في أول حياته إلى أن التصوف الإسلامي إنما هو مأخوذ عن أصل مجوس .

ثم يعدل عن ذلك إلى الطريق المقابل ، ويرى أن « التصوف » وكل ما فيه من الأقوال المتطرفة يمكن الرجوع به إلى تعاليم الرسول ﷺ ، وسيرته . ويقول الأستاذ الدكتور « أبو العلا عفيفي » - بحق - ولما بدأت حركة طبع الكتب في مصر ، والهند ، وغيرها في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، وبدأ يتدفق سيلها من مطبعة بولاق الأميرية خاصة ، تعبر بحرى البحث العلمي لا في التصوف وحده ، بل في جميع فروع الدراسات الإسلامية .

وتغير إذن رأي « ثولك » وتغيرت بذلك أدلته ، وأسانيده ، وكما اعتبر في فترة حياته الأولى أن أدلته وأسانيده فيما يتعلق بالمصدر المجوسى للتصوف الإسلامي حاسمة ، فقد اعتبر في فترة حياته الثانية أن أدلته وأسانيده في المصدر الإسلامي للتصوف حاسمة أيضاً .

وإذا كان الأمر فيما يتعلق « بثولك » يمكن الاعتدال به بأنه وحد في فترة لم تكن الكتب الصوفية ميسورة كل اليسر ، فإن ما حدث « لثولك » هو نفسه ما حدث للمستشرق « نيكولسون » ، إنه يتحدث عن التصوف ، فيرجع نشأته إلى عوامل خارجية عن الإسلام ، عملت عملها ابتداء من القرن الثالث الهجري .

وأهم هذه العوامل وأبرزها في نظره ، هو « الأفلاطونية الحديثة » المتأخرة والتي كانت شائعة في مصر ، والشام ، إلى عهد « نبي النون المصري » ،

وه معروف الكرخي .

وإذا أردنا تصوير رأي نيكلسون بقلبه في هذه الفترة ، فإننا نراه يقول : ولكن على يقين من أننا إذا نظرنا إلى الظروف التاريخية التي أحاطت بنشأة التصوف بمعناه الدقيق ، استحال علينا أن نرد أصله إلى حامل هندي ، أو فارسي ، ولزم أن نعتبره وليداً لاتحاد الفكر اليوناني ، والديانات الشرقية أو بعبارة أدق ، وليداً لاتحاد الفلسفة الأفلاطونية الحديثة ، والديانات المسيحية والمذهب الغنوصي .

ثم يتحول نيكلسون عن هذا الرأي ، حينما يكتب مادة التصوف في دائرة معارف الدين والأخلاق ، فيقول : وقد حولت مسألة نشأة التصوف الإسلامي حتى الآن معالجة خاطئة ، فذهب كثير من أوائل الباحثين إلى القول بأن هذه الحركة العظيمة التي استمدت حياتها وقوتها من جميع الطبقات ، والشعوب التي تألفت منها الإمبراطورية الإسلامية ، يمكن تفسير نشأتها تفسيراً علمياً ، دقيقاً ، يارجاعها إلى أصل واحد : كالفيدانتا الهندية ، أو الفلسفة الأفلاطونية ، أو بوضع فروض تفسر جانباً من الحقيقة لا الحقيقة كلها .

ويشرح الأستاذ لويس ماسينيون فكرة نيكلسون الأخيرة ويقول : وقد بين نيكلسون : أن إطلاق الحكم بأن التصوف دخيل في الإسلام غير مقبول ، فالحق أننا نلاحظ منذ ظهور الإسلام أن الأبطال التي احتضرت بها متصوفة المسلمين : نشأت في قلب الجماعة الإسلامية نفسها في أثناء عكوف المسلمين على تلاوة القرآن ، والحديث وتقرئها ، وتأثرت بما أصاب هذه الجماعة من أحداث ، وما حل بالأفراد من توازل .

ويتابع الأستاذ ماسينيون ، شرح فكرة نيكلسون ، فيقول : على أنه إذا كانت مادة التصوف إسلامية عربية خالصة ، لما لا يتخلو من قائدة أن نتعرف على المحسات الأجنبية التي أدخلت عليه ، وبعث في كنفه .
وفكرة نيكلسون هذه ، هي تقريباً نفس فكرة الأستاذ ماسينيون ، ماسينيون يرى ، أن التصوف لا يرجع إلى مصدر واحد ، وإنما يرجع أولاً إلى القرآن ، وهو أهم المصادر التي استمد منها التصوف نشأته وحياته .
والمصدر الثاني ، هو : الحديث ، والفقه وغيرها من العلوم العربية الإسلامية .

أما المصدر الأخير . فهو : الثقافة العلمية الأجنبية العامة التي وجدت في البيئة الإسلامية ، في عهدها الأولى .

٢

هذه الاختلافات الكثيرة ، التي استفاض فيها الكتوبون ، وكونوا لها العصول الطول ، واستنفدوا فيها الجهد ، والتي لا تزال مع كل ذلك مستمرة لا تنتهي - ولا تريد أن تنتهي - إن دلت على شيء . فإما تدل على أن وضع المشكلة بهذا الوضع إنما هو خطأ من أساسه وهذا الخطأ في وضع المشكلة مفهوم السبب والعللة .

لقد وقف الكتوبون من التصوف موقفهم من الثقافة الكسبية ، والثقافة الكسبية يتأق فيها التائر ، والتطور ، والتقليد ، فالكتوب ، أو الشاعر ، أو المفكر على وجه العموم ، الذي يستمد ثقافته من البيئة الخارجية ، يتلون ويتشكل بما يقرأ ، وبما يدور حوله ، وبما يتشربه من بيئته ، ونتاجه ، إذن :
فهي تصوف المقلد من المقلد .

أثر للبيئة الخارجية . اللهم إلا إذا كانت له أصالته التي تسوبه عن أن يكون
صدي للوسط الذي يعيش فيه
ولكن التصوف والصوفية ليسا من هذا الوادي .

وإذا أردنا أن نتحدث في تحديد ودقة ، فإننا نرى أن المشكلة التي نحن
بصدها نتفرع إلى أمرين :

١- الاتجاه إلى الحياة الصوفية ، أو التزعة إلى سلوك الطريق الصوف .

٢- الشعور الصوف .

أما فيما يتعلق بالاتجاه نحو السلوك الصوف ، فله مؤثراته الداخلية البحتة ،
وهي مؤثرات تتصل بالفرد من الناحية الداخلية ، أكثر من أن تتصل بعامل
خارجي ، لا بد إذن من أن يكون الاستعداد الشخصي الفردي القفري
موجوداً ، سهياً ، ويكفي لأن يسلك عملياً هذا الطريق : كلمة ، أو فكرة ، أو
إشارة ، أو حادثة من الحوادث ، فيأخذ فملاً في سبوه نحو الله - تعالى - وإلى
ذاهب إلى ربي . . .

هذا العزم المصمم ، الذي يشتمل في هذه الكلمة الكريمة : لا بد له من
الاستعداد القفري ، الذي لا يخفى عنه طسفة ، أفلاطونية ، ولا ويداننا
هتبية ، ولا زرادشتية فارسية . . .

وقد يكون لتوجه إلى التصوف قارئاً وللأفلاطونية الحديثة ،
أو لا يكون ، وقد يكون على علم بمقائد الهدى ، أو لا يكون ، فالتخصص
في الأفلاطونية الحديثة ، لا يفيد تخصصه مداً - لا ولا قلائمة ظفر - في أن
يكون صوفياً . وكذلك الأمر في التخصص في عقائد الهدى . . .

وقد قرأ الإمام الغزالي ، كتب الصوفية أنفسهم ، وعحدثنا بذلك فيقول :

« فإبتدأت بحصيل علمهم من مطالعة كتبهم ، مثل : « قوت القلوب »
والأبي طالب المكي ، - رحمه الله - وكتب « الحارث الحامي » ، و« لفرقة
الثورة عن الجيد » ، و« الشبل » ، و« أبي يزيد البسطامي » - « قدس الله
أرواحهم - وغير ذلك من كلام مشايخهم ، حتى اطلمت على كنه مفاصلهم
العلمية ، وحصلت ما يمكن أن يحصل عن طريقهم بالتعليم والسماع .
ولكن ذلك لم يحصل منه صوفياً ، ولم يكن الإمام الغزالي ، يهده الكتب ،
ولا بمطالعة لفلسفة اليونان » ودرسته لما دراسة عميقة صوفياً ، ولكنه نين
أن أحصى خواصهم - عن حد تعبده - ما لا يمكن الوصول إليه بالتعليم ، بل
بالذوق والحال ، وتبدل الصفات .

وليس التصوف - إذن ثقافة - كسبية ، تتأثر بهذا الاتجاه أو ذاك ، وإنما
هو ذوق ومشاهدة ، يصل الإنسان إليها عن طريق الملوحة ، والرياضة
والمجاهدة ، والاشتياق ، بتزكية النفس ، ونهذيب الأخلاق ، وتصفية القلب
للاذكر الله تعالى ..

وهذا هو جوهر الشعور الصوف .

أخص خصائص التصوف : شعور لا يمكن التعبير عنه ، فإن الإنسان يصل
ليه ، إلى درجات يصعب عنها إطلاق الكتابة ، فلا يحاول معبر أن يعبر عنها ، إلا
اشتمل لفظه على خطأ صريح ، لا يمكنه الاحتراز عنه . . .

والذي لا يسته تلك الحالة - على حد تعبده الإمام الغزالي - « لا ينبغي أن
يزيد على أن يقول :

« كان ما كان مما كنت أذكره فظن خيراً ولا تسأل من المبر
المشاهد الصوفية إذن ، ليست ثقافة كسبية ، وإذن لا يتأقى المتحدث من

مصادرها الخارجية - أياً كانت هذه المصادر .

ووضع المسألة - مسألة مصادر التصوف - إذن موضع البحث ، والنظر ،
والدراسة ؛ إنما هو وضع خطأ ، لا يفعله ، ولا يقوم به إلا من لا يفهم
التصوف ، ولم يسهم في تدقيقه بقليل ولا بكثير .

والنتيجة التي نريد أن ننتهي إليها - إذن - هي أن الاتجاه نحو التصوف
والترؤف إليه إنما هو فطرة واستعداد .

أما المنوع الصوفي ، والشعور الصوفي ، والمعرفة الصوفية ، فإنها استعداد
من مصدر النور ، والهداية .

نشأة التصوف

إن التصوف باعتباره فكرة ، وباعتباره حالة ، نشأ مع نشأة الإنسان
والاستدلال على هذا لا يتأتى أن يستند إلى نصوص ؛ لأن نشأة الإنسان
كانت قبل الكتابة والتسجيل .

ولكنه من البدهي : أن الإنسان منذ نشأته يتطلع إلى معرفة الغيب ، ويرو
استشراق عالم ما وراء الطبيعة ، بل إلى الاتصال بذلك العالم عن طريق الوسيلة
الصحيحة لهذا الاتصال .

وهذه الفكرة على هذا الوضع تقرها الأديان على وجه العموم .
ذلك أن الأديان تعترف بسوة آدم ، وبأن الله قد اجتباه ، إنها تعترف بصحة
بالله ، وبأن الله قد علمه الأسماء كلها ؛ والنبوة أعلى درجة من التصوف ؛
تضمنه ، وتريد عليه إن النبوة تتضمن الولاية ، ولكنها أعلى درجة ومترنة
منها ، لأنها اصطفاه من الله :

﴿ إن الله اصطفى آدم ونوحاً... ﴾ .

والأديان - على وجه العموم - لا تنتهج نهج التطوريين أو النشويين ؛
الذين يرون أن العقل الإنساني : درجات مختلفة ، وأن تطلعه إلى المعرفة
الإشراقية ، إنما نشأ متأخرًا ؛ أي عندما نضج وتهدب ؛
والحق : أنه ليس هناك دليل واحد على أن العقل درجات ، تتابع
رقياً ، وإنما كل الأدلة تثبت أن العقل - باعتباره عقلاً - لا باعتباره معرفة
مكتسبة ؛ هو ، هو . في بنى البشر ، بأديهم ، ومتحضرهم .

ولو أخذنا طفلاً من البدائيين ، من مجاهل أفريقيا ، ووضعناه منذ نشأته في أرق الأوساط الأوروبية محضراً ، لنشأ نشأة أوروبية بحتة .

وكذلك الأمر ، لو أخذنا طفلاً من أرق الأوساط الأوروبية محضراً ووضعناه مع البدائيين منذ الميلاد لنشأ نشأة بدائية .

العقل الإنساني : هو ، هو ، منذ أن وجدت الإنسانية إلى الآن ، والذي اختلف ، إنما هو المعارف المكتسبة ، وهذه المعارف المكتسبة هي وحدها التي تميز المتحضر عن البدائي ، والتي تميز رجل القرن العشرين بعد الميلاد ، عن الإنسان فيما قبل الميلاد .

وبما هو جدير بالذكر : أن التصوف - في وجوده وتحققه - : غير محتاج إلى معارف مكتسبة ، طبيعية ، أو كياوية ، أو فلكية ، أو غير ذلك : إنه محتاج إلى أساس من العقيدة الصحيحة .

والعقيدة الصحيحة وجدت مع الإنسان منذ أن سواه الله ، ونفخ فيه من روحه .

هذه النفخة الإلهية ، أو هذا السر الإلهي في الإنسان ، أو هذه الروح التي بين جنبيه ، أو هذا القلب الذي منحه الله إياه : إذا ارتكز على أساس صحيح من الدين ، ثم جاهد في طريق التزكية والتصفية ، واتخذ الوسائل التي تؤدي إلى الاتصال بالملا الأعلى ، فإنه ينتهي - بتوفيق الله - إلى ما يريد من هذا الاتصال ، وإلى ما يطمح إليه من ثمار الاتصال ، أعني : المعرفة .

معرفة ما وراء الطبيعة . . إنها الأمل العذب الذي يراود الكثير من النفوس التي تريد أن تتتره عن المادة وأن تسمو على الحسن ، وأن تصبح رباتية وهذا الخط من الناس موجود في كل زمان ومكان ، ولكنه من الطبيعي أنه

من الدررة بمكان ، وحل جناب الحق على أن يكون شرعة لكل وارد ، أو أن يصل إليه ، إلا الواحد بعد الواحد ، على حد تعبير ابن سينا .

ومن المقول : أن هذا الخط وجد مع وجود الإنسانية ، مادام الطموح ، وحب الاستطلاع ، والتشوف إلى عالم الغيب ، مادام كل ذلك فطرة في بعض الطباع .

وجد التصوف إذن ، منذ أن وجد الإنسان .

وفيما قبل الحضارة اليونانية ، كانت المسائل - فيما يتعلق بالمعرفة - تسير سيراً طبيعياً ، فقد كان هناك ميدان للحس ، يحول فيه ، كيفما شاء ، وهناك ميدان للعقل ، يبحث فيه ، كيفما يريد ، ولكن كان من المعروف في الحكمة الهندية مثلاً ، والحكمة المصرية القديمة : أن عالم ما وراء الطبيعة إنما هو من اختصاص البصيرة ، وما كان يسمح قط في تلك الحضارات : أن تختلط الأمور ، وأن تتعدى كل أداة من أدوات المعرفة اختصاصها .

وكانت ميادين المعرفة محددة تحديداً كالإله ، لا ليس فيه ولا غموض . كانت محدودة ، فيما يتعلق بالوسائل ، وكانت محددة ، فيما يتعلق بالموضوعات . وكان لمعرفة الغيب رجال ، هيأت لهم فطرهم وظروفهم أن ينتهجوا سبيله . بل حدث في بعض الأحيان : أن حدد هؤلاء الرجال ، من بين طبقة معينة ، هي الطبقة التي يظن أنها ورثت نوعاً من الشفافية عن أسلافها .

وطبقة البراهمة ، عن الهند طبقة محددة ، وما كان كل شخص يمكن أن يكون كاهناً عند قدماء المصريين .

ولا تزال هذه الفكرة للآن - فكرة تحديد ميادين المعرفة ، وتحديد وسائلها موجودة في الهند المحافظين على تراثهم القديم .

أما حينما نشأت الحضارة اليونانية ، ولم تكن هذه الحضارة مرتكزة على دين صحيح . ولم تكن مستقرة على دعائم من النصوص المقدسة الثابتة ، فإن الأمور بدأت تختلط ، وبدأت الحدود تتزلزل - نوعاً ما - بين ميادين المعرفة وبدأت بالتالي ، تضطرب الأمور ، فيما يتعلق بأدوات المعرفة .

ومع ذلك فإن هذه الحضارة اليونانية القديمة نفسها - في بعض صورها - كانت تسير على نهج الحضارات الصحيحة : هندية كانت ، أو مصرية . فهذا مثلاً ، « فيثاغورث » ومدرسته : كانوا يسعون في المعرفة على أسس صحيحة ، ولكن وجد بيجوار « فيثاغورث » من انتهجوا النهج العقل ، في معرفة ما وراء الطبيعة ، وبدأ الأمر يختلط ، حتى كان « أرسطو » فذهب بهذا الخلط أقصى مداه ، واضطرب الأمر بسببه اضطراباً لا يزال العالم يعاني الكثير من آثار المحرفه إلى الآن .

إن إدخال العقل في مسائل ما وراء الطبيعة : انحرف يؤرخ بالعصر اليوناني ، ولكن هذا الانحرف لم يكن خفياً أمره - في العصر اليوناني ، وبما تلاه من العصور - على كثير من ذوى البصائر النافذة ، الذين انحدروا من الآثار المقدسة ملحاً وعصمة ، والذين انحذروها دتاراً وشعاراً ، والذين عملوا بها ، وتشرتها أرواحهم حتى أصبحت ، وكأنها فطرة فيهم . . . فقد انهم إلى أن يكونوا ريبانيين : لقد قادتهم إلى الأمل المنشود : شهود ما وراء الطبيعة ، أو شهود التوحيد ، فانضوا تحت لواء الآية الكريمة :

﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو ، والملائكة ، وأولو العلم . . . ﴾ .
إنهم أولياء الله ، إنهم « الصوفية » .

لمحة عامة عن التصوف

هذه اللوحة كتبها الحكيم الصوفي الفرنسي النشأة رينيه جينو Rene Guenon الذي أسلم وسمى نفسه عبد الواحد يحيى وقد كتبنا عنه فيما مضى ما يلي :

أما الذي كان إسلامه ثورة كبرى هزت ضمائر الكثير من ذوى البصائر الطاهرة ، فاقبلوا به : واعتنقوا الإسلام ، وكونوا جماعات مؤمنة مخلصه تعبد الله على يقين في معازل الكاثوليكية في فرنسا ، وفي سويسرا . . . فهو العالم الفيلسوف الحكيم ، الصوفى : « ريبيه » الذي يدعى اسمه في أوروبا قاطبة وفي أمريكا ، والذي يعرفه كل هؤلاء الذين يتصلون اتصالاً وثيقاً بالدراسات الفلسفية الدينية في أوروبا ، أو في أمريكا .

وكان سبب إسلامه بسيطاً منطقياً في آن واحد :

لقد أراد أن يتصم بنص مقدس ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، علم يجد - بعد دراسة عميقة - سوى القرآن ، فهو الكتاب الوحيد الذي لم يله التحريف ولا التبديل : لأن الله تكفل بحفظه ، وحفظه حقيقة :

﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾

لم يجد سوى القرآن نصاً مقدساً صحيحاً ، فاعتصم به ، وسار تحت لوائه ، فغمره الأمن التساسي في رحاب الفرقان .

ومؤلفاته مشهورة من بينها كتاب : « أزمة العالم الحديث » ، من فيه الانحرف الحائل ، الذي تسير فيه أوروبا الآن ، والفضلال المبين الذي أعشى الغرب عن سواء السبيل .

أما كتابه : « الشرق والغرب » فهو من الكتب الخالدة ، التي تجعل كل

لهوى بغير بشرقته . وقد رد فيه إلى الشرق اعتباره ، ميباً أصالته في
المحصارة ، وسموه في التفكير ، وإنسانيته التي لا تقاس بها مادة الغرب ،
ولمصاده ، وامتصاصه للدماء وعدوانه الذي لا يقف عند حد ، وطمه المؤسس
على المادية والاستغلال ، ومظهراً في كل صفحة من صفحاته نبل الشرقيين ،
وعظمتهم ، وبعثهم للأمر فهاً يتفق مع الفضيلة ، ومع أسنى المبادئ
الإيمانية . . .

وقد كتبنا عنه تقريراً لإحدى جامعاتنا المصرية ، لتعرف به ، ننشره فيما
يلي :

« رينيه جينو » من الشخصيات التي أخذت مكانها في التاريخ ، يضعه
للمسلمون بيجوار الإمام « الفزالي » وأمثاله ، ويضعه غير المسلمين بيجوار
« أفلوطين » ، صاحب الأفلاطونية الحديثة ، وأمثاله .

وإذا كان الشخص ، في بيتنا الحالية ، لا يقدر التقدير الذي يستحقه إلا بعد
وفاته ، فقد كان حسن حظ : « رينيه جينو » أنه قلم أثناء حياته ، وقلم بعد
وفاته . أما في أثناء حياته : فكان أول تقدير له : أن حرمت الكنيسة قراءة
كتبه ، والكنيسة لا تفعل هذا إلا مع كبار المفكرين الذين تخشى خطرهم ، وقد
وصفته بذلك بيجوار عباقرة الفكر ، الذين اتخذت لجاههم نفس المسلك ،
ولكنها رأيت في « رينيه جينو » خطراً يكبر كل خطر سابق ، فحرمت ، حتى
الحدث عنه .

وإذا كان هذا تقديراً سلبياً له قيمته ، فهناك التقدير الإيجابي . الذي لا يقل
في أهميته عن التقدير السلبى ، فهناك هؤلاء الذين استجابوا لدعوة رينيه
جينو ، فألقوا جمعيات في جميع العواصم الكبرى في العالم ، وعلى
الخصوص ، في سويسرا ، وفي « فرنسا » ، والمكونون لهذه الجمعيات احتلوا
حدود « رينيه جينو » فاحتلوا الإسلام ديناً ، والطهارة والإخلاص وطاعة الله ،

شعراً وديناً ، ويكونون ، وسط هذه المادية السابغة ، وهذه الشهوات
المتغلبة ، واحاديث جميلة ، يلجأ إليها كل من أراد الطهر والطمأنينة .

ومن التقدير الإيجابي أيضاً ، أن كتبه برغم تحريم الكنيسة لقراءتها ، قد
انتشرت في جميع أرجاء العالم ، وطبعت المرة بعد الأخرى ، وترجم الكثير منها
إلى اللغات الحية الناهضة ، ماعدا العربية ، للأسف الشديد .

ومن الطريف : أن بعض الكتب ترجم إلى لغة : الهند الصينية ، ووضعت
كشرح للوصية الأخيرة من وصايا « الدالاي لاما » . ولم يكن يوجد في الغرب
شخص متخصص في تاريخ الأديان ، إلا وهو على علم بأراء « رينيه جينو » .
كل هذا التقدير كان في حياته .

أما بعد مماته ، فقد زاد هذا التقدير ، لقد كتبت عنه جميع صحف العالم
ومنها بعض الصحف المصرية العربية ، كالمصور مثلا ، الذي كتب عنه ، في
استفاضة والصحف الإفرنجية أيضاً ، كمجلة « إيبيست نوفل » . التي أخذت
تكتب عنه عدة أسابيع . ثم أخذت تكتب عنه كل عام في ذكرى وفاته .

وقد خصصت له مجلة : « فرنسا آسيا » وهي مجلة محترمة ، عدداً ضخماً ،
كتب فيه كبار الكتاب الشرقيين والغربيين ، وافتتحه بتقدير شاعر فرنسا الأكبر .
« أنلريه جيد » لـ « رينيه جينو » وقوله ، في صراحة لا لبس فيها : إن آراء
« رينيه جينو » لا تنقص .

وخصصت مجلة : (ايتودترا ديسونيل) ، وهي المجلة التي تعتبر في الغرب
كله : لسان التصوف الصحيح ، عدداً ضخماً من أعدادها ، كتب فيه أيضاً ،
كبار الكتاب الشرقيين والغربيين .

ثم خصص له الكاتب الصحفي الشهير ، (بول سيران) كتاباً ضخماً تحدث
فيه عن حياته وعن آرائه ، ووضعها ، كما وضعه الآخرون الذين كتبوا عنه ، في
المكان اللائق به ، بيجوار الإمام الفزالي أو الحكيم أفلوطين .

نشأ (رينيه جينو) في فرنسا من أسرة كاثوليكية ، ثرية محافظة ، نشأ مرهف الحس ، مرهف الشعور ، مرهف الوجدان ، متجهاً بطبيعته إلى التفكير العميق والأبحاث الدقيقة . وهاله حيناً نضج تفكيره ، ما عليه قومه من ضلال فأخذ يبحث في جد عن الحقيقة ، ولكن أين هي ؟ أفى الشرق أم في الغرب ؟ وهل هي في السماء أم في الأرض ؟

أين الحقيقة ؟ سؤال وجهه (رينيه جينو) إلى نفسه ، كما وجهه من قبل إلى نفسه : الإمام « المحاسبي » والإمام « الغزالي » ، والإمام « محيي الدين ابن عربي » وكما وجهه من قبلهم عشرات من المفكرين والذين أبوا أن يستنجسوا للتقليد الأعمى ، وتأتى فترة الشك ، والحيرة ، والألم للحض ، ثم يتألم عون الله ، وكان عون الله ، بالنسبة لـ (رينيه جينو) : أن يهرته أشعة الإسلام الخالدة ، وغمره ضياؤه الباهر فاعتنقه ، وتسمى باسم الشيخ « عبد الواحد يحيى » ، وأصبح جندياً من جنوده ، يدافع عنه ، ويدعو إليه . ومن أمثلة ذلك : ما كتبه في كتابه : (رمزية الصليب) تفهيداً للقرية التي تقول : إن الإسلام انتشر بالسيف ، ومن أمثلة ذلك أيضاً ما كتبه في العدد الخاص الذي أصدرته مجلة : (كاييه دى سود) ، في عددها الخاص بالإسلام والعرب ، دفاعاً عن الروحانية الإسلامية ، لقد أنكروا الغريون روحانية الإسلام ، أو قللوا من شأنها ، وأشادوا بروحانية المسيحية وأكبروا من شأنها ، ووضعوا التصوف للمسيحي في أسنى مكانة ، وقللوا من شأن التصوف الإسلامى .

كتب الشيخ « عبد الواحد يحيى » ، مبيناً سمو التصوف الإسلامى وروعته ، وقارن بينه وبين ما يسمونه بالتصوف المسيحى ، أى « الميسيسم » ، وانتهى بأن هذا « الميسيسم » لا يمكنه أن يبلغ ولا من بعد ما بلغه للتصوف الإسلامى من سمو ، ومن جلال .

على أن الشيخ « عبد الواحد يحيى » لم يشد بالإسلام فحسب ، وإنما أشاد

في جميع كتبه ، وفي مواضع لا يأتى عليها الحصر ، بالشرق ، ثم خصص كتاباً ضخماً بعنوان : (الشرق والغرب) تزيل قراءته من نفس كل شرق مركب النقص الذى غرسه الاستعمار في نفوس الشرقيين ، في هذه السنوات الأخيرة لقد دأب الاستعمار على أن يفرس في نفوس الشرقيين : أنهم أقل حضارة ، بل أقل إنسانية من الغربيين . . . وأتى الشيخ « عبد الواحد » : فقلب الأوصاف رأساً على عقب ، وبين للشرقيين قيمتهم ، وأنهم منبع النور والهداية ، ومشرق الوحي والإلهام .

إن كل شرق يفخر بشرفه بمجرد قراءته لهذا الكتاب ، وهو ليس كتاباً يشيد بالشرق على الأسلوب الصحفى ، أو على الطريقة الإيشابية ، وإنما هو كتاب علمى بأدق المعانى لكلمة علم ، وهذا وحده يكفى لأن يقيم الشرقيون مظاهر التكريم للشيخ عبد الواحد . اعترافاً منهم بالجميل ، والله الموفق .

• • •

وفى يلي ما كتبه الشيخ عبد الواحد ، وقد ترجمناه عن الفرنسية .

بين الظاهر والباطن :

ربما كانت العقيدة الإسلامية ، من بين العقائد الموروثة ، هي العقيدة التي يظهر فيها بوضوح التفرقة بين جزأين متكاملين هما « الطاهر » و « الناطل » أعنى « الشريعة » ، وهي الباب الذى يدخل منه الجميع ، و « الحقيقة » ولا يصل إليها إلا المصطفون الأخيار ، وهذه التفرقة ليست تحكيمية ، وإنما تفرصها طبيعة الأشياء ، ذلك أن استعداد الناس متفاوت وبعضهم معد لمعرفة الحقيقة . وكثيراً ما نجدهم يشبهون الشريعة والحقيقة بالقشر واللب ، أو بالدائرة ومركزها . والشريعة تتضمن - فضلاً عن الناحية الاعتقادية - الناحية التشريعية والناحية الاجتماعية ، وهما جزءان لا يتجزآن عن الدين الإسلامى :

أرلا وقيل كل شيء قاعدة للسلوك. أما الحقيقة^(٣٧) فإنها معرفة محضة ، ولكن يجب أن نعلم أن هذه المعرفة هي التي تعطى للشريعة معناها السامي العميق ، بل هي التي تبرز وجود الشريعة ، إنها في الحقيقة - وإن لم يشعر بذلك المؤمنون - المركز الأساسي : مثلها في ذلك مثل مركز الدائرة بالنسبة لمركزها .

يبد أن (الباطن) لا يعنى فقط الحقيقة ، وإنما يعنى كذلك السبيل الموصلة إليها ، أعنى : الطرق التي تقود الإنسان من الشريعة إلى الحقيقة . وإذا رجعنا إلى الصورة الرمزية : الدائرة ومركزها ، قلنا : إن الطريقة هي لخط الذهاب من محيط الدائرة إلى المركز ، وكل نقطة على محيط الدائرة هي مبدأ الخط . وهذه الخطوط التي لا تحصى ، تنتهى - كلها - إلى المركز . إنها « الطرق » وهي طرق تختلف تبعاً لاختلاف الطباع البشرية . ولهذا يقال : « الطرق إلى الله كثفوس بنى آدم » .

ومها اختلفت فالهدف واحد : لأنه لا يوجد إلا مركز واحد ، والاحقيقة واحدة . على أن هذه الاختلافات الموجودة في المبدأ ، تزول شيئاً فشيئاً مع زول الإنية ، وذلك حينما يصل السالك إلى درجات عليا ، تزول فيها صفات لعيد ، التي ليست إلا سجناً : « الفناء » فلا تبقى إلا الصفات الربانية ، وقد تحققت « الذات » بها : « البقاء » .

٣٧- الشريعة أمر بالتزام العمودية ، والحقيقة مشاهدة الربوبية ، فكل شريعة غير مؤيدة بالحقيقة غير حرة ، وكل حقيقة غير مقيدة بالشريعة غير محسول ، فالشريعة جاءت بتكليف الخلق ، والحقيقة إنباء عن كبرياء الحق ، فالشريعة أن عبادة ، والحقيقة أن شهادة ، والشريعة قيام بما أمر ، والحقيقة شهادة - صبر وقدر وأسس وأظهر سميت الأستاذ أبا علي الدقاق رحمه الله يقول : قوله إياك بعد حفظ ترجمته ، وإياك تعني إقرار بالحقيقة . واعلم أن الشريعة حقيقة من حيث إنها وجبت بأمره ، والحقيقة حقيقة من حيث إن المنطوق به سبحانه أيضاً وجبت بأمره .

« عن الرسالة الشريعة »

والطريقة والحقيقة مجتمعتان يطلق عليهما : التصوف ، وهو ليس مذهباً خاصاً : لأنه الحقيقة المطلقة ، وليست الطرق مدارس مختلفة : لأنها طرق ، أى : سبل موصلة جميعها إلى الحقيقة المطلقة : « التوحيد واحد » . ويجب أن يلاحظ أنه لا يمكن لأحد أن يطلق على نفسه أنه صوفي ، اللهم إلا إذا كان ذلك منه جهلاً محضاً ، لأنه بذلك يبرهن على أنه حقيقة ليس بصوفي : وذلك أن هذه الصفة « سر » بين الصوفي الحقيقي وبين ربه ويمكن أن يقول الإنسان عن نفسه : انه متصوف : وهو عنوان يطلق على « السالك » في أى مرحلة كان . ولكن الصوفي معناه الحقيقي ، لا يطلق إلا على من بلغ الدرجة العليا .

أما أصل هذه الكلمة : صوفي^(٣٨) ، فقد اختلف فيه اختلافًا كبيراً ، ووضعت فروض متعددة ، وليس بعضها بأولى من بعض ، وكلها غير مقبولة ، إنها في الحقيقة تسمية « رمزية » وإذا أردنا تفسيرها . ينبغي لنا أن نرجع إلى القيمة العددية لحروفها ، وإن لمن الروائع أن نلاحظ أن القيمة العددية لحروف « صوفي » تماثل القيمة العددية لحروف « الحكيم الإلهي » ، فيكون الصوفي الحقيقي هو الرجل الذي وصل إلى الحكمة الإلهية ، إنه « العارف بالله » إذ أن الله

(٣٨) هذه التسمية غلبت على هذه العائقة فيقال : رجل صوفي وللجماعة صوفية ومن يتوصل إلى ذلك يقال له متصوف وللجماعة : المتصوفة . وليس يشهد لهذا . الاسم من حيث العمدة قياس ، ولا اشتقاق ، والأظهر فيه أنه كاللقب ، فأما قول من قال : إنه من الصوف وتُصوف إذا لبس الصوف . كما يقال قميص إذا لبس القميص : فذلك وجه ، ولكن المقوم لم يختص بلبس الصوف . ومن قال إنهم مسويون إلى صفة مسجد رسول الله ﷺ ، فالنسبة إلى الصفة لا تجيء على نحو الصوف . ومن قال إنه من الصفاء فاشتقاق الصوف من الصفاء بعد أن مقتضى اللغة . وقول من قال إنه مشتق من الصفاء ، فكأنهم في الصفاء الأول يقولون ، من حيث الغاشرة من الله تعالى ، فالصافي صحيح ، ولكن كلمة لا تقتضى هذه النسبة إلى الصفاء ، ثم إن هذه العائقة أشهر من يحتاج في تمييزه إلى قياس لفظ ، واستحقاق اشتقاق .

« عن رسالة القشيرية »

بعض الطرق فيما بعد (استعارت) أو بتعبير أصح (تبنت) بعض التفاصيل في الطريق وإن كان التشابه به هنا أيضاً يمكن أن يعمى إلى الخائل في المعارف ، وعلى الخصوص فيما يتعلق (بعلم المقاطع ، والأوران في مختلف فروعها) فإن أهمية ذلك لاتعدو أن تكون أهمية ثانوية ، لأنفس الجوهر من قرب أو من بعد وإلحق أن التصوف عرفي إسلامي كما أن القرآن - الذي يستمد التصوف أصوله منه مباشرة عرفي إسلامي . وإذا كان التصوف يستمد أصوله من القرآن ، فمن الطبيعي ألا يوجد قبل أن يفهم القرآن ويفسر ويتدبر وتدبراً تفجر عنه يتابع (الخفاتي) التي هي في الواقع معناه العميق . ولقد فسر القرآن أولاً لغوياً ، ومنطقياً ، وكلامياً ، ولكن تفسيره صوفياً اقتضى مرور زمن لتأمله في عمق وشمول . وإذا كان القرآن مصدر الشريعة والحقيقة معاً فلا يوجد بينها تناقض أو اختلاف ما . وكيف يوجد الاختلاف ومصدرهما واحد ؟ وكيف يوجد الاختلاف والحقيقة لاتقوم إلا على الشريعة في أساسها وفي سندها ؟

التصوف الإسلامي والتصوف المسيحي المزعوم :

على أنه يجب ملاحظة أن التصوف الإسلامي - خلافاً للمكرة الشائعة حالياً عند الغربيين - لا يمت بأية صلة إلى ما يزعمون أنه تصوف مسيحي : أعني ذلك النوع الذي يطلق عليه : « الميستيسيم » . أما أسباب ذلك فإنها سهلة الفهم وقد تضمنها ما سبق من حديثنا وهي .

١ - يبدو واضحاً أن للميستيسيم شيء خاص بالمسيحية . وإنه لتشبيه قائم على صلال ، ذلك الذي يستندون إليه في ادعاء وجود ما يماثل الميستيسيم في الأوساط التي لاتعتنق المسيحية .

ولاشك في أن هذا الفهم الخاطئ يرتكز على شيء من التشابه الخارجي الذي يتمثل في استعمال بعض التعبيرات . ولكن هنا لا يتوخى قط دعوى

التشابه ، وذلك لأن الفروق الجوهرية تفجأ للنظر ولاندع مجالاً للميستيسيم خاص بالمسيحية إذن .

٢ - ثم إنه جزء من الشريعة ، إنه من قسم الظاهر ، وهدفه بعيد كل البعد عن أن يكون المعرفة المحضة بينما التصوف على خلاف ذلك .

٣ - ثم إن المسيحي الذي اتخذ الميستيسيم سبيلاً في الحياة ينهج في سلوكه منهجاً سليماً . إنه يقتصر على تلقي ما يأتيه دون أن يكون له أثر شخصي ، إنه لا طريقة له إذن يسلكها ، هادفاً من وراء سلوكه إلى بلوغ غاية معينة .

ومن أجل هذا لم يكن في المسيحية طرق صوفية . ولذلك لا يتخذ المسيحي (شيخاً) وليس عنده فكرة عن السلسلة أو الإسناد ، الذي بواسطته يصل إليه التأثير الروحي ، الذي لا بد منه في التصوف .

٤ - والاختلاف في الهدف أيضاً واضح . فهدف التصوف المعرفة وهدف الميستيسيم الحب ، والنتيجة الحتمية من كل ما سبق هي أن التصوف والميستيسيم مختلفان كل الاختلاف :

بل إن اللغة العربية لا تشتمل على أية كلمة تترجم - ولو تقريباً - كلمة ميستيسيم : ذلك أن الفكرة التي تعبر عنها هذه الكلمة عربية كل الغرابة عن السنة الإسلامية .

علوم التصوف

إن التصوف في جوهره معرفة في محيط ما وراء الطبيعة ، على أن التصوف وإن كان « معرفة » عليا ، فإن بعض العلوم يتصل به اتصالاً وثيقاً ، بل إنها ليست إلا تطبيقاً لبعض جوانبه ، وهذا مما يميزه أيضاً عن الميستيسيم : من هذه العلوم علم الفلك القديم ، وهو ليس « تنجيماً » كما يعتقد الباحثون الحديثون ، وإنما يتعلق بمعرفة أسمى وأعمق . وكذلك الأمر في الكيمياء

١٠٣٠ إنما ليست استخراج الذهب الحقيقي ، وإنما كانت رمزاً لمعرفة لاصلة
 ١٠٣١ المادة ، وليس لها بالكيمياء الحديثة أى ارتباط ، أو تشابه . إن الباحثين
 ١٠٣٢ لا يعرفون عن المعنى الحقيقي لذنين العلمين شيئاً ، على أن هناك علوماً
 ١٠٣٣ لا يعرف عنها متفلسفة العصر الحديث إلا اسمها ، مع أنها كانت من
 ١٠٣٤ حيث تبلغ درجة العلوم الرياضية .

١٠٣٥ شرط التصوف :

١٠٣٦ الأ. في التصوف من شرط جوهرى هو : التأثير الروحى ، أو تعبير أدق
 ١٠٣٧ ، وهى لا تتأق إلا بواسطة « شيخ » (١١) ، ومن هنا كانت السلسلة .
 ١٠٣٨ ستة إلا بركات ، تنتقل من شيخ إلى مرید ، يوشك أن يصحح شيخاً ،
 ١٠٣٩ في مرید أو مریدين ؟

١٠٤٠ هذه الكلمة بملاحظة جوهرية ، تتعلق بطبيعة التصوف وهى : أن

١٠٤١ يجب على المرید أن يتأدب بشيخ ، فإن لم يكن له أستاذ ، لا يصلح أبداً هذا « أبو مرید »
 ١٠٤٢ . لكن له أستاذ فإمامه الشيطان وصمت الأستاذ « أبا على اللطاف » يقول السجدة إدا ست
 ١٠٤٣ « أبو مرید » لها نورى لكن لا تنعم ، كذلك المرید إذا لم يكن له أستاذ بأحد من طريفته ،
 ١٠٤٤ هو عبثه هواه لا يجد نفعاً .

١٠٤٥ « الرسالة القشيرية ص ١٩٩ »
 ١٠٤٦ « لإمامه » نراوى في الشيخ أن يكون مخلصاً صادقاً ، قد اتبع الصراط المستقيم ، وأن يكون
 ١٠٤٧ « مستك » ، فلا أن الوصول نارة بالجلبة على ما قال عليه السلام « جلبة من جنات الحق ،
 ١٠٤٨ لشمس ، وأشرفى بالسفوك . والأول لا يصح أن يقتضى به ، لأنه مثل من وجد كثيراً نصار
 ١٠٤٩ « كـ » قال ، لكنه غير عالم بكيفية اكتساب المال ، فلا يتضح به التلمية الطالب لتعلم
 ١٠٥٠ « . » وأنه التالى فهو الذى يصلح لتربية المرید ، لأن من سلك الطريق ، وعرف مراحلها ،
 ١٠٥١ « . » من نتائجها ومراحلها ، أمكنه إرشاد الغير إلى سواه السبيل ، والإبحار من كيفية تلك
 ١٠٥٢ « . »

(شرح الإنارات ١١٢)

١٠٥٣ التصوف ليس عملاً علمياً ، ولا بحثاً نظرياً ، إنه لا يتعلم « أسطة الكتب » (١٢)
 ١٠٥٤ على الطريقة المدرسية ، بل إن ما كتبه كبار مشايخ الصوفية أنفسهم لا يستخدم
 ١٠٥٥ إلا كحافز مقو للتأمل ، والإنسان لا يصير بمجرد قراءته ، متصوفاً ، على أن
 ١٠٥٦ ما كتبه كبار الصوفية لا يفهمه إلا من كان أهلاً لفهمه ، ولأجل أن يسير الإنسان
 ١٠٥٧ في طريق التصوف لا بد له من :

(١٢) من كلام الإمام « النراوى » في المقصد من الضلال :

١٠٥٨ « ثم إنى فرغت من هذه العلوم ، أقبلت ببسنى على طريق الصوفية ، وعلمت أن طريقتهم إنما تم بطم
 ١٠٥٩ وعمل . »

١٠٦٠ وكان حاصل عملهم قطعهم عن حببات النفس ، والتتره عن أملاكها الملمومة وصفاتها الخبيثة ، حتى
 ١٠٦١ يتوصل بها إلى تخلية القلب عن غير الله تعالى ، وتخليته بذكر الله .

١٠٦٢ وكان العلم أسير على من العمل ، فابتدأت بتحصيل علمهم ، من معاملة كتيم مثل : « قوت
 ١٠٦٣ القلوب » ، « لآبى طالب للمكى - رحمه الله - » وكتب « الحارث المحاسنى ، والمفرقات المأثورة من
 ١٠٦٤ « الجيد » ، « والشبل » ، « و « أبى يزيد البسطامى » ، « قدس الله أرواحهم » ، وغير ذلك من كلام مشايخهم ،
 ١٠٦٥ حتى اطلمت على كنه : مقاصدهم العسية ، وحصلت ما يمكن أن يحصل من طرفهم ، بالتعلم
 ١٠٦٦ والسماع

١٠٦٧ فظهر لى أن أعرض خواصهم ، فإلا يمكن الوصول إليه بالسمع ، بل بالنور والحال ، وتبدل
 ١٠٦٨ الصعدت

١٠٦٩ وكم من الفرق بين أن يعلم حد الصحة . وحد الشج ، وأسبابها وشروطها ، وبين أن يكون صحيحاً
 ١٠٧٠ وشجاعاً ، وبين أن يعرف حد السكر ، وأنه عبارة عن حالة تحصل من استيلاء أنثرة تتصاعد من المعدة
 ١٠٧١ على الفكر ، وبين أن يكون سكران .

١٠٧٢ بل السكران لا يعرف حد السكر ، وعلمه وهو سكران ، وماعه من علمه شيء
 ١٠٧٣ والصاحى يعرف حد السكر ، وأركانته ، وماعه من السكر شيء .

١٠٧٤ والطبيب في حالة المرض يعرف حد للصحة ، وأسبابها ، وأدويتها ، وهو فاقده للصحة
 ١٠٧٥ كذلك فرق بين أن تعرف حقيقة الزهد وشروطها ، وأسبابها ، وبين أن يكون حالك الزهد . و« حروف
 ١٠٧٦ النفس عن الله » ، صمدت يفتياً أنهم أرباب الأحوال ، لا أصحاب الأحوال ؛ وأن ما يمكن تحصيله
 ١٠٧٧ بطرق العلم فقد حصلته ، ولم يبق إلا مالا سبيل إليه بالسماع والتعلم ، بل بالنور والسلوك
 ١٠٧٨ (المقصد من الضلال)

١ - استناد فطري خاص (٤٣) ، لا يفتى عنه اجتهاد أو كسب .

٢ - الانتساب إلى «سلسلة» صحيحة ، إذ أن «البركة» التي تحصل من الانتساب إلى السلسلة الصحيحة هي الشرط الأساسي الذي لا يصل الإنسان بدونها إلى أي درجة من درجات التصوف حتى البدائية منها .

٣ - ثم يأخذ المتصوف ، الطيب الفطرة ، الذي باركه شيخه . في الجهاد الأكبر : التأمل الروحي ، وفي الذكر : أي استحضار الله في كل ما يأتي وما يدع ، وفي تركيز الدهن في الملاء الأعلى ، فيصل موقفاً من درجة إلى درجة ، حتى يصل إلى أعلى الدرجات ، وهي حالة تسمو على حدود الوجود الموقت ، فيصبح رباتياً . ذلك هو الصوفي الحقيقي .

مقامات الوصول :

وحينما يقطع الإنسان الطريق ، يصل إلى الولاية .

والولي : إما أن يمكث ولياً فقط ، فتكون معرفته خاصة ، أو يختاره الله لتأدية رسالة إلى الآخرين ، فيكون نبياً ، أو يكون رسولاً .

والرسول نبي ولكن رسالته تأخذ صبغة عالمية . أما رسالة النبي فإنها محددة الأهداف محدودة المكان . إن الرسول مظهر الصفة الإلهية «الرحمن» في جميع أنحاء العالمين . إنه «رحمة للعالمين» فلا تقتصر رسالته على دائرة خاصة .

ولا شك أن النبوة أسمى من الولاية ، ومع ذلك فقد رأى بعضهم أن مقام الولي «القرب» من الله بينا النبي متجه ، بطبيعة رسالته إلى الخلق ، ولكن

(٤٣) يرى الإمام «الرازي» أنه لا بد - لتكون الرياضة نافعة - أن تكون نفس المراد : مستعدة لهذا الحديث . ملاحظة له : إذ لو لم يكن كذلك ، ما نجحت فيه الرياضة أصلاً : لأن تغير الرياضة ليس إلا في إزالة العوائق ، وروح الحب والامتنان . وروال العائق ، لا يمكن في حصول المطلوب ، بل لا بد مما من القابل المستعد ، فإذا لم تكن النفس مستعدة لم تعد الرياضة مطبوعة أصلاً ، لكنها تزيد السلامة . (شرح الإشارات ١١٢)

ذلك خطأ محض ، فإن النبوة تتضمن الولاية فهي متصمة لمقام القرب ، ثم إنها أكثر من الولاية ، وعلى ذلك فإن حالة الولي «ناقصة» بالنسبة لحالة النبي ، إنها ليست قاصرة بالنسبة لطبيعتها الخاصة ، ولكنها قاصرة بالنسبة لدرجتها في العموم . وهذا العموم يصل إلى درجات ازدهاره في الرسالة : إذ هي عالمية ، والرسول لا غيره - هو حقيقة «الإنسان العالِم» .

والرسول - كما للنبي - اتجاهان :

١ - اتجاه داخلي : إنه الاتجاه نحو الحق .

٢ - اتجاه خارجي : إنه الاتجاه نحو الخلق .

ودرجة الرسول العالِم أسمى من درجة النبي المحددة ، ودرجة النبي المحدودة ، أسمى من درجة الولي الخاصة ، ومقام الجميع القرب .

التصوف والدين الإسلامي

التصوف صلة بالدين؟

الواقع : أنه لا يوجد صوفي لا يؤمن بالله واليوم الآخر ، ذلك لأن التصوف لا يخلو من الغاية ، وغايته دائماً روحية : رضاء الملائ الأعلى ، حب الله ، الاتصال به ، العناء فيه ليصبح عارفاً به سبحانه ، تلك هي الأغراض التي يسعى إليها ، أو إلى بعضها الصوفي لذلك لا يتأق لشخص ليس بمؤمن أن يسمى إليها ، ذلك أن الإيمان بالله يستلزم الإيمان بكامله ، والسعي وراء هذا الكمال . وهي إذن : مجاهدة ضد النفس والأهواء والشهوات ، حتى يصل الإنسان إلى الغايات التي وضعتها سابقاً ، وهذه الغايات تقوده نحو الكمال ، أو نحو المثل العليا . ولكن التخلق بأخلاق الله ، لا يتأق إلا عن طريق الوحي المعصوم ، فلا بد إذن من اتباع تعاليم الرسول اتباعاً سليماً . وبالتالي فإنه لا يتأق أن يوجد تصوف قط ما لم يكن اتباع كامل لشريعة صادقة ، وإن التصوف الإسلامي لم يوجد إلا باقتداء الصوفية اقتداء تاماً برسول الله ﷺ . لقد أحبوه واتبعوه وحققوا بذلك قول الله تعالى :

﴿ لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً ﴾ .

ويمكننا أن نقول في صراحة أكثر : إنه لا يوجد الآن تصوف إلا في المحيط الإسلامي ، وذلك أنه لا يوجد الآن نص مقدس لم يدخله التحريف إلا في النصوص الإسلامية ، إن القرآن كلام الله وهو الآن كما كان أيام رسول الله

ﷺ ، وقد سرت ذلك بعض الغربيين الذين استنارت بصائرهم فاعتنقوا الإسلام ، مستمسكين بوجه سائرين على نسق رسوله ، مستجيبين إلى أوامره مجتنبين نواهيهم ، وساروا في الطريق فوصلوا إلى روضات القرب من الله سبحانه ، وكل من لم ينطلق من الشريعة الصادقة والاتباع الدقيق يابه لا يصل إلى شيء من درجات الصوفية . إن الصوفية لا تأتي إلا بالافتداء ، والقذوة المعروف الآن سيرتها في صدق ويقين هو رسول الإسلام محمد ﷺ ، إبه الأسرة الوحيدة الآن لكل من يحب القرب من الله في صدق

لقد تناقش الناس كثيراً في كون محمد ﷺ هو القذوة ، لصوفية الإسلام ، بل سخر بعضهم حينئذ كانوا يسمعون أن محمداً ﷺ ، أول صورة حملت الصوفية على اقتضاء آثارها .

والواقع : أن التصوف لا يبدو أن يكون جهاداً عتياً ضد الرعيات ، ليصل لإنسان إلى السمو ، أو إلى الكمال الروحي : ليكون عارفاً بالله .

وليس من عناصر فكرة الاتحاد أو الوحدة أو الحلول : بل إن فكرة الاتحاد ووحدة والحلول يتبرأ منها الصوفية ، وهم يمدون عنها كل البعد ، على الرغم مما يقذف به أعداؤهم . وماتهم اتهامات إلا اتهامات أعداء .

هذا هو ، الخناسي ، الذي لا يشك في أنه : من زعماء الصوفية ، ليست عده فكرة الاتحاد ، أو الحلول أو ماشا كل ذلك من حالات السكر التي بشر بها بعض الصوفية حينئذ تسيطر عليهم فكرة الله ، فتأخذ بنفوسهم وحواسهم ، وتأخذ بكل ما فيهم من تفكير ، فيرون ، في النهاية ، أنه :

﴿ أينا تولوا فم وجه الله ﴾ .

وإن الله معكم .

وإذا كان - الاتحاد ، والحلول ، ووحدة الوجود - ليس من عناصر التصوف وأن عنصره الأساسي - كما يتضح ذلك من تاريخ الصوفية : الخناسي ، أو الغرالي ، أو رابعة العنوية ، أو كثير غيرهم - : ليس إلا جهاد لرضاء الله وتركية النفس حتى تعرف الله به . . . إذا كان الأمر كذلك فإننا نعتقد - ولما في ذلك الرأي من المجددين أن محمداً ﷺ ، كان أول قذوة لصوفية الإسلام .

بق الحديث عن القرآن ، وقد كثرت الكلام فيه أيضاً ومحط التراجع هو اد القرآن ، كتاب دنيا وآخرة ، يدعو إلى هذه وتلك ، ويقول ، في صراحة وإيجاز : ﴿ ولاتنس نصيبك من الدنيا ﴾ .

أما التصوف ، فهو : توكل وزهد ، وليس له من هذه الحياة الدب قليل ولا كثير .

والحقيقة : أن كلا من هذين الرأيين يحتاج إلى تحديد ، فالقرآن ليس كتاب دين ودنيا على الإطلاق : إنه لا يسوى بين الدنيا والآخرة ، والصوف : ليس رجل آخرة فقط ، لأنه يصارع في الحياة صاعداً بها نحو الكمال .

أجل : إن القرآن يدعو إلى ألا تنسى نصيبنا من الدنيا وإلى أن نكون أقوياء ، وإلى أن السن بالسن ، واليمين باليمين ، والأنف بالأنف ، والجروح قصاص ، وإلى أن الجهاد واجب على كل مسلم ، وأسس القرآن تشريعاً لكثير من المشاكل الدنيوية .

كل هذا صحيح .

ولكننا لو نظرنا بتأمل ، لوجدنا أن الحياة الآخرة - في نظر القرآن - حبر

وأبى ، وأن أكرمكم عند الله أتقاكم .

وأن الحياة الدنيا لعب ، ولهو ، وزينة وتفاخر ، وأنها لا تساوي عند الله جناح بعوضة .

ثم هو بعد ذلك يذكر أن عباد الرحمن : هم ﴿ الذين يمشون على الأرض هوناً ، وإذا خاطبهم الجاهلون ، قالوا سلاماً ، والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً ﴾ إلى آخر ما في القرآن من آيات ، ترشد إلى أن الحياة في هذا العالم هي - حقاً هي الحياة « الدنيا » وأن الآخرة خير وأبقى .

والجهاد يدعو إليه الإسلام من أجل الآخرة وهو جهاد في سبيل الله وقد رفع الصوفية رايته خماقة في كل العصور .

أما أن الصوفي : رجل آخرة فقط فهذا أيضاً فيه كثير من الوهم ، وأعلى الأغل عدم التحديد ، فهذا الصوفي يتزوج ، ويدعو هو الآخر ، إلى أن اليد العليا خير من السفلى ، وأن المؤمن القوى ، خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، وأن العيش من كسب حلال طيب : خير من أن يتكفف الإنسان الناس : أعطوه ، أو منعوه ، ولكنه مع ذلك يتمذهب بمذهب القرآن : ﴿ وللآخرة خير لك من الأولى ﴾ .

فمعنى إثاره للآخرة إذن ، إنما : هو أن يريد بكل عمل من أعماله وجه الله تعالى .

وما من شك في أن القرآن الكريم ، والرسول ﷺ ، يطوبان جميع المسائل ويضعانها تحت لواء الله سبحانه ، إنها يصيغان كل عمل من أعمال الإنسان بصحة الله : يريدان أن يكون كل عمل إنما يراد به وجه الله سبحانه ، تكون الأعمال بهذا عبادة ، وتكون الدنيا ديناً ، ويكون الإنسان إلهياً يخلق بأخلاق الله .

التصوف والتحلل من الشريعة الإسلامية

في كل ميدان من الميادين نجد الأدعياء ، نجدهم في الميدان الديني ، وفي الميدان السياسي ، وفي الميدان العلمي ، ونجدهم كذلك في ميدان التصوف . وهدف هؤلاء الأدعياء معروف : إنه الاستفادة المادية من أقصر الطرق . وكما لا يضر الدين ، ولا يضر العلم ، أن يتسبب إليه الأدعياء المريفون : فكذلك الأمر فيما يتعلق بالتصوف .

وكما أن للدين وللعلم حقائق معروفة ، وسمات معينة ، وحدوداً من شأنها أن تظهر زيف المزيفين وباطل المبطلين ، فكذلك الأمر في الجانب الصوفي . نقول هذا بمناسبة ما سمعناه حديثاً عن بدعة ضالة ، أخذت تتسرب إلى بعض النفوس التي لم تتعمق في الجانب الديني عموماً ، ولا في الجانب الصوفي خصوصاً .

هذه البدعة ترى : أن الشخص الذي وصل إلى مرتبة معينة من المعرفة تسقط عنه التكاليف الشرعية ، فليس عليه صلاة ولا زكاة ولا حج . . . ولا غير ذلك مما يلتزمه المسلمون .

ومن المؤسف أن تكون هذه الفكرة قد نشأت أول ما نشأت - في العصر الحاضر - بين رجال درسوا القانون والتشريع : يزعمون أنهم وصلوا إلى درجة من المعرفة الصوفية العليا ، وإلى حد لا تجب عليهم فيه التكاليف الشرعية . وإذا بحثت عن مصدر هذه المعرفة التي وصلتم ، فسرى صعباً صعباً ؛

ستعلم أن مصدر هذه المعرفة إنما هو الأرواح التي يستحضرونها فنلس - فيما يزعمون - جسم الوسيط وتتفحصه ، وتكشف لهم عن الغيب من أزله إلى أمله ومن بدايته إلى نهايته . ومن مشرقه إلى مغربه !

وقد انتشرت بدعة تحضير الأرواح في وسطهم ، يتحدثون عنها مصيحين وعميين ، حتى لقد أصبحت دينهم الذي لا يدبثون بغيره ، ولا يتلقون الوحي عن سواه ، وأصبحت كلمة الأرواح عندهم ، تحمل عمل القرآن الكريم والسنة لطهرة .

ومن الغريب أنهم يدعون اتسابهم إلى التصوف ، ويزعمون أنهم من كبار الصوفية ، ومن أساطين العارفين ، ومن عباقرة المهتمين .

وقد بلغ الأمر بأحدهم أن زعم ، في فترة من الفترات ، أنه من كبار الأولياء ثم لم يكفه ذلك ، فزعم أنه رسول ملهم ، ثم تجاوز ذلك إلى أنه عيسى عليه السلام ، ثم كان فيما بعد محمداً ، ﷺ ، ثم تخلص من البشرية جملة ، زعم لأحصائه أن الأنووية حلت فيه ، والأرواح التي يستحضرها تؤيده في كل ما يزعم ولا ترى هذه الأرواح ، كما لا يرى هو ، في ذلك شذوذاً ولا تناقضاً ، وصدق الله تعالى ، إذ يقول فيه وفي أمثاله ممن يتصلون بالجن ، وينحرفون عن سواء السبيل .

﴿ وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادهم رهقاً ﴾ .

ولعلك تتساءل : هل بين تحضير الأرواح والتصوف من صلة ؟

وجواب رجال التصوف في ذلك حاسم قاطع :

ليس هناك من صلة بين تحضير الأرواح والتصوف ، اللهم إلا إذا كانت

هناك صلة بين المتناقضات .

إن رجال التصوف يعتبرون تحضير الأرواح عملة رائقة ، لأنها تعامل مع الجن والشياطين ! ! ويتذكرون في هذه المناسبات قول الله تعالى :

﴿ هل أبيحكم على من تنزل الشياطين ؟ تنزل على كل أفاك أثيم ، يلقون السمع وأكثرهم كاذبون ﴾ .

وقوله تعالى :

﴿ ومن يحش عن ذكر الرحمن تقيض له شيطاناً فهو له قرين . وإنيهم يصدونهم عن السبيل ومحسبون أنهم مهتدون ﴾ .

وليس من غرضنا هنا أن نتحدث عن تحضير الأرواح ، كظاهرة حداثة وليس من غرضنا أن نتحدث عن التهريج والزيف ، والضلال والاعراف الذي يسود الأوساط التي تعمل على ترويضه ، وليس من هنا ، أن نبين نشأتها التاريخية في العرب بين الأوساط اليهودية التي روجت لها ، وأنفقت في سبيل نشرها الأموال الطائلة : لأغراض وأهداف يعرفها المحيطون بسرا انتشار هذه «العملة» : « تحضير الأرواح » .

إن غرضنا الآن : إنما هو بيان موقف الصوفية من مسألة : « إسقاط التكاليف الشرعية » ، وهي مسألة لم يتدعها من يزعمون التصوف في العصر الحديث ، وليس لهم حتى فضل السبق في الباطل ، إن كان السبق في الحق له فصل

إنها ضلالة قديمة نشأت في أوساط متحللة انسبت إلى التصوف تناسلاً باطلاً ، وحاربها ممثلو التصوف في كل عصر وفي كل بيئة

ومما لا شك فيه أن القول الفصل في كل مشكلة من المشكلات إنما يرجع به إلى الذين يمثلون الموضوع الذي تنسب إليه المشكلة وإذا رجعنا إلى عماء قضية التصوف المنقد من

التصوف الذين لا يختلف في رعاتهم انان مجدهم - سواء في ذلك القديما
منهم والمحدثون مجدهم يتكروون الفكرة إنكاراً تاماً ، ويريونها زيفاً وضلالاً
وانسلاًخاً عن الدين بالكلية .

وستحدث عن آراء بعض القديما في هذا الموضوع ، ثم تفصل ، نوعاً
ما ، رأى الشيخ عبد الواحد يحيى ، وهو زعيم علم من رعات الصوفية في العصر
الحديث .

قال أبو يزيد البسطامي لأحد جلسائه :

« قم بنا ننظر إلى هذا الرجل الذي قد شهر نفسه بالولاية - وكان رجلاً
مشهوراً بالزهد - ففضينا إليه ، فلما خرج من بيته ودخل للمسجد ، رمى بصفاته
فجاء القبلة ، فاتصرف أبو يزيد ولم يسلم عليه ، وقال : « هذا خير مأمون على
أدب من آداب رسول الله ، ﷺ ، فكيف يكون مأموراً على ما بدعيه ١٩ ،
ومن كلام أبي يزيد .

« لو نظرتم إلى رجل أعطى من الكرامات ، حتى يرق في الهواء لا تفترقوا
به ، حتى تنظروا كيف تجردونه عند الأمر والنهي ، وحفظ الحدود وأداء
الشريعة ؟ » .

ويقول سهل التستري معبراً عن أصول التصوف : « أصول طريقنا سبعة :
التسك بالكتاب ، والاعتداء بالسنة ، وأكل الحلال ، وكف الأذى وتحب
للمعاصي ، ولزوم التوبة ، وأداء الحقوق » .

ويقول الجنيد - سيد هذه الطائفة وإمامهم على حد تعبير النشيري .
« من لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث ، لا يقتدى به في هذا الأمر ، لأن
علمنا هذا مقيد بأصول الكتاب والسنة » .

وقال :

« علمنا هذا مشيد بحديث رسول الله ﷺ » .

وقال :

« الطرق كلها مسدودة على الخلق ، إلا على من اتقى أثر الرسول عليه .
الصلاة والسلام ، واتبع سنته ولزم طريقته » .

وذكر رجل المرقعة أمام الجنيد وقال :

« أهل المرقعة بالله يصلون إلى ترك الحركات من باب البر والتقرب إلى الله عز
وجل » .

فقال الجنيد :

« إن هذا قول قوم تكلموا بإسقاط الأعمال ، وهو عندى عظيم ، والذي
يسرق ويرزى أحسن حالا من الذي يقول هذا » .

فإذا ما وصلنا إلى الإمام القرظي ، فإننا نجد يقول ، في شيء من التفصيل ،
فيه دقة ، وفيه استدلال غاية في القوة .

« واعلم أن سالك سبيل الله تعالى قليل ، والملاحق فيه كثير ، ونحن نعرفك
علامة له :

وذلك أن تكون جميع أعماله الاختيارية موزونة بميزان الشرع ، موقوفة على
نوقيثاته إيراداً وإصداراً ، وإقداماً وإحجاماً ، إذ لا يمكن سلوك هذا السبيل إلا
بعد التلبس بمكارم الشريعة كلها ، ولا يصل فيه إلا من واجب على جملة من
النوافل ، فكيف يصل إليه من أهل الفرائض ؟ !

فإن قلت : فهل تنتهي رتبة السالك إلى الحد الذي ينحط عنه فيه بعض
وظائف العبادات ، ولا يضره بعض المحظورات ، كما نقل عن بعض المشايخ من

وأقول لك : اعلم أن هذا عين الغرور ، وأن المختصين قالوا :
 « ولو رأيت إنساناً يطير في الهواء ، ويمشي على الماء ، وهو يتعاطى أمراً
 يخالف الشرع ، فاعلم أنه شيطان . . . وهو الحق .
 فإذا ما انتبهنا أخيراً إلى أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه ، فإننا نجد
 يقول :

« إذا تناقض كشفك مع الكتاب والسنة فتمسك بالكتاب والسنة ، ودع
 الكشف وقل لتمسك إن الله تعالى ضمن لي العصمة في الكتاب والسنة ولم
 يضمنها في جانب الكشف ، ولا الإلهام ولا المشاهدة ، إلا بعد عرضها على
 الكتاب والسنة . »

والصوفية يتبعون في كل هذا ، النصوص القرآنية والسنة القولية والعملية
 للرسول ﷺ ، وهم يعلمون - لا شك - البدييات التاريخية من أن الرسول
 ﷺ ، كان للثل الأعلى في أداء الشعائر إلى آخر لحظة من حياته العاهرة .
 هذا رأى القدماء ، ونحن ما نختلف به إنما هو الحديث النبوي الكريم .
 « وسئل النبي ﷺ ، عن قوم تركوا العمل بالدين وأحسنوا الظن في الله
 فقال : كذبوا ، لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل . »

التصوف والتحلل من الشريعة الإسلامية

٢

« رأى المرحوم الشيخ عبد الواحد يحيى (١) »

يبدو أن كثيراً من الناس يشكون في ضرورة التزام الشريعة لمن يريد أن
 يسلك السلوك الصوفي وهذا في الواقع استعداد نفسي لا يوجد إلا في الغرب
 الحديث .

ولاشك في أن أسباب ذلك متعددة ولا يعنيها هنا البحث في مدى المسئولية
 التي تقع على عاتق رجال الدين أنفسهم ، الذين يميلون إلى إنكار كل ما يتجاوز
 حدود الشريعة في مظهرها الحرفي ، فليس ذلك جوهراً نحننا هنا .

يبدو أنه من المدهش أن بعض من يزعمون الانتساب إلى تصوف يقعون فيما
 وقع فيه رجال الشريعة ، وإن كان بطريقة عكسية ، حيث هم يكرهون ضرورة
 الشريعة أو يهملون العمل بها .

وقد يكون من المحتمل أن نرى أحد ممثلي الشريعة في التصوف ، وإن
 كان جهله لا يبرر إنكاره ، ولكن ليس من المحتمل وليس من لطيفي أن يجهل
 رجل التصوف ميدان الشريعة ، ولو من جانبها العملي ذلك الأكثر ، وهو :
 « التصوف » يتضمن بالضرورة الأقل ، وهو : « الشريعة » ،

على أن نظرة من يريد أن يسلك السلوك الصوفي ، إلى الشريعة ، من حيث

(١) وهو في هذه الكلمات يكتب عن تجربة وعبرة وعقوبة وعقوبة لا ريب طرفة فحسب .

عدم أهميتها ، وعلى الخصوص ، أهمية الجانب العمل منها بالنسبة له . . . هذه النظرة تنصص ، ولو نظرياً ، تقليل أهمية الجانب العمل في التصوف معه وفي هذا الخطورة كل الخطورة ، فإنه من المشكوك فيه كثيراً ، أن يترفر للشخص الذي عدده هذه الفكرة ، الاستعداد الصوف ، ومن الخير له أن يلتزم الشريعة التزاماً كلياً قبل يبدأ السلوك ، فإذا لم يمكنه التزامها فلا غير به ، بالنسبة للجانب الصوف .

إن تقليل شأن الشريعة إنما هو مظهر من مظاهر الروح التي لا تبال بما أنزل الله . وعادة تكون الروح الخاضعة لما أنزل الله هو أول خطوة في طريق السالكين .

وإنما هو سمعة من سمات الغرب الحديث على الخصوص ، ومن الطبيعي أن يقوم الجو الديني الذي يعيش فيه الغربيون عقبة في سبيل فهمهم للجانب العمل من الشريعة وممارستها له ، بيد أن مقاومتهم لهذا الجو الديني ، هو بالضبط العلاج لانحرافهم هذا ، وهو السبيل إلى عودتهم إلى النهج المستقيم ، أعني التزام الشريعة .

قلنا : إن الاتجاه النفسي الذي نتحدث عنه هنا : إنما هو سمعة من سمات الغرب الحديث ، وفي الواقع لا يمكن أن يوجد هذا الاتجاه في الشرق ، ذلك أن الروح الدينية الصحيحة لا تزال مسيطرة في بيئاته .

ثم إن الشريعة والحقيقة متصلتان اتصالاً يجعل منها مظهرين لشيء واحد ، أحدهما ، خارجي ، والآخر داخلي ، أو أحدهما ظاهر والآخر باطن .

لذلك كان ما يوجد في الغرب الآن من جماعات تدعى أنها على النهج الصوف ، وهي مع ذلك لا تتركز على أية شريعة إلهية ، مجرد خداع ، ومن

الديهي أن هذه الجماعات - ومن وجهة النظر الصوفية الصحيحة ليست على شيء .

ولشرح الأشياء بأبسط الطرق نقول :

إن الإنسان لا يشيد القصر في الهواء إنه لا يشيده على أساس ، وكل فكرة لا تتركز على أساس من السنة الصحيحة : إنما هي بناء في الهواء ، إنها بناء على غير أساس .

والبناء الذي يمكن أن يبقى على الدهر لا بد له من أساس مدعم ، وعلى الأساس يرتكز البناء كله ، حتى الأجزاء العليا منه ، والارتكاز على الأساس يستمر حتى بعد انتهاء البناء .

وعلى هذا النمط تكون النسبة بين الشريعة والتصوف ، فالشريعة الصحيحة هي الأساس الذي لا بد منه لكل سالك ، وكالأساس تماماً ، لا يمكن طرح الشريعة بعد سلوك الطريق .

بل نقول أكثر من ذلك : إنه كلما سار التصوف في طريقه واستغرق فيه ، بدت له ضرورة الشريعة ، واستنارت معرفته بها ، وأصبح فهمه لها أكثر عمقاً وأكثر دراية بحقيقتها من هؤلاء الذين درسوها وآمنوا بها ، دون أن يصبوا بهم في الميدان الصوف ، ذلك أنهم لا يرون من الشريعة إلا مظهرها الخارجي ولكن الصوف يعيش في جوها الروحي ، ويحياها ، إذا أمكن هذا التعبير .

على أن هذا الذي لا يعتنق شريعة صحيحة ولا يلتزمها ، لا يمكن أن يجبا إلا حياة دنيوية محنة ، فلا يمكن أن يطلق عليه رجل دين . فضلاً عن أن يطلق عليه وصف الصوف .

على أن العريين الذين يعملون الدين بمنزل عن نشاطهم اليومي ، كما هو

فإن الأثرية الساحقة منهم ، لا يمكن أن يوصفوا بأنهم متدينون ، وإن أموا
بجس وأدوا الشعائر الكنسية .

وإذا كان لا يقبل من رجل الدين أن يعلن تدينه دون أن يجعل للشريعة
السيطرة على قياده ، فإنه لا يقبل من باب أولى من رجل التصوف أن يزعم
انتسابه إلى الصوفية دون أن تسيطر شعائر الدين والتزاماته على حياته .

وهناك ، لاشك ، نوعان من الحياة : حياة دينية ، وحياة دنيوية ، ومع
ذلك فالفرق بينها إنما هو من جهة ما تصطبغ به فكرة الإنسان عن الأعمال التي
يؤديها .

أريد أن أقول : إن الأعمال في نفسها لا توصف بأنها دينية أو دنيوية وإنما
يتأني لها أحد الوصفين بسبب سيطرة الفكرة الدينية عند القائم بيده الأعمال
أو عدم سيطرتها ، وقد يكون العمل واحداً في نوعه ويؤديه شخصان فيوصف
عند أحدهما بأنه ديني وعند الآخر بأنه دنيوي . فإن كان القصد « الله » فالعمل
ديني وإن كل القصد شيئاً آخر فالعمل دنيوي ، والحديث الشريف يوضح هذه
العبرة كل التوضيح :

« إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله
ورسوله ، فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها ،
أو امرأة ينكحها ، فهجرته إلى ما هاجر إليه (١) » .

ومن البديهي أن الحديث في أوله عام بالنسبة لكل الأعمال ، وأن مسألة
الهجرة فيه : تطبيق جزئي لقضية عامة .

وفي العصور القديمة لم يكن هناك تفرقة بين دين ودنيا ، بل لم يكن هناك

(٢) رواه البخاري في صحيحه .

بمجرد الفهم أو مجرد التخيل لفكرة الانعصال هذه ، وإنما نشأت هذه الفكرة
حينما تدهورت الإنسانية وانحطت شيئاً فشيئاً ، وهالحن أولاء قد وصلنا في هذا
التأخر إلى أن الغرب حالياً يصعب عليه كل الصعوبة أن يفهم فكرة « ضرورة
سيادة الروح الدينية في مجتمعاته ، إنه على سبغ انفصلي لا يوجد في الحياة
السليمة . »

وإننا نرى ضرورة التزام الشريعة لكل إنسان ، ولكننا تؤكد - ونحن على
يقين من الأمر - لهؤلاء الذين يريدون أن يسلكوا الطريق الصوفي بأنهم لن
يصلوا حتى إلى أولى مراحل الطريق إذا لم يلتزموا الشريعة التزاماً تاماً وبالقه
التوفيق .

التصوف والتحليل من الشريعة الإسلامية

٣

فتوى للإمام الغزالي^(٣)

كتب له بعض الزائعين :

ما قوله ، مع الله المسلمين بيقاله ، وتمع الطالبين بمشاهدته وبقائه ، ومنحه أفضل ما منح أفضل خاصته من أصفيائه وأوليائه ، في قلب خصه الحق بأنواع من الطرف والمهدايا ، ومنحه أصنافاً من الأنوار والعطايا ، يستمر له ذلك في جميع الأوقات والأحوال ، متزايدة مع عدم العوائق والآفات .

مع كون ظاهره مأموراً ، بأحكام الشرع وأدائه ، منزهاً عن مآثم ومخالطاته ويحد في الباطن مكاشفات وأنواراً عجيبة .

ثم إنه انكشف له نوع يعرفه ، أن المقصود من التكليف الشرعية ، والرياضات الدينية : هو الفطام عما سوى الحق ، كما قيل لـ « موسى » ﷺ : « اخل قلبك : أريد أن أزل فيه » .

فإذا تم الفطام ، وحصل المقصود بالوصول إلى القرية ، ودوام الترقى من غير فترة ، حق إنه لو اشتغل بوظائف الشرع وظواهره ، انقطع عن حفظ

(٣) هذه الفتوى ذكرها تاج الدين السبكي المتوفى سنة ٧٧١ هـ في كتابه « طبقات الشافعية » وهي موجودة في كتاب « سيرة الغزالي » للأستاذ عبد الكرم الشافعي وفي المقدمة التي كتبها الأستاذ الدكتور سليمان دنيا لكتاب (فصل الصفة) ؟

الباطن ، وتشوش عليه بالالتفات عن أنواع الواردات الباطنية ، إلى مراعاة أمر الظاهر .

وهذا الرجل لا يتزل يده من التكليف الظاهر ، ولا ينصرف في أحكام الشريعة ، ولكن الاعتقاد الذي كان له في الظواهر والتكاليف ، تناقص وتناقص عما كان في الابتداء من التعظيم لوقتها عنده ، ولكنه يابرها ويواظب عليها عادة ، للأجل الخلق ، وحفظ نظرهم ومراقبة الله ، بل صارت إلفاً له ، وإن نقص اعتقاده فيها ، فهو يعظمها .

ما حكمها ؟

ثم إن عرضت له شبهة :

« أن المقصود من الداعي والدعوة ، حصول المعرفة والقرية وإذا حصل هذا استغنى عن الداعي ، والواسطة » .

كيف معالجتها ؟

« فإن قلنا : المعرفة لا تنتهي أبداً ، بل تقبل الزيادة أبداً ، فلا يستغنى عن الداعي أبداً لا عمالة .

فربما قال : الداعي قد بين ما احتجج إلى بيانه ، وشرح معالم الطريق وذهب . فلو احتاج السالك إلى مراجعته في زوائد وإيرادات ، لم تمكن المراجعة في هذه الحالة .

فيقول :

ما هو طيب علقى في هذه الحالة ، لأنه غاب عن إمكان المراجعة ، فما علاجه ؟

نم : فالجواب مسوق حسبما عود من شافي بيانه :

أحدهما : انتفاع الولد براعته ، وذلك قد أدركه الولد بعقله .

والثاني : انتفاع الحيات المهلكات براعته وذلك بما قصر عن دركه بصيرة الولد فاغتر الولد بما عنده من العلم ، وظن أنه لا سر وراء معلومه ومقولته كما قال تعالى :

﴿ ذلك مبلغهم من العلم ﴾

وقال :

﴿ فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم ﴾ .

والمنزور من اغتر بعقله فظن أن ما هو مستف عن علمه ، فهو مستف في نفسه .

ولقد عرف أهل الكمال أن قلب الأدمي : كذلك القصر ، وأنه معشوش حيات وعقارب مهلكات ، وإنما رقيتها وقيدتها بطريق خاصة : المكبريات والمشروعات .

يقوله سبحانه :

﴿ إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً ﴾ .

وقوله تعالى :

﴿ كتب عليكم الصيام ﴾ .

تكما أن الكلمات المنقوطة والمكثورة في الرقية تؤثر بالخاصة في استخراج الحيات ، بل في استسحار الجن والشياطين .

وبعض الأدعية المنقوطة المأثورة تؤثر في استئالة اللامكة إلى السمي في إسبابه الدامي ويقصر العقل عن إدراك كيميته وخاصيته ، وإنما يدرك ذلك بقوة النبوة ، إذا كوشف السر بها من اللوح المحفوظ .

الجواب : ويالله التعريف : ينبغي أن يتحقق هنا أن من ظن أن المقصود من الحكايف والتبديد بالمرافق : القطام عما سوى الله والتجرد له ، فهو مصيب في ظنه أن ذلك مقصود . وعطلي في ظنه أنه كل للمقصود ، ولا مقصود سواه . بل قد تعالى في الفرائض التي استعبد بها الخلق أسرار سوى القطام ، وتقصر

بضاعة العقل من دركها .

ومثل هذا الرجل المتفجع بهذا الظن ، مثل رجل يفي له أبوه ، قصرأ على رأس جبل ووضع فيه شجرة من حشيش طيب الرائحة . وأكد الوصية على ولده مرة بعد أخرى ، ألا يجلي هذا القصر عن هذا الحشيش طول عمره .

وقال : إياك أن تسكن هذا القصر ساعة من ليل أو نهار إلا وهذا الحشيش فيه .

فزرع الولد حول القصر أنواعاً من الرياحين ، وطلب في البر والبحر أنواعاً من العود والنبز والمسك ، وجمع في قصره جميع ذلك من شجرات كثيرة من الرياحين الطيبة الرائحة .

فانصرفت رائحة الحشيش لما فاحت هذه الروائح . فقال : لاشك أن والدي ما أوصاني بحفظ هذا الحشيش إلا لطلب ريحته ، والآن قد استعيبا يده الرياحين من رائحته ، فلا فائدة فيه الآن إلا أن يصيق على المكان ، فرماه من القصر .

فما خلا القصر من الحشيش ، ظهر من بعض قبب القصر حية عاتلة ، وضربته ضربة عاتلة أشرف بها على الهلاك فنتبه حيث لم يتفقه التنبه إلى أن حشيش كان من خاصيته دفع هذه الحية المهلكة ، وكان لأبيه بالوصية . حشيش غرضان .

فكذلك صورة الصلاة المشتملة على ركوع واحد ، وسجودين ، وعدد مخصوص ، وألفاظ معينة من القرآن ، متلوة مختلفة المقادير : عند طلوع الشمس وعند الزوال ، والغروب ، تؤثر بالخاصة في تسكين التين المستكن في قلب الآدمي الذي يتشعب منه حيات كبيرة الرموس بعدد أخلاق الآدمي ، بلدغه وينهش في القبر ، متمكناً من جوهر الروح وداته أشد إيلاماً من لدغ مكر من القالب أولاً ثم يسرى أثره إلى الروح .

وإليه الإشارة بقوله عَلَيْكُمْ .

« يسلط الله على الكافر في قبره تيناً ، له تسعة وتسعون رأساً صفته كذا وكذا ... » الحديث .

ويكثر مثل هذا التين في خلق الآدمي ، ولا يقمعه إلا الفرائض المكتوبة فهي المنجية من المهلكات ، وهي أنواع كثيرة بعدد الأخلاق المنومة .

﴿ وما يعلم جنود ربك إلا هو ﴾

• • •

فإذن في التكليف غرضان :

أدرك (هذا للفرور) أحدهما ، وغفل عن الآخر .

وقد وقع له « أي حنيفة » مثل هذا الظن في التفهيمات ، فقال :

« أوجب الله في أربعين شاة ، شاة . وقصد به إزالة الفقر ، والشاة آله في الإزالة ، فإذا حصل بمال آخر فقد حصل تمام المقصود . »

فقال « الشافعي » رضي الله عنه :

« صدقت في قولك : إن هذا مقصود ، وركب من الخطر في حكك بأنه

لا مقصود سواه ، فم تأمره : إذ يقال له يوم القيامة : كان لنا سر في إشتراك

الغير الفقير ، مع نفسه في جنس ماله ؟ كما كان من يرمى سبعة أحجار في الحج يؤدي بدلها خمس لآل ، أو خمس أكبر إذ لم يقبله .

وإذا جاز أن يتحصن التقييد في الحج ، وأن يتحصن المعقول معاملات الخلق فلم يستحل أن يجمع المعقول والتقييد حياً في الركاة ، فتكون إزالة الفقر معقولة ، والسر الآخر غير معقول .

وزاد « أبو حنيفة » على هذا فقال :

« المقصود من « كلمة التكبير » الثناء على الله بالكبرياء ، فلا فرق بينه وبين

ترجمته بكل لسان ، وبين قوله « الله أعظم » .

فقال « الشافعي » .

وم علمت : أنه لا فرق في صفات الله بين « العظمة » و « الكبرياء » مع أنه تعالى يقول :

« العظمة » إزارى و « الكبرياء » ردائي ، و « الرداء » أشرف من « الإزار »

وهلا استنبط مقصود « الخضوع » من « الركوع » وأنت مقامه السجود . . . ؟ لأنه أبلغ منه في الاستكانة .

فإن قلت : لعل لله سرا في الركوع خاصة ، سوى ما فهمناه .

فلم يستحيل أن يكون له سر في كلمة « السلام » فلا يقوم مقامه

« الحديث » وكل خطاب للآدمي ، وأن يكون له سر في القرآن المعجز ،

ولا يقوم مقامه غيره وقد أقام الترجمة مقامه ، وأن يكون له سر في الفاتحة ، وقد

أقام مقامها سائر القرآن .

فإن كان يقول : المقصود معاني القرآن ، وتأثر القلب ، لآحروفه وأصواته

فإنها آلات ، فهلا قال : المقصود من حركة اللسان تأثر القلب ، فليكيف عن

همزة المحطوب مع الله تعالى ، على هيئة الإجلال والذكر ، والسؤال بصورة
حسنة .

حجج ما ذكر « أبو حنيفة » بطلان مظهر غير مقطوع .

أهمية القراءة بالقلب ، مع ترك حركة اللسان ، وملازمة الذكر ، مع
الخشوع والسجود وصورة الصلاة ، لمقطوع بطلانها بالإجماع ، وهذا
« ذلك الخيال الضعيف إلى خرق الإجماع ومخالفة الشرع القاطع .

« كان لبعضهم في المعرفة مجرد عن الصور ، ويطرح الصور فيبقى نور
الروح . فيثور عليه التنين في قبره فيتعجب منه ، ويدب له من الله ما لم
يخطر بباله . فإذا أصابته ضربة التنين قال : ما هذا ؟ فيقال : إنما كان ترفيق
لك من صور القرائن المكتوبة ، وإليه الإشارة بما يروى :

« نزلت بوضع في قبره : فتأبى ملائكة العذاب من جهة رأسه ،
« فتقرن فتأبى من جهة رجله فيدفعها الحجج . . . الحديث .
« مر هذا المفرور على جهاته ، وقال : من بلغ رتبة الكمال ، كما بلغت
« التنين وظهر باطنه عنه ، فيقال له : إنك مفرور في أمك :
« لا ينجو لا ينجو مكر الله إلا القوم الخاسرون » .

« من أن يكون التنين مستكناً في صميم القواد ، استكناً الجمر تحت
« مستكناً النار في الرماد ، وإن مات فيعود حياً فإن منته ومنته هذا
« الذي هو عفة الشهوات والصفات البشرية ، وقلع الحشيش لا يؤمن
« حتى . . . ينجد نياته مها كانت الأرض معرضة لانصباب الماء إليها

فكذلك القلب مادام مصيباً لتواردات المحسات والشهوات ، لم يؤمن فيه
عود النبات بعد الانقطاع والانبثاق .

• • •

ونبه على هذه المعرفة بالتأمل في ثلاثة أمور :

الأول : بداية حال « إبليس » وأنه كيف وصف بأنه كان معلم الملائكة ،
ثم سقط عن درجة الكمال بمخالفة أمر واحد : اختاراً بما عنده من العلم ،
وغفلة عن أسرار الله في الاستبعاد ، ولم يسقط عن درجته إلا بكياسته ، وفطنته
وتمسكه بمقولته ، في كونه خبيراً من آدم عليه السلام .

فتنبه الخلق بهذا الرمز على أن البلاهة أدنى إلى الخلاص من فطنة براء
وكياسة ناقصة .

الثاني : حال آدم عليه السلام ، وأنه لم يخرج من الجنة إلا بركونه نياً
واحداً ليعلم أن في ركوب النهي إيصال (احتقاد) الكمال لخالفه .
الأمر الثالث : حال رسول الله ﷺ ، فإن هذا المفرور لعلة يقول : إنه لم
تسلم له رتبة الكمال .

ثم إنه ﷺ لم يزل يلازم الحدود ، ويواظب على المكوبات إلى آخر
أنفاسه ، بل يزيد في فرائضه وأوجب عليه التهجيد ، ولم يوجب على غيره ،
وقيل له .

« بأبيها المزمل ثم الليل إلا قليلاً ، نصفه أو انقص منه قليلاً »
« وإنما أوجبت عليه هذه الزيادة ، لأن الخزانة كلما ازداد جوهرها نفاسة
« وشرفاً ينبغي أن يزداد حصنها إحكاماً وعلواً ، فلدلك قيل في تحليل إيجاب
« التهجد :

أمر ونهى :

فأما المنيات : مثل الزنا ، والسرقه ، والقتل ، والضرب ، والبهيمة والكذب ، والتدف .

فترك ذلك كيف يشغل عن الكمال ؟ وكيف يحجب عن القرية ؟ والكمال كيف يكون موقوفاً على ركوب هذه القاذورات ؟

وأما الأمورات : فالزكاة والصوم والصلاة . .

فكيف تحجبه الزكاة ولو أنفق جميع ماله ، فقد دفع السوء عن نفسه ؟ ولو صام جميع دهره ، فهل ضوته بذلك إلا سلطنة الشهوة ؟ لما الذي يفوت من الكمال بترك الأكل ضحوة النهار ، في شهر واحد ، هو رمضان .

وأما الصلاة فضم إلى :

أفعال وأذكار :

وألصافها : قيام وركوع وسجود .

ولاشك في أنه لا يخرج من القرية بالأفعال المتتادة ، فإن لم يصل ، فيكون إما قائماً ، أو مضطجماً .

وغير المتتاد هو السجود والركوع ، وكيف يحجب عن القرية ، ما هو سبب القرية ؟ قال الله لنبيه ﷺ .

﴿ واسجد واقترب ﴾

ومن عشق ملكاً ذا جمال ، فإذا وضع وجهه على التراب بين يديه ، استكانة له ، وجد في قلبه مزيج روح ، وراحة ، وقرب .

ولذلك قال ﷺ :

﴿ إنا سألنا عينك قولاً ثقيلاً . إن ماشته الليل هي أشد وطأً وأقوم قبلاً ﴾
فبين له أن هذه الصلوات هي حصن الكمال فلا يبلى إلا به .

ولعل المغرور المتعوى يقول : إنه كان يواظب عليها إنشاقاً على الخلق لأجل الإحصاء ، لا لحاجته إليها في حفظ الكمال .

يقال له :

فلم زاد عليه في التهجيد وجرباً ؟

حلا قال : إن مبلغ درجة النبوة ، يستحق عما يحتاج إليه غيره ، ولو قال لتقبل منه ، كما قيل منه ، أنه أصل له تسعة من النساء ، بل ماشاء ، فإنه بقوة النبوة يقوى على العدل مع كثرة النساء ، كما قيل من المدرس أن يأمر تلامذته بالشكر والتشهد ليلاً وهو يتام .

ويقول : إني بلغت درجة استغثت بها عن ذلك .

وليس يترك أحد تكراره بهذه الشبهة .

ولعل هذا إذا اختاره ضحك الشيطان وسخرته ، وقال له أنت أكمل من النبي والصديق ، وكل من واظب على الفرائض وعدد هذا يقطع الطمع من صلاحه فهو ممن قيل فيهم :

﴿ وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذن أبداً ﴾ .

مسألة :

أما ما ذكره من أنه لو اشغل بالتكاليف لشغله ذلك عن القرية التي نالها ، والكمال الذي بلغه فهو كدب صريح ، وعمال فاحش قبيح ، لأن التكاليف قسبان .

وإن صح ما يقوله ملا ، ول كل يوم آلاف نفس ، فيصرف هذه الأنفاس المدودة إلى الذكر والسجود ، وليقتص هذه اللحظات من درجات كماله ، ليأمن بهذه المكورات عن ضرر التنين الذي لا يعتد بشر سواه ويتخلص من خطر الخطأ في هذا الاحتضاد .

ولاشك في أن الخطأ يمكن فيه ، إن لم يكن مقطوعاً به .
وإن قال : إن عزوف القلب ، إلى حفظ ترتيب الأضال ، والأدكار ، هو الذي يشغلي عن درجة القرب ، فهو دهوى محال ، لأن الهدى لا يحتاج إلى تكلف الحفظ ، بل للشهر فيه ، إذا حفظ شيئاً مرة يناسب حاله ، لم يعتبر البقن به ، مع حفظ طريقه وإخاذه ، بل يجد من نفسه في ذلك مرة ونشاطاً تكيف لا تكون قوة عين المد في مناجاة عبده ، وخدمته التي رسمها وارضاءها له .

مسألة :

معنى ارتفاع التكليف عن الولي .
بل معنى ارتفاع عن الولي أن العبادة نصير قوة عينه ، وغذاء روحه ، بحيث لا يصير عنه ، فلا يكون عليه كلفة فيه ^(١) .
وهو كالصبي يكلف حضور المكب ، ويحمل على ذلك قهراً ، فإذا اكتمل بالعلم ، صار ذلك ألد الأشياء عنده ، ولم يصبر عنه ، فلم يكن فيه كلفة .
وتكليف الجائع ليتناول الطعام اللذيذ ، محال : لأنه يأكله شهوة ويلتذ به ، فأى معنى لتكليفه ؟

(١) وفي ذلك يقول عليه السلام . (لا يؤمن أحدكم حتى يكون مره تياً لا يبت) ، ويقول . (تم البعد صوب لولم يبت الله لم يصب)

«وجعلت قوة صفي في الصلاة» .
فاستدامة حال القرية واستزادتها : في السجود ، أيسر منه في الانضطجاع والقعود :

ومها التي في قلبه أن السجود سبب حرمانه عن القرب كان ذلك أمودحاً من حال إبليس ، حيث تولى في نفسه أن السجود يحكم الأمر ، سبب زوال قوته ، وكماله .

فكل ولي سقط من درجة القرية . إلى درجة اللعة ، فسيه ترك السجود ومقتداه وإمامه إبليس .

وكل ولي أسعد بالتقرب إلى درجات القرب قليل له :
﴿واسجد واقترب﴾ .

ومقتداه وإمامه الرسول عليه السلام .
ولا ينبغي أن يتوهم الولي الخالص أنه بعيد عن خداع إبليس ، مادام في هذه الحياة ، بل لا يتجو عنه الأنبياء .

غير أنهم محفوظون كما قال تعالى :
﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أذنيه ، فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته ، والله عليم حكيم﴾
وأما أركان الصلاة فتكبير ، وثالثة وركوع وسجود ، وتشهد ، لا فرضة إلا هذا ، مما وجه الضرر في قوله :

«الله أكبر» وفي «الحمد لله» والاتجاه إليه ، واستماتته ، وطلب الهداية إلى الصراط المستقيم ، وهذا مضمون الفاتحة .
وكل ذلك مناجاة مع الله تعالى .

فإذن تكليف الولي مجال والتكليف مرتفع عن الولي بهذا المعنى ، لا يعني أنه لا يصوم ، ولا يصلي ، ويشرب ، ويرى .

وكما يستحيل تكليف العاشق البطر إلى معشوقه ، وقبيل قدمه والتواضع له ، لأن ذلك منهي شهوة ولدته . فكذلك عداة روح الولي ، في ملازمة ذكره ، واعتقال أمره والتواضع له بقلبه ، لا يمكنه إشراك القلب مع القلب في الخضوع ، إلا بصورة السجود ، فيكون ذلك كالا للذة الخضوع والتعظيم ، حتى يشترك في الالتئاذ قلبه ، وقالبه كما قيل :

ألا فاسقني خصراً وقل لي : هي الخمر
أى ليدرك سمى لذة اسمه ، كما أدرك ذوق طعمه .

بل تنهى لذة الولي من القيام لربه قائماً متاجياً ، إلى أن لا يدرك الجرد في القدم .

يقال له : ألم يفترك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟
يقول : أفلا أكون عبداً شكوراً ؟

مسألة :

أما قولك : إنه إذا تكلف المواظبة على العبادات المشروعة ، وقد تغير اعتقاده فيها ، وسقط وقعها من قلبه ، فهل ينفعه ذلك ؟ فاعلم أنه لو لم يعتقد أنه لا فرق بين وجودها وعدمها ، في حفظ درجة الكمال والقرب ، أو دفع مهلكات الباطل ، وجور أن يكون لله تعالى سرفيها ، ليس يطلع عليه هو ، فعادته صحيحة .

وإن اعتقد أنه لا فرق بين وجودها وعدمها ، وأنه لا يتصور أن يكون تحت

خاصيته سر ، هو لا يطلع عليه ، فعادته باطلة .

بل إيمان بالالهية ، والنبوة ، تحيل باطل ، فإنه إذا لم يجوز في كمال قدرة الله تعالى سراً بعينه من الأسرار ، وخاصية من الخواص في الأعمال والأدكار فليس مؤمناً بكمال القدرة ، ويرى القدرة مقصورة على قدرة عقله وهو كافر صريح .

وإن جوز ذلك ، وإن لم يكن يعتقد أنه لم يكلف به ، فهو كالمبالغة بالنبوة جاهل بما علم بالضرورة من الشريعة ، فإنه ، $\frac{ب}{ب}$ ، بلغ قوله تعالى :

﴿ إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً ﴾ .

وهم الصحابة ، وأهل الإجماع ، وجوب الصلاة على العموم من غير استثناء ، فإن شك في إيجاب الرسول ، فليتأمل القرآن والأخبار .

وإن شك في قدرة الله تعالى على نفسه في الأعمال والأدكار ، تكون الفريضة لأجله كالخصن له وجه الكمال ، وكالحراسة عليه من المهلكات الناطقة فليرجع إلى نفسه ، وليطالبها أنها عرفت استحالة ذلك بضرورة العقل ، أو نظره ، وأنه كيف يعتقد ذلك ويرى في عجائب صنع الله تعالى ما هو فرح به ؟

حتى إن هذا الشكل المشتمل كل ضلع منه على خمسة عشر عدداً من حساب الجمل ، إذا أثبت رقومه على خرف ، ولم يصبه ألم بشرط مخصوص .

ب	ط	د
ر	هـ	ح
و	أ	ح

ولو أعطى المرأة التي تعذرت عليها الولادة عند الإطلاق سهلت عليها الولادة .

وعرف ذلك بالتجربة ، وأنه يؤثر بخاصية

تفصير عقول الأولين والآخرين عن إدراك وجه مناسبه .
ويكثر مثل هذا في عجائب الخواص .

من أين يستحيل أن يكون لنظم الكلمات الإلهية في الفاتحة - مع الجمع بين أعمال جميع الملائكة من القيام ، والركوع ، والسجود ، والقعود فإن كل واحد عمل صنف من الملائكة - خاصة في النجاة الأخروية ، أو في حفظ درجة الكمال والقرب ، أو دفع المهلكات الباطنة التي تلدغ في القلب ، لدغاً ، أشد من لدغ الحيات والعقارب ، أو مؤثر في سعادة الأمتى بوجه تحرم الوجوه ، يقصر العقل عن إدراكه .

من لم يؤمن بإمكان هذا ، فهو عديم العقل والإيمان جميعاً :

مسألة :

أما قوله : المقصود المعرفة ، والاستواء على طريق السير إلى الله تعالى . فقد استوى هذا السالك على الطريق ، وعرف الله ، وكان التكليف وسيلة الوصول إلى هذا المقصود ، وقد وصل واستغنى عن الوسيلة والمرشد ، وإن احتاج فقد توفى المرشد وتعذرت مراجعته .

فهذا أيضاً يفهم جوابه مما سبق ، لأن جميع ذلك صادر عن ظنه أن ما ليس حاصلًا في علمه ، وليس حاصلًا في نفسه ، وهو كمنجز ظنت أن ما تخلو عنه حجرتها مخلو عنه خزنة الملك ومملكته ، وأنه ليس في العالم سماء إلا سقف بيتها ، ولا أرض إلا عرصة بيتها .

وهذا جهل عظيم ، فإن جميع ما وصل إليه الأولياء بالإصافة إلى مقدورات الله تعالى ، أقل من قطرة في بحر ، وإن سلم له وصوه درجة الكمال ،

ليجز أن تكون صورة الصلوات الخمس بطريق الخاصة ، سبباً للتفكير إلى درجات الكمال التي نالها ، أو يكون سبباً لبقاء الكمال ، أو دولمه ، أو يكون لرموضه حتى لا يتزلزل في سكرات الموت .

فإن لم يواظب عليها ، فعساه أن يودعه الكمال عند الموت ، ويقال : إنما كان يثبت هذا ، إذا عصفت رياح الموت بالمسلم الخمس ، التي هي للكويبات ، وكان يستحكم بها ، فلما خلا من المسامر ، ترعرع وانقطع : فقد جبت وخسرت إذا فرحت بما عندك من العلم ، وسيفل لكم يوم القيامة .
عاشر أهل الإباحة .

﴿ ما سلككم في سقر ؟ ﴾

فتقولون :

﴿ لم تك من المصلين ﴾

فعلاج هذا المغرور ، الضعيف العقل ، المريض القلب ، أن يتأمل هذه الأمور ، ويحوز الحظاً على نفسه ، والسلام .

وحدة الوجود

٢ - فريد أن نبدأ مباشرة بملاحظة تزيل - بصورة متوقفة - وحدة المناقشة في هذا الموضوع ، وذلك أننا بصدد وحدة الوجود ، ولستنا بصدد وحدة الوجود .

والموجود متعدد : سماء ، وأرض ، جبال ، وبحار ، أشجار وأناسي إلخ ، وهو مختلف صلابة وهشاشة ، لوناً ورائحة وطعماً ، متفاوت ثقلاً وخفة إلخ . ولم يقل أحد من الصوفيين الحقيقيين - ومنهم ابن عربي والحلاج - بوحدة الوجود . .

وما كان مؤمن ، ولا يتأقن مؤمن ، أن يقول بوحدة الوجود وما كان للصوفية - وهم الذروة من المؤمنين - أن يقولوا - وحاشاهم - بوحدة الوجود .

وقد تتساءل : من أين إذن أتت الفكرة للحفاطة التي يعتقدونها كثير من الناس : من أن الصوفية يقولون بوحدة الوجود ؟^١ وتفسير ذلك لا حصر فيه : إن فريقاً من الفلاسفة في الأزمنة القديمة وفي الأزمنة الحديثة يقولون بوحدة الوجود ، بمعنى أن الله - سبحانه وتعالى عن إنكهم - هو والمخلوقات شيء واحد .

قال بذلك هيراقليطس في العهد اليوناني : والله عنده نهار وليل ، صيف وشتاء ، وفرة وقلة ، جامد وسائل ، إنه - على حد تعبيره - كالنار للمطر ، نسمى باسم العطر الذي يفوح منها ، تقدس سبحانه وتزه ما يقول .

والله سبحانه وتعالى ، في رأى شل ، في العصور الحديثة ، هو هذه البسطة الجميلة على شفق طفل جميل باسم ، وهو هذه النسيم العليقة التي تمتدنا ساعة الأصيل ، وهو هذه الإشراق المتأففة بالنجم الهادي في ظلمات الليل ، وهو هذه الورود البانعة تفتح وكأنها انتسامات شعاع جميلة : إنه الجمال أبنا وجد ، أيضاً - سبحانه وتعالى - القبح أبنا كان : وكما يكون طفلاً فيه نضرة ، وفيه وسامة ، يكون جثة ميت ، ويكون دودة تتغذى من جسد ميت ، ويكون قبرا يفهم بين جدران هذه الجثة وهذا النود ، أستفرك ربي وأتوب إليك . ولوحد الوجود - بمعنى وحدة الوجود - أنصار في كل زمان .

ولما قال الصوفية « بالوجود الواحد » شرح خصومهم الوجود الواحد بالفكرة الفلسفية عن وحدة الوجود بمعنى وحدة الوجود وفرق كبير بينهما ولكن الخصومة كثيراً ما ترضى عن التزييف وعن الكذب في سبيل الوصول إلى هدم الخصم ، والغاية تبرر الوسيلة كما يقولون .

وشيء آخر في غاية الأهمية كان له أثر كبير في الخطأ في فهم فكرة الصوفية عن الوجود الواحد ، وهو أن الإمام الأشعري رضى الله عنه ، رأى في فلسفته الكلامية ، أن الوجود هو عين الموحود . ولم يوافق الصوفية على هذه الفكرة الفلسفية ، ولم يوافق الكثير من معكري الإسلام وفلاسفته على رأيه . وهو رأى فلسفي بخطئ فيه أبو الحسن الأشعري أو يصيب ، وما مثله في آرائه الفلسفية إلا مثل غيره في هذا الميدان بخطئ تارة ويصيب أخرى .

ورأى مخالفوه : أن الوجود غير الموحود ، وأنه ما به يكون وجود الموحود ، ولما قال الصوفية بالوجود الواحد ، شرح خصومهم فكرتهم في ضوء رأى الأشعري ، دون أن يراعوا مذهبهم ، ولا رأيهم ففسروا قولهم : بالوجود الواحد

على أنه قول بالموجود الواحد .

وهذا التفسير بهذه الطريقة يسحب الثقة في آراء هؤلاء المنصوم .
وأمر ثالث يجب ألا نعيده أدنى التفات ، لأنه أنه - في منطق البحث -
من أن نعيره التناقض ، وهو هذه الكلمات التي تنازرت هنا وهناك ، غير
ملففة ، مزيفة ، ضالة ، في معناها ، نافية في قيمتها الفلسفية ، غريبة على الجبر
الإسلامي ، تنادى بصورتها ومعناها : أنها اختزعت تضليلاً واختيائاً .
إنها هذه الكلمات التي يعزونها إلى الخلاج ، رضوان الله عليه ، أو إلى
غيره ، لا توجد في كتاب من كتبه ، ولم يخطها قلمه .. لقد اختزعوها اختراعاً ،
ثم وضعوها أساساً تدور عليه أحكامهم بالكفر والضلال .

ويكفي أن يثبت بها إنسان ليكون في منطق البحث غير أهل للثقة .
٢ - الوجود الواحد : وهل في الوجود الواحد من شك ؟ إنه وجود الله
المستغنى بذاته عن غيره ، وهو الوجود الحق الذي أعطى ومنح الوجود لكل
كائن وليس لكائن غيره ، سبحانه الوجود من نفسه إنه سبحانه الخالق وهو
البارئ وهو المصور : هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء .

ومن بعض معاني هذا التصوير قوله تعالى :

﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة في قرار مكين .
ثم خلقنا النطفة علقة ، فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاماً ، فكسونا
العظام لحماً ، ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ .

وصلة الله بالإنسان إذن : هي أنه سبحانه ، يمنحه الوجود الذي يريد له
في كل لحظة من اللحظات المتتابعة ، فتشكل حياته في كل لحظة بصورة أمده
الله سبحانه وتعالى بها .

وصلة الله بكل كائن : إنما هي على هذا الخط : إنه سبحانه ملا :
﴿ يمك السماوات والأرض أن تزولا . ولن زالتا إن أمسكها من أحد من
عده ﴾ إنه يمسكها وحوداً ، ويمسكها تدبيراً ، ويمسكها تماسكاً وتناسقاً . إنه
يمسك فيها الكيف والكم . وإذا ما سحب إمداده عنها تلاشتا كماً وكيفاً .
إن الله سبحانه وتعالى : محيط بالكون ، مهيمن عليه ، قيوم السموات
والأرض ، قائم على كل نفس بما كسبت ، وقائم على كل ذرة من كل خلقه ،
وقائم على كل ما هو أصغر من ذلك وما هو أكبر بحيث لا يعزب عن هيئته
وعن قيمته مقال ذرة في الأرض ولا في السماء .

هذه القيومية : أخذ القرآن والسنة يتحدثان عنها في استفاضة مستفيضة ليهز
الإنسان مرة عيفة تجعله لا يخلد إلى الأرض ولا يتبع هواه ، وإنما يرتفع بصره
ويستشرف بكيانه إلى الملأ الأعلى متحلصاً نفسه من عبودية المادة : ليوجد الله
سبحانه وتعالى في عبودية حالصة له . ولإحلاص لا يشويه شرك من هوى ،
أو شرك من سيطرة المادة أو الغرائز .

ونريد الآن أن نصور بعض مواقف القرآن في هذا الصدد :

إن الله سبحانه وتعالى يوجه نظراً في سورة الواقعة إلى مسائل نحن عنها في
العادة غافلون .

﴿ أفرايتم ما تمنون ؟ أنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ﴾ ١ . . .

﴿ أفرايتم ما تزرعون ؟ أنتم تزرعون أم نحن الزارعون ؟ ﴾ ١ .

﴿ أفرايتم الماء الذي تشربون ؟ أنتم أنزلوه من المزن أم نحن
النازلون ﴾ ١ . . .

﴿ أفرايتم النار التي تورون . أنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون ﴾ ١ . . .

وعلى العكس من ذلك . ارشاه الله لما خلق هذا الفرد . ولحمل الزرع
حطاماً ، ولما أنزل الماء من المزن ، ولما أنشأ شجرة النار ، إنه سبحانه ، يده
الأمر سلباً وإيجاباً ، ويده أمر الخلق إيجاباً وإعداداً ...
أرأيت إلى هذه الرمية التي ترميها : إنك ما رميت إذ رميت ولكن الله

أرأيت إلى الانتصار في الجهاد ؟ إن هذا الانتصار من عند الله ، فأما القتل
« لم تقتلوهم ولكن الله قتلهم » .
ورزق الإنسان هذا وطعامه :

﴿ فلينظر الإنسان إلى طعامه أنا صبيا الماء صبا ثم شققنا الأرض شقا ،
فأبنا فيها حيا وعنباً وقنصاً ، وربنوا ونحلا وحدائق غلبا وفاكهة وأنا ، متاعا
لكم ولأنعامكم ... ﴾

٣ - هذه الهيمنة ، وهذه القيومية ، يمر بها قوم فلا يمرونها الفناء ، إنهم
يمرون بها مرور الحيوانات بما لا تدرك ولا تعقل : إن الله سبحانه وتعالى ،
لا يحل من شعورهم درجة أيا كانت ، وهمهم كل همهم مصيحين تسين ، إنما
هو مل' الطن ، أو كثر الذهب والفضة ، أو التراع على جاه ، أو العمل لتثبيت
الاطان . إهم يرون بآيات الله فلا يشهدونها . وتحيط بهم آثاره ، فلا ينظرون
إلا ، وتعمهم نعاؤه وآلؤه فلا يوجههم ذلك إلى الحمد ولا إلى الشكر ، إن
الله سبحانه وتعالى . لا يحتل في قلوبهم ولا في تفكيرهم ، ولا في بيتهم ،
ولا في حياتهم ، قليلا ولا كثيراً ..

والطرف الآخر المقابل لهذا : هو هؤلاء الذين اتفموا حقا في محيط
الإله . سبحوا في بحارها ، واستنشفوا نسايمها التلية . وعمرهم للألأها

رصاؤها ، لقد بدعوا بحمد الله وشكره على نعمائه وآلائه التي تحيط بهم من
جميع أقطارهم ، فزادهم الله نعمة وآلاء
﴿ لنن شكرتم لأزيدنكم ... ﴾

لقد اتفقوا الله حتى نقاته فعلمهم الله :

لقد اكتفوا بالله هادياً ونصيراً ، فهداهم الله إلى صراطه المستقيم ، ونصرهم
على أنفسهم وعلى أعدائهم ، وأخذوا شيئاً فشيئاً ، يحاولون تحقيق التوحيد :
نولا ، وعقيدة ، وتدوقاً ، وتحقيقاً ، أخذوا يرون في « أشهد إلا إله إلا الله »
سباني لا يتطلع إليها غيرهم .

وبدا معنى الشرك يتضح لهم في صورة لا تحظر على بال الماهين ، الدين
شقتهم أموالهم وأهلهم ، وبدعوا يحطمون اشرك : يحطمون أصنامهم وأوثانهم .
من النفس ، والهوى والشيطان ، ومن العرائر الحيوانية ، والفرائر الإنسانية . وأنهار
الشرك حتى من همسات الفؤاد : لقد انهار الشرك الواضح ، وانهار الشرك
الخفي ، وثبت في أدواقهم واستقر في أحوالهم ومقاماتهم : أن لا إله إلا الله ،
وأنة « أيما تولوا فثم وجه الله » وأيتا كانوا قاله معهم ، وهو أقرب إليهم من حبل
الوريد ، وهو أقرب إليهم من جلسائهم ومعاشرهم : إنه يشمر كيانهم :
فلا يرون غيره سبحانه . لا يرون غيره ، قيوم السموات والأرض ، ولا يرون
غيره مصرفا ليسر من الأمور ، وللمعظم منها ، ولا يرون غيره مالكا لسلك
يؤنى الملك من يشاء ، ويترع الملك ممن يشاء ، ويعز من يشاء ، ويندل من
يشاء .

لقد أصبحوا ربانيين ، وأصبح الله في بصرهم وسمعهم وجوارحهم وفي
قلوبهم من قبل ذلك ومن بعده : يشغله كله فلا يدع فيه مكاناً للأغيار .

٤ - وأخذ هؤلاء الصوفية يوجهون أفراد هذا القطيع من البشر إلى الله تعالى : أخذوا في محاولة جاهدة مستمرة - لانتزاع الإنسان من الإخلاء إلى المادة ليتطلع إلى السماء :

لقد حاولوا أن يوجهوا نظر الناس إلى الله ، عن طريق آياته التي تهمهم وعن طريق صنعه ، وقد أحسن كل شيء خلقه ، سبحانه .
أخذوا يوجهون نظر الناس إلى الله تعالى : في الزهرة تفتح ، وفي الزرع ينبت متجها إلى السماء ، وفي الشمس تشرق ، وفي القمر تأتق ، وفي مواقع النجوم ومداراتها ...

وفي كل هذا الإبداع الساري في الكون ا

أخذوا يشرحون معنى تلك الآيات الكريمة :

﴿ تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير .

الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الخبور .
الذي خلق سبع سموات طباقا ، ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت ،
فارجع البصر هل ترى من فطور ؟

ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسيرا .

وكانت تعبيراتهم تعبيرات متذوقين ، وليست التعبيرات الجافة لعلماء الكلام أو الفلاسفة ، وهم - في تعبيراتهم يشرحون : أن الله سبحانه وتعالى : للمد للوجود لكل موجود : إنه يمد القائم بالقيام ، ويمد لماشي بالمشي ، والمتحرك بالحركة ...

إنه - على حد تعبير أهل السنة والأشاعرة : الذي يقطع ، وليست السكين هي التي تقطع ، وهو الذي يحرق ، وليست النار هي التي تحرق ، وهو

الذي ، حينما يريد ، يقول للنار كوني برداً وسلاماً . فتكون برداً وسلاماً
ومها عبر الصوفية ، في هذا الميدان ، عن الوجود الواحد ، فقالوا في ذلك ، وزعم الناس أنهم أسرفوا ، واشتطوا ، فإنهم : سوف لا يبلغون المدى الذي بلغته تلك الآية الكريمة التي تمثل في روعة رائعة ، الهيمنة المهيمنة ، والاستفراق القاهر ، والجلال الشامل والتي لا تعنى وحدة متحدة ولا اتحاداً مطابقاً بين الخالق والمخلوق أو العابد والمعبود والآية هي :

﴿ هو الأول والآخر والظاهر والباطن ﴾ .

وهذه الآيات القرآنية التي ذكرناها إنما هدفها أن تدفعنا دفعا إلى الشعور بقبولية الله سبحانه وتعالى ، مهيمنة ، وهيمنة مسيطرة ، وإلى الشعور بتوجيهه سبحانه وتعالى للإنسان أن يفر إلى الله في كل أمر من أموره ، وأن يسمو بنفسه حتى يتحقق بأن :

لا إله إلا الله .

وما فعل الصوفية أكثر من ذلك ، إنهم مهتمون بهدي القرآن والسنة ، يريدون للإنسان أن يكون ربانيا ، فإذا ما استمر الكثير من الناس يخلطون إلى الأرض ، وينظرون دائما إلى أسفل ، فليس ذلك ذنب الصوفية ، فقد أدوا واجبهم نحو التوجيه إلى الله ، خير أداء .

أما إذا لم يكتب بعض الأفراد بالإخلاء إلى الأرض وبالنظر إلى أسفل ، وإنما أخذوا يهاجمون من يدعوهم للتطلع إلى السماء ، ويوجههم إلى الله ، تعالى فهؤلاء : إنما يحاربون الله ورسوله ، وجزاؤهم معروف .

٥ - وقد تسامل : فم إذن حوكم الخلاح وقضى عليه بالقتل ؟ !

فله التصرف لنقل من الضلال

إن أمر هذه القضية : قضية الحلاج : معروف سرها ، وما كان سراً في يوم من الأيام .

لقد كان الحلاج قوة جارية ، كان مركزاً للجاذبية لا يضارع ، يلتف حوله الناس أينما حل ، ويسمرون حوله أينما ارتحل .

وكان ككل صوي - : يحب آل البيت لأنه كان يحب الرسول ﷺ ، وكان آل البيت إذ ذاك يطعمون في أن تكون الدولة لهم ، وما كان بنو العباس يطعمون إلى شخصية كشخصية الحلاج المحبة لآل البيت ، نسل رسول الله ، صلوات الله عليه وسلامه .

وما دام الحلاج دعاية قوية تسير في كل مكان ، وتوجه إلى كل بلد ، ليجب - حفاظاً على أمن الدولة وتخصيصاً لاستقرارها - أن ينكل بالحلاج . وما كان مقتل الحلاج دينياً قط كلا ، وإنما كان سياسياً بحتاً . ومن السهل على الملوك المستبدين أن يزيفوا القضايا ، أن يأتوا بشهود الزور ، وأن يعدوا القصص بالمال والترقية ، وأن يغلوا أهواءهم . . .

فكان ما كان من قضية ومن قتل . . . والدين من كل ذلك يراه والألفاظ التي ينسبونها للحلاج ليست في كتاب من كتبه ، وكتبه - وبعضها موجود - لا تستند خصومه ولا تؤيدهم .

هذا ما كان من أمر الحلاج . وبقيت كلمة .

المتنق الصحيح : ألا يفنى للهندس في أبحاث الأطباء ، وألا يحكم الأديب باعتباره أديباً ، في أعمال المهندسين . . .

ومن العدالة - على هذا الوضع - : ألا يحكم على هذه القمم الشائعة ابن عربي ، الحلاج ، ابن الفارض ، من لم يبلغ مداهم أو يقاربه .

لقد قيل مرة لأحد شيوخنا الصالحين الأجلاء : إن فلانا ، يتفقد ابن عربي في الجملات ، فقال : رضوان الله عليه ، وهل من حق الخنافس أن تحكم على أعمال الأسد ، إن الخنافس لا تحكم على أعمال السباع ، وليس من حقها أن تتحدث فيما تفعله السباع ، ومنطقها دائماً منطلق الخنازير .

أما الإمام الشافعي - رضوان الله عليه - فإنه يقول عن خصوم سيدنا محي الدين : « إن حكمهم حكم ناموسة نفخت على حبل تريد إزالته من مكانه وتذهب الريح بأثم من الناموس ، وتبقى الجبال شوامخ راسيت ، بها تثبت الأرض ، وبها يحفظ ميزان الدنيا » اهـ

والرأي الذي لا يتأني غيره من المنصف ، الرأي الحق ، هو ما قاله الإمام الشيرازي عن الصوفية عامة ، وعن سيدنا محي الدين خاصة : « ولعمري » إن عباد الأوثان لم يجرؤوا على أن يحملوا آلهتهم عين الله بل قالوا : ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ، فكيف يظن بأولياء الله أن يدعوا الاتحاد بالحق سبحانه ، هذا محال في حقهم ، رضوان الله عليهم » اهـ

فلا بد أن يبلغ الإنسان المستوى ، أو يقارب المستوى ، وحينئذ سيقول كما قال أسلافنا الذين بلغوا المستوى أو قاربوه : رضوان الله عن سيدنا محي الدين ، ورضوان الله عن الحلاج ، وعن ابن الفارض ، ونفعتنا بهم ، ويكفيهم ، هذا وبالله التوفيق .

الأحاديث ليس هو مجرد الحركة المبرقة ، وإنما هو - مع هذه الحركة - للمنى المسبق فى النفس الذى يمثل فيه جلال الله وعظمته ، ورحمته وودده ، ويمثل فيه الخضوع ، لهذا الجلال ، وهذه العظمة ، والانقياد المطلق لرحمة الله التى تمثل فى الرسالة الإسلامية ، فى تكاليفها سلباً وإيجاباً ، إنما هى رحمة ذلك أن الرسالة الإسلامية ، فى تكاليفها سلباً وإيجاباً ، إنما هى رحمة للعالمين يقول الله تعالى ، لرسوله ، صلوات الله وتلامته عليه :

﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ .

فإذا ما كان السجود تعبيراً عن التقامن والتذلل - وذلك معناه الصحيح - كان ذلك عبادة ، وخصوصاً لله ، سبحانه وتعالى ، وكان بذلك سبيلاً إلى الجنة ، وإلى أكثر من الجنة وهو القرب من الله يقول الله تعالى فى كتابه العزيز :

﴿ واسجد واقترب ﴾ .

ويقول ، صلوات الله وسلامه عليه ، فى هذا للمنى : « أقرب ما يكون العبد من ربه ، وهو ساجد ، وقيمة السجود الكبيرة . عبر عن الصلاة أحياناً بالسجود فصلاة الضحى ، يسونها : « سجود الضحى » .

ومن أجل هذه القيمة أيضاً ، مدح الله من يسيرون من خضوعهم لآياته واستجابتهم لأمره ، يقول الله تعالى :

﴿ إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذكروا بها خروا سجداً ، وسبحوا بحمد ربهم ، وهم لا يستكبرون ﴾ .

والذين هداهم الله ، واحتياهم :

﴿ إذا تلى عليهم آيات الرحمن خروا سجداً وركعاً ﴾ .

السجود (٥)

يروى الإمام مسلم - رضى الله عنه - فى صحيحه : عن أبى فراس ربيعة ابن كعب الأسلمى ، - خادم رسول الله ، ﷺ ، ومن أهل الصفة - رضى الله عنه - قال :

كنت آيت مع رسول الله ﷺ ، فأتته بوصوته وحاجته ، فقال : سئى :

فقلت : أسألك مرافقتك فى الجنة .

فقال : أو غير ذلك ؟

قلت : هو ذلك .

قال : وأنى على نفسك بكثرة السجود .

والسجود إذن مما يبين على ترويض النفس ، لتزكى ، وهو بذلك من الوسائل التى توصل إلى الجنة .

وفى هذا المعنى ، يروى مسلم أيضاً ، عن أبى عبد الرحمن ، ثوبان مولى رسول الله ، ﷺ ، قال :

« سمعت رسول الله ﷺ يقول : « عليك بكثرة السجود ، فإنك لن تسجد لله سجدة ، إلا رفعك الله بها درجة وحط عنك بها خطيئة » .

والسجود الذى يرويه رسول الله - صلوات الله وسلامه عليه - فى هذه

(٥) إن موصوف الصوفى من الصالحين النبوية هو يوفى السيد لا - ويؤمن ذلك لا يكون صوباً ومن أجل ذلك وضعت هذه الكلمة فى هذا الفصل .

ومن صفات عباد الرحمن ، التي يركبهم الله بها أنهم : ﴿ يتنون لهم سجداً وقياماً ﴾ .

٢

على أن حادثة من الحوادث قصها القرآن في غير ما موضع منه ، تبيّن لنا كثيراً مما نتحدث به من المعاني الخاصة بالسجود ، تلك هي حادثة آدم والملائكة .

﴿ وإذ قال ربك للملائكة : إني خالق بشراً من صلصال من حمأ مسنون فإذا سويته ونفخت فيه من روحي ، فقروا له ما جدين ﴾ .
بهذا النبأ ، حدث الله الملائكة عن عالم جديد من حوالمه سيروؤه سبحانه ، وأمر الملائكة ، أن يسجدوا له .

﴿ فسجد الملائكة كلهم أجمعون ﴾ .
لم يشذ منهم أحد .

وكان من بينهم - محططاً بهم - إبليس - وهو كائن يختلف عن الملائكة ، وعن الإنسان إنه من فصيلة الجن .

وكان يمد مع الملائكة ، ويسبح معهم ، حتى كان يلقب « بطاوس العباد » لكثرة عبادته وتفانيه في العبادة ، ولكنه لما سمع الأمر الإلهي بالسجود ، لم يسجد ، لقد أتى ، والإباء ضد السجود واستكبر ، والاستكبار : ينافي الخضوع .

ويتحدث القرآن عن ذلك في صراحة فيقول :

﴿ إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين ﴾ .

ويقول سبحانه أيضاً :

﴿ إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين ﴾ .

هذه قصة معروفة ، نمر عليها فلا تكاد تحيها التفاتا ، بيد أنها جديرة بالتأمل والاعتبار .

والقضايا التي نريد أن نذكرها عظة واعتباراً ، وهي في نفس الوقت ذات دلالة عميقة هي ما يلي :

١ - لقد صدر أمر إلهي بالسجود . فاستجاب له طائفة ، فتمعوا برضوان الله ، وشذ فرد ، فطرد من رحمته سبحانه .

٢ - إنه طرد . لأنه لم يستجب للأمر الإلهي مع علمه بأنه أمر إلهي .

٣ - وكان عدم استجابته ناشئاً عن كبرياء في نفسه . وعن تمرد في فطرته .

٤ - لم تلغ عبادته كبريائه ، فهي إذن لم تكن خضوعاً ، لأنها لو كانت خضوعاً ، لتفت الكبرياء وأزائه ، هي إذن لم تكن عبادة بالمعنى الصحيح ، لأن العبادة والكبرياء لا يجتمعان .

٥ - هذا الكبرياء : كما تمثل في مخالفة لأمر الإلهي ، تمثل في المحاولة التي أراد هذا المتمرد أن يبرر بها موقفه ، مستنجداً بمنطقه وعقله قائلاً :

﴿ أنا خير منه ، خلقتني من نار وخلقته من طين ﴾ .

ولم يكن هذا إلا منطق الهوى . ومطلق الكبرياء ، فسجوده لآدم ، ليس عبادة له ، وإنما هو عبادة لله . لأنه خضوع لأمر الله . وحسب .

٦ - والموقف السليم ، إذن هو ما يرشد إليه روح القصة ، بل تعبيرها من أنه عند الأمر الإلهي - يجب أن تكون الاستجابة فورية ، هذا هو ما ترشد إليه في صراحة كلمة : « إذ » في قوله تعالى :

﴿ ما تمنك ألا تسجد إذ أمرتك ﴾ .

ومن الطبيعي أن تكون هذه القورية في كل أمر بما يناسب وضعه الزماني والمكاني

٧- والتفضية الأخرى التي تختم بها هذه القضايا ، أو هذه المفاهيم المستجبة من النص هي أن الله إذا كان قد أمر الملائكة والجن بالسجود للإنسان الأول ليس معنى ذلك ، إلا التصريح الصريح ، بأن طبيعة هذا الإنسان لها الاستعداد الكافي للوقوف في مدارج السور الروحي ، درجة فدرجة ، حتى تسو على للملائكة وعلى الجن .

ولا معنى إذن بعد هذا الأمر الإلهي للملائكة والجن بالسجود للإنسان ، أن يختلف علماء الإسلام في الفاصلة بين الإنسان والملاك .

ذلك أن القيوضات الإلهية على الإنسان ، لا تنسحب إلى حد :

• ما وسعني أرضي ولا سمائي ، ولكن وسعني قلب عبدي المؤمن .

فتاب القيوضات الإلهية إذن مفتوح على مصراعيه ، والقرب من الله

ميسور .

وإذا ما سجد الإنسان لله ، رضعه الله إليه ، وقربه منه ، وغضره برضوانه .

أما المبدأ الهام ، الذي نريد أن يحمله كل مؤمن نصب جيبه ، فهو أن

الإيمان ليس معرفة وحسب : ذلك أن إبليس كان يعلم علماً يقينياً أن الله

موجود ، وقد علم فيما بعد أنه أرسل نوحاً وإبراهيم . . . ومحمداً عليهم الصلاة

والسلام .

به يصدق بأن لا إله إلا الله ، ويصدق بأن عيسى وموسى وبقية الأنبياء

رسل الله ، ومعرفة بهذه المسائل هي من القوة والثبات بحيث تزيد على معرفة

كثير من المؤمنين .

ولكنه مع ذلك مطرود من رحمة الله : ذلك أن الإيمان ليس معرفة

وحسب ، وإنما هو خشوع واستجابة : إنه يسجد ، فإذا لم يأت السجود

لا إيمان^(٦)

لقد كان سيد بن جبير رضي الله عنه - يقول : « ما أتى على شيء من

الدنيا إلا على السجود » .

أما على بن عبد الله بن عباس ، فقد كانوا يسمونه « السجادة » لكثرة

سجوده . وقد كان يكثر من السجود - كما هو المتبادر إلى الذهن - ليكون على

القيض من إبليس . وتختم هذه الكلمة بقول الله تعالى ، يصف الذين مع

رسول الله - معه في حال حياته . وعلى مبادئه الإلهية بعد وفاته - : ﴿ سيأمن

في رجوهم من أثر السجود ﴾ : إنه البر الذي يشرق على جباههم لسجودهم

له وحده ، وهو الفر التي ستكون في رجوهم يوم القيامة من أثر خشوعهم

له .

ويتناقى السجود لله مع محاولة تحكيم العقل في أوامره - مسحاها وتعال -

أثوابه ، وكل محاولة من هذا القبيل ، إنما هي : كبرياء ، وهي إبليس .

وإذا كان لإبليس خلفاء من بني آدم ، فهم هؤلاء الذين يحاولون أن يقوموا

(٦) يقول الله تعالى : (ولا يورك لا يؤمنون حتى يحكروا بما نزلناهم ثم لا يعلموا ولا آمنهم

حرباً ما نصبت وسلطنا عليهم) .

ويقول ، لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه نبياً لا يحث به . . .

والإطراء بإنكار الرسالة . . .

بيد أن هؤلاء وأولئك وثلكم يصدق عليهم :

﴿أرأيت من اتخذ بالله هوىً ، وأضله الله على علم ، ونجم على سمعه وقلمه ، وجعل على بصره ضلالة : لمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون ؟﴾ والطريق الذي يتقده به هؤلاء مفوسم وتلزم إغما هو المادة بالسجود لله لا للهوى الردى ، فيكشف الله لهم في كل شيء وتظهر لهم آياته في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق . وإن من أسدث اختراعات إبليس في هذا الزمن المظلم إنما هو المنهيب للمسيح ، الوجودية ، وهو منهيب يدعو كل إنسان أن يصدق وجوده حسبما يرى وتبشيراً بعيداً ، غير متقيد بمرزق ولا مبادئ ولا عقائد ولا دين ولا أوضاع أبأ كانت ، وهو إذ أن يهدم نفسه بنفسه ، لأنه لا يقوم على أسس ثابتة ، ولا ينتهي إلى مبادئ حقيقية ، وأحسن تشبيه للوجودى هو ما قاله أحد كبار الكتاب الثريين :

« إن الوجودى مثله ، كمثل الكلب الذى يجرى دائرة حول نفسه يحسب

بذنبه ، فلا يدرك ذنبه وهو لعبة تلمبها الكلاب ، حينما يجردون الفراخ فلهبران بما لا نتيجة له . »

على أن المنهيب الوجودى قديم : إذ أنه المنهيب السوفسطائى اليونانى ، وهو منهيب يظهر دائماً في صعود الاغلال ، وفي البيئات المنهية ولا وجود له في صعود الجهد ولا في البيئات المبادئة . ذلك أن المصنعات الناعمة المبادئة ، لا تتيح لأفرادها أن يتشبعوا بالكلاب - حينما تلهو الكلاب - في الجرى وراء أذنانهم يحسكوا بها .

فالوجودية ، إذن انزعاج إبليس ، لإخراج طائفة من البشر من نطاق

بمور إبليس في المصيح الإنسانى ، إنهم هؤلاء الذين يرفضون الوحي الأسمى حملة . أو يجادلون أن يزوا الوحي بميزان العقل ، فيرفضوا ويقلوا ويؤثروا ما عند علم الهوى ، ويوتقوا ويقتفوا ، ويرجسوا بمقولهم المأرق الذى يرفضها مشكلات نظرية عقلية - ثم يجادلون انفرار منها .

وتضلقات إبليس هم أولاً وثالثات : اللامعة :

إنهم على نسق التصيد الجبارى : إبليسون أكثر من إبليس : ذلك : أن إبليس لم ينكر وجود الله ، ولم ينكر بهه ولا رسالة ، ولكن هؤلاء أنكروا كل ذلك ، فتناقروا رعبهم ، ولكم بتقوتهم على رعبهم قد أزرعوا غروره ، ذلك أنه خاطب الله قائلاً ﴿ لا أقمن لهم (بنى آدم) صراطك المستقيم ، ثم لا أتيتهم من بين أيديهم ومن خلفهم ، ومن أيمانهم ، ومن خالفتهم ، ولا تجد أكثرهم شاكركين ﴾ .

ولقد نجح إبليس نجحاً تاماً في طائفة اللامعة .

والإطراء درجات : وأحسن درجات للمحتمل لا شك ، إنما هي درجة هؤلاء الذين اصطدروا - على حد تعبير الأتراك - وأن العالم لم يزل موجوداً كذلك بنفسه ، وبلا صناع ، ولم يزل الحيوان من النطفة ، والملكة من الحيوان ، كذلك كان ، وكذلك يكون أبداً .

وإذا ما سألت هؤلاء : إذ اصطدروا من هيرثمى ، أم هم المطلقون ؟ كانت حيرتهم في الإجابة كافية في البرهنة على أنهم لا يتبعون إلا أهوامهم ، وأنهم ليسوا إذن إلا عبيداً لإبليس .

ومذاك الإطراء بإنكار البعث . . .

السجود لله ، إلى نطاق السجود للأهواء .

وغطفاء إبليس ثانياً هم : طائفة الفلاسفة العقلين الإلهيين .

- ذلك أن الفلسفة العقلية - مها حاول المتفلسون تزييف أهدافهم وتزيين غاياتها - ليست إلا محاولة لتحكيم العقل فيما أتى به الوحي أو بتعبير أدق هي محاولة لإحلال العقل محل الوحي .

وهي من غير ما ريب تريد أن تفتخر عقلاً ما فرغ منه الوحي في قضاياها ومبادئه ، إنها تريد انتداع دين عقلي يجوار الدين الإلهي ، وهذا الدين العقلي يختلف من فيلسوف إلى آخر ، وهو من أجل ذلك يختلف في هذه القضية أو تلك مع الدين الإلهي .

فإذا كانت البيئة متشعبة بالدين الإلهي : ينصر قلبها الإيمان ، ويخسر وجدانها الهداية ، حاول المتفلسون - في طريقة إبليسية - أن يوفقوا بين الدين والفلسفة .

ومعنى هذا : أنهم يجعلون موقف اختراعاتهم العقلية بالنسبة للدين ، موقف الند للند ، فيحاولون التوفيق ، فيخطئهم التوفيق ، فيم يأتون وما يدعون ، ذلك أنهم قلوبهم وأفتلتهم - هواء

وإذا كان الاتفاق بينهم هم لم يتم ، فإن التوفيق بين أهوائهم ، وظنونهم ، وشكوكهم وأوهامهم ، وبين الوحي والعصمة ، واليقين والهداية ، إنما هو عمل لا يسير في ركابه إلا أتباع إبليس .

والفلاسفة إذن ، لم يسجدوا لله .

أما الطائفة الثالثة التي لم تسجد لله ، إلا شكلاً فإنها ، طائفة المعتزلة من علماء الكلام ، إنهم لم يسجدوا لله سجود خضوع وإذعان ، ومذهبهم قائم على

تحكيم العقل في الدين ، ووصل بهم الأمر إلى أنهم يوجبون على الله بعض الأحوال ، سبحانه وتعالى ، ويحرمون عليه إثبات بعضها ، سبحانه وتعالى ، فوضيوا أنفسهم بحملهم هذا موضع المشرعين لله سبحانه يلزمونه سلباً ، ويلزمونه إيجاباً ، وزين لهم الشيطان أهواءهم ، وصدق فيهم قول الله تعالى :

﴿ ألن زين له سوء عمله : فرآه حسناً فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء ، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ، إن الله عليم بما يصنعون ﴾ .
ثم إنهم خاضوا فيما نصح الدين بعدم الخوض فيه ، كالكلمات الإلهية والصفات والقدرة .

وكان لابد وقد اتبعوا - أهواءهم - أن يختلفوا ويتفرقوا ، وتذهب بهم الأهواء كل مذهب : فكانوا فرقاً وأحزاباً شقي ، لا تكاد تدخل تحت حصر .

وكل من نهج النهج العقل - أي تحكيم العقل - في الدين في العصر الحاضر ، إنما هو تابع للمعتزلة ، وكل مدرسة من هذا القبيل في العصر الحاضر إنما هي مدرسة اعتزالية في مبادئها وأصولها ، وهي مدرسة اعتزالية في غاياتها وأهدافها : ذلك أنها تضع قضايا الدين . . في ميزان عقلها فتنتي وتثبت ، حسباً تقتضيه الظروف والملابسات أي حسباً تقتضيه الأهواء والترغبات .

والمدرسة العقلية في الدين ، أياً كانت وفي أي مكان وجدت ، وفي أي زمان نشأت :

لم تسجد لله سجود خضوع وإذعان ، وإنما سجدت للعقل وعبدت العقل ففترقت إلى ما لا يكاد يحصى من الفرق : ﴿ ومن يتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ﴾ .

وسبيل المؤمنين ، إنما هو السجود لله ، وذلك أيضاً سبيل الراسخين في

العلم ، إذ الراسخون في العلم هم دائماً مؤمنون ، ساجدون لأمر الله ، وإليه تشير الآية الكريمة :

﴿أمن هو قانت آتاه الليل ساجداً وقائماً ، يحذر الآخرة ، ويرجو رحمة ربه ، قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ؟ إنما يتذكر أولو الألباب﴾ .

وسم البديهي أن المؤمن الحقيقي ، هو وإبليس على طرف تقيض ويرسم الله سبحانه وتعالى ، صورة المؤمن فيبين تعارضها مع كل الصور الإبلية على تفاوتها واختلافها ، ويبين جزاءها عنده فيقول سبحانه :

﴿إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذكروا بها خروا سجداً ، وسبحوا بحمد ربهم ، وهم لا يستكبرون . تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ، وبما رزقناهم ينفقون . فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون﴾

هذا وبالله التوفيق .

الفصل الثالث

التصوف والمعرفة

- البحث العقلي فيما وراء الطبيعة عبث .
- في وسيلة المعرفة .
- التصوف والشك .
- الشك ومدارج السالكين .
- الإمام الغزالي يرسم طريق المعرفة .
- مشكلة المعرفة الصوفية .

البحث العقل في وراء الطبيعة عبث

لا يمكننا أن نحدد بالضبط تاريخ نشأة الأبحاث في الغيبيات ، ولكننا قد لا نعدو الصواب ، إذا قلنا : إنها نشأت منذ نشأة الإنسان ، على ظهر البسيطة .

وقد لا نعدو الصواب أيضاً ، إذا قلنا : إنها على مر الزمن ، قد اختلفت ، فيما يتعلق بمناهج البحث ، واختلفت فيما يتعلق بالنتيجة .

وقد انتهى الاختلاف إلى النتيجة الحتمية وهي أن يكون شاملا لكل المساتير ، فمن إنكار مطلق للألوهية ، وللروح ، إلى إيمان مطلق عام ، يفرق في الوهم ، ويبعد في الضلال ، حتى يصل إلى التحريف بأوسع معانيه . وبين هذا وذاك ، مذاهب لا يحصيا العدد : فمن تشبيه مطلق ، إلى تنزيه مطلق ، إلى تشبيه يشوبه التنزيه ، أو تنزيه مشرب بالتشبيه ، ومن حلول ، إلى اتحاد ، ومن وحدة الوجود ، إلى التفرقة بين العابد والمعبود ، إلى مذاهب يبحث احتلافها الدوار في الرأس ، وتبحث براهينها الشك في جميعها ، إلا من عصم ربه ، فوقفه إلى طريق الرشاد .

أجل : إلا من عصم ربه ، ذلك أن اتباع الطريق السوي ، توفيق من الله ، وليس هو اكتساب العبد^(١) ، فالحلول - مثلا - عقيدة راسخة ، آمنت

(١) قال الله تعالى (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد في السماء) .

بها الـبيئات المسيحية - وفيها من أساطين المفكرين كما لا يخفى - منذ ألفي سنة والتشبيه آمن به كثيرون.

ووحدة الوجود بالمنهج الفلسفي - كما أنها لها لتعمود لها ، الذين يرون أن ما عداها لغو ، أو ضلال .

ولو درسنا تاريخ العقائد لوجدنا أن كل فرقة تستند إلى منطق ، وكل عقيدة قد سادت في فترة من الزمن ، أوفى بيئة من البيئات ، وكل بيئة تعتقد أن ما لديها خير مما أخرج للناس : وكل حزب بما لديهم فرحون .

أما الصراع بين أدلة الفرق المختلفة ، فهو صراع دائم ، تنهات فيه الأدلة ، مشحنة بالجراح ، ولكنها تأتي - في غطرسة - أن تعترف بالهزيمة ، فتأخذ في تضديد جراحها ، لتعاود التزال من جديد ، ولتتأخر - أيضاً - من جديد . ولو سرنا حقيقة في المنطق إلى غايته ، لوصلنا إلى الحيرة ، والشك في كل ما أنتجه العقول الإنسانية من آراء .

ومع ذلك ، فاليقين موجود ، ومهما حاولت أن تنكر إشراق الشمس - إذا كانت مشرقة - فسوف لا يستجيب لك شخص ما ، وسوف لا تستجيب أنت لنفسك ، وهكذا الأمر في جميع المسائل .

بيد أن ذلك ميدان ، والغيبيات ميدان آخر . ربما يقال : إنه من الطبيعي : أن يكون الحس طريق المعرفة المادية ، وأن يكون العقل طريق المعرفة العقلية ، ومادامت الميبيات من المعقولات ، فالطريق إلى معرفتها ، إذن إنما هو العقل ، ومادامنا قد وثقنا بالحس في معرفة الماديات ، سنلتزم بالعقل في معرفة الميبيات .

هذا الخط من التفكير يبدو موقفاً ولكنه محض سفسطة ، فالتصور - وهو

أساس المعقولات - لا يقوم إلا على الحس ، ومنه المدركات الحسية ، فقد أزلته إزالة لا تترك له من أثر ، ومهما أغرقنا في الخيال ومهما أبعدنا في الوهم ، فابتدعناهم ، وصورهم المتكبره - مستوحى من الواقع - والاختراع : تيسق للحس على نمط جديد ، ولا فرق مطلقاً بين ذهن العبقري الفذ ، وذهن الجاهل الغبي . في أن كلاهما يعتمد على الواقع الحس ، في تصوره ، وفي تخيله .

والصورة المتكبرة - من حيث عناصرها - أسطورة من الأساطير ، أو وهم من الأوهام التي لا وجود لها ، ومادام الأمر كذلك ، فالتفكير المجرد عن المسائل معلوم^(٢) ومادامت المسائل لا شأن لها بالحس فكل تفكير فيها لا يؤدي إلى نتيجة .

(٢) منذ سنوات كتبت بحثاً عن التحليل أنصفت من مائل ، فوضعت لفكرة ارتباط التصور والتحليل باهات

(١) الخيال والواقع إذا نظرنا إلى العناصر التي تكون مادة التحليل - ربما لا نجد بها شيئاً جديداً ، وكل ما نستحيل لا يبدو أن يكون تسيقاً ، بصورة أي المول هي وحدها واحدة ، أما ما يكون من - على جسم الأمد ورأس الإنسان - فليس ذلك بجديد .

وكل عالم يفتضح لحواس الإنسان فإنه لا يمكن الإنسان أن يتخيله إلا إذا شبه ما وقع تحت حواسه ، وماتصور الناس العقول والمغفاه والجن والشياطين إلا على مثال ما حس أن رأوا .

وحيثما أراد المسيحيون أن يصوروا جبريل ، صوروه على صورة رجل له جناحان ، وتووع جمهور المسلمين قبا يتعلق بالله فقالوا : كل ما خطر سالك فانه خلاف ذلك ؛ إذ أن كل ما خطر بالبال لا يمكن إلا أن يكون مادياً محساً ، وكما أن الله يتصوره من المادة وعلاقتها .

أما هؤلاء الذين تصور تفكيرهم بأنهم تخيلوا الله - جل وعز - على صورة رجل صخم . ومنهم الكثير من أولئك الحكايات ذلك الرجل الساذج الذي حصر محساً من محاسن الطبيعة ، فسممهم يتحدثون عن الله ويقولون : « إنه سبحانه ليس بفوق ، ولا تحت ولا يسف ، ولا شمال ، ولا يملف ، ولا بأمام ، وليس بمادة ولا يعرض لمرح تاراً يعمل أن هؤلاء قوم يريدون أن يقولوا إنه ليس في -

لقد أطال العلماء في بحث الآراء الموضوعية والآراء الذاتية. ورأوا أن الأولى لا تقبل جدلاً : ذلك لأنها تعتمد - الاعتماد كله - على الحس. أما الآراء الذاتية - وهي قائمة على استنساخ أخرى - فإنها مجال للأخذ والرد. ولا يمكن الوصول فيها إلى نتيجة حاسمة معها طال النقاش. وإذا كانت مادة الأخلاق، هي للميلان، الخصب للآراء الذاتية، فإن الإلهيات - وهي حجب ومساتير - ميدان أعصب لذلك لا يعدو البحث فيها أن يكون : علماً كلامياً، أو : علماً جدلياً.

ومها أشاد المعتزلة بالعقل، ومها رفعوا من شأنه : فمن البديهي : أن

- السامع لله، هذا الرجل الساقط لم يمكنه أن يتخيل موجوداً غالياً من المحسوس وم يمكنه أن يعقل ما لم يتخيله : فاحقده. أن للمعتزلة يتكروا الله

هذا، وحاول أن تتحل أنت ما في الجنة لا لا عين رأت ولا أذن حسنت، فإنه سوف لا يحطرك على قلب، ذلك أن ما يحظر على القلب ليس شيئاً آخر غير ما رآته العين، أو سمعته الأذن ثم إذا كنت قد قرأت ما قيل من مدينة السليل، وما كتب عن المدينة القاضية فقد رأيت أنه برهم إرادة الإغراب أو التجديد - لم تخرج تلك المدينة عما رأيت، سوى أنه مكون تكويناً جديداً لا يخرج الخيال إذن، في حناصره عن الواقع، ولا يمكن الإنسان أن يتخيل إلا المحسوس.

(رب الخيال والبيئة : إذا قرأت تشبها للباب المرأة جملة غير آس، وللشيين المشايين بأهبا كخي يعبر. فلا أظن أنه من الصبر عليك أن تعلم الموطن الذي نبع منه هذان التشييان، وربما تكون قد قرأت ما لجاب به ابن الرومي، حيث عاب عليه بعضهم بأنه لا يتخيل كتحليل ابن المعتز، ضاربين له مثلا، تشبيه الهلال، يزورق من فضاء أفتقه حموقة من غيره فأجاب هذا يصف آية بيته.

وأظنك تفر معي أيضاً، أن البيئة الطبيعية في المصدر الواسطي لم تكن تسمح باستفراغ الراديو لم يخرج هذا وكثير غيره يرشده إلى مالمية من أثر على التخيل، وأن كل إنسان يتأثر بما في بيته من صور طبيعية، ومن ثروة ثقافية. والأمر لا يقتصر على ذلك، بل يتغير تخيل الشخص بتغير بيته وكما كثرت المثل في بيته، وكما سمعت موازينها الأخلاقية، كلما كثرت الرشده ليا وبتعد الخيال من دائرة الأثام.

الميدان الذي يحفظ فيه العقل لمخطاطا لانهائية له : إنما هو ميدان ما وراء الطبيعة. ومن أوسع أن مذهب المعتزلة، على ما فيه من روعة، ودقة، وجمال، وعلى ما أده من حذمت حليمة، في ميدان المنطق الديني، لا يقوم على أساس (معقول).

قد تعيب : بن لعقل - وهو أساس مذهب المعتزلة، ومذهب العقليين عموماً - به منييه وله موازيمه التي لا يتطرق إليها الخلل. إن للمنطق، القديم منه والحديث، آلة تصمم مراعاتها الذهن عن الخطأ في التفكير، ولقد جاهدت الإنسانية جهاداً طويلاً، حتى جعلت من الاستقراء والقياس أداتين للفصل بين الهدى والعمى. والتفرقة بين العاية والعمياء، والصواب والأصوب. فالاستقراء والقياس - إذن - هما وسيلة العقل، وهما يفصل التفرقة بين التي والرشاد، فمن التجني على المعتزلة وعلى العقليين - وقد اعتمدوا عليها - أن تصمم مداهمهم بمخالفاتها للطريق الأنوم.

إن وجهة النظر هذه تبسو، وكأنه لا غبار عليها. بيد أنها عند النظرة للقاحصة تنزل وتنهار.

أما أولاً : فلأن المعتزلة أنفسهم، والعقليين عامة - مع اعتمادهم على الاستقراء والقياس - قد اختلفوا فرقاً وأحزاباً لا تحصى، وكل فرقة أو شيعة تتبع رئيساً وصل به «استقراؤه» ووصل به «قياسه» إلى نتائج معينة تختلف - في قليل، أو في كثير - عن نتائج استقراء آخر وقياس مختلف. وأما ثانياً : فلأن الفكرة - المنطق يصمم الذهن عن الخطأ في التفكير أو المنطق وسيلة التفكير الصحيح - فكرة خرافية، أكثر منها حقيقية وذلك يحتاج إلى تبيان :

إن للقياس هي كما ذكرنا : الاستقراء ، والقياس .

أما الاستقراء - وهو أساس المفاهيم العامة والقضايا الكلية - فإنه :
١ - مبني كله على الحس : إنه استقراء محسوس ، إنه نتيج جزئيات ، لا تخرج عن نطاق المادة ، أما المساطر فهو بعيد عنها كل البعد ، إنها لا تدخل في دائرة اختصاصه : فهو عاجز عن أن يخترق الحجب ليصل إلى ما وراء الطبيعة .
٢ - ثم إن الاستقراء : تام^(٣) وناقص والتام - كما يعترف المناطقة لا ثمرة له ، ولا فائدة فيه .

أما الناقص - وهو المهم في نظرهم - فإنه في رأيهم أيضاً - ظني وهو - لذلك عرضة للتغيير ، في كل آونة .

وكل معدن يتمدد بالحرارة تلك قضية من قضايا الاستقراء ، إنها قضية عامة شاملة ، ولكن المعدن لم تكتشف ، بعد ، بأكملها ، ومن الجائز أن يكتشف في الغد معدن لا يتمدد بالحرارة ، إنها إذن قضية مؤقتة ، ظنية يتبرأ منها اليقين الفلسفي .

والعلم لا يعرف الكلمة الأخيرة في مسألة من مسائله - وإنما حقائقه كلها إضافية مؤقتة ، لها قيمتها حتى يتكف البحث عما يزيل هذه القيمة أو يغيرها^(٤) .

(٣) الاستقراء - وهو حكم على كل لوجوده في جزئيات ذلك الكل إما كلها - وهو الاستقراء التام الذي هو القياس المقسم وإما أكثرها . وهو الاستقراء المشهور ، ومخالفة للفلسفة ظاهرة لأنه في القياس يتمك على جزئيات كل لوجود ذلك الحكم في الكل ، فالكل يكون وسطاً بين جزأيه ، وبين ذلك الحكم الذي هو الأكبر ، وفي الاستقراء يلقب هذا بحكم على الكل بواسطة وجود ذلك الحكم في جزئياته ، عن البصائر التصيرية .

(٤) مقالة فجر الإسلام .

وهكذا قضايا الاستقراء ، إنها :

١ - خاصة بالطبيعة ولا شأن لها بما وراءها .

٢ - ظنية لا تعرف اليقين .

أما القياس :

١ - فإنه مبني على الاستقراء إذ هو منطوق دائماً على كلية استقرائية ، ومادامت قضايا الاستقراء ظنية - كما رأينا - وميدانها احصات ، فنتائج القياس ظنية كذلك ، وميدانها احصات .

٢ - ثم إن المناطقة لا يشترطون في مقدمات القياس ، أن تكون مسلمة ، صادقة في نفسها ، وإنما يشترطون أن يسلمها المتجادلون فحسب وقد تكون - كما يقول - صاحب البصائر التصيرية - « مسكرة » كاذبة في نفسها ، وفي هذه الحالة يكون القياس صحيحاً ، ونتيجته باطلة .

وإذا كان الأمر كذلك فما فائدة القياس ؟

ما قيمته إذا كان لا يعول فيه إلا على أن تكون المقدمات مستوفية لشروط الإنتاج ، بحيث تستلزم النتيجة ، وإن لم تطابق النتيجة لواقع ؟

ما قيمته إذا كان لا يحفل بصحة النتيجة أو كذبها .

إنك إذا قلت : الكثير من العلم ، يؤدي إلى الاستقلال الفردي ، وكل ما يؤدي إلى الاستقلال الفردي مضر بالمجتمع ، فالكثير من العلم مضر بالمجتمع ، كان هذا قياساً صحيحاً في نظر المناطقة .

وإذا قلت : الكثير من العلم ، يؤدي إلى التماسك الاجتماعي ، وكل ما يؤدي إلى التماسك الاجتماعي مفيد للمجتمع ، فالكثير من العلم مفيد

للمجتمع - كان هذا أيضاً قياساً صحيحاً عند الناحقة ومع ذلك فالتبجنان
منارضان 11

3- ومع كل هذا فالقياس استدلال دورى قاسد ، ذلك أن العلم بالنتيجة
في نحو قولنا : « محمد إنسان وكل إنسان ناطق ، فمحمد ناطق متوقف على العلم
بالكبرى والعلم بالكبرى متوقف على العلم بالنتيجة ، لأنك لا تستطيع أن تحكم
بالناطقة على جميع أفراد النوع الإنساني ، إلا إذا تأكدت من ثبوت الناطقة
لهند ، ولو كنت في شك من ذلك ، لما استطعت تعميم الحكم بالناطقة على
جميع أفراد الإنسان . إذن تكون الكبرى : متوقفة على النتيجة ، والنتيجة
متوقفة على الكبرى ، وعلى ذلك يكون القياس : استدلالاً دورياً فاسداً فلا
يعول عليه .

4- وأخيراً ، فالمفروض أن نتيجة القياس جديدة كل الجدة ، إنها استنتاج
مجهول هو النتيجة ، من معلوم ، هو المقدمات .

ولكن النتيجة مضمّنة في المقدمات ، إنها ليست مجهولة . والقياس
لا يؤدي إذن إلى معرفة جديدة ، أو إلى استنتاج مجهول من معلوم إنه - إذا
أردت الدقة - استنتاج معلوم من ... معلوم .

تلك هي موازين العقل وستر يد الأمر - أمر تصور العقل - إيضاحاً في
نصل تال - وهو موازين لا غناء فيها ، ولا جوى منها .
العقل إذن قاصر فيما يتعلق بالأخلاق ، وهو قاصر على الخصوص فيما يتعلق
بالإلهيات .

ومن هنا كانت الحكمة في نزول الأديان .

ومن هنا كان السبب في اقتصارها على الأخلاق والإلهيات .

وإذا كانت قد أحدثت في التشريع ، فإن التشريع بحر في نطاق
الأخلاق .

بيد أن الأديان إذا كانت قد اتخذت موقفاً حاسماً في بحر تحديد الخير
والشر ، فإنها ، في المقاييس : لم ترهق الإنسان من أمره صوماً فتوضع له
ما ليس في مقدوره إدراكه ، أو تبين له ما يسمو عن تصير .

أما هذا الذي يسمو عن التبيان ، فإنه ذلك النوع من معرفة لدى لا يدخر
في نطاق الحس ، وبالتالي لا يدخل في نطاق العقليات - نحو : المسابير
وإنه ليعجبني في هذا المقام قول ابن عبد البر ، للثوري سنة 463 هـ
إن الله ليس كمثل شيء : فكيف يدرك بقياس توريده نظر .

لذلك رسمت الأديان في هذا المحيط إطاراً عاماً قفص ، وهو الإطار الهـ
نفسه مبني بعضه على الحس ، وهو داخل في نطاق الآيات صارت التي هو
أم الكتاب : ﴿ لو كان فيها آلهة إلا الله لفسدتا ﴾ .

والعاصم يقول عن المشاهدة : « المركب التي فيها رؤس تفرق » .
أما بعضه الآخر فهو المشابه ﴿ فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشاءه
منه ، ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله إلا الله ، والراسخون في العلم
قولون آمنا به ، كل من عند ربنا ﴾ .

وحكمة قدماء المصريين دقيقة كل الدقة إذ تقول :

« بحال على من يفنى ، أن يزيل النقاب الذي تنقب به من لا يفنى » .
رسمت الأديان إطاراً عاماً ، ولكن هذا الإطار لا يرسم الموسم الطلبة ،
التي أبت خطأ - أن تعترف بجلود للعقل ، أو بقصور فيه ، لبحث داخل هذا
الإطار وخارجه ، فكان ما كان من تشعب ، وفرقة واختلاف .

إننا لا نشك في أن رؤساء المرق الإسلامية - معتزلة كانوا أو أشاعرة ،
وشيعية كانوا أم سلفيين - قد تشبعوا بإيمان راسخ ، وحرارة دينية فائقة ،
وعقيدة لا تزغزغها الأعاصير .

وقد احتملوا جميعاً على نصوص واحدة ، كتاب الله ، وحديث رسوله .
فلم كان الاختلاف ؟ ولم هذا الشعب الذي لا ينتهي ؟

لستنا - في تعليل ذلك - أمام مشكلة لا محل ، إذ الشأن في ذلك إنما هو
الشأن في كل الآراء الذاتية ، التي لا تخضع إلا إلى الاستعداد الشخصي وحده .
ولو استقامت أمور المسلمين الدينية ، لما حادوا عن موقف الإمام مالك :

التسليم المطلق :

الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، والسؤال عنه بدعة .

• • •

آراء ذاتية داخل الإطار العام ، آراء هي من صنع البشر . آراء تتحد في
نسبها - من حيث القرب والبعد - إلى النصوص المقدسة إياها : « آراء » .
بيد أن التزعة التي صدرت عنها هذه الآراء - وهي الاستعداد الشخصي :
تزعة معرفة .

ثم إنها آراء غير مفهومة ، وكل من عالج - في إخلاص - تصور صفات
خارجة عن الذات ، أو تصور صفات هي الذات . فإنه يقر معنا : أن ذلك
إنما : علمه عند ربي .

إن الطريق الأقوم - إذن - هو التسليم المطلق .

وهذا هو الإيمان بمعناه الصحيح .

يقول الإمام الغزالي :

« والتحقق بالبرهان علم ، .. »

والقبول مع التسامح والتجربة بحسن الظن : إيمان .

ولكن ذلك ليس معرفة مباشرة .

لا شيء إذن مما سبق من وسائل المعرفة : يصل بنا إلى المعرفة المباشرة في

محيط ما وراء الطبيعة .

وتلك هي النتيجة التي نريد من كل ما سبق الوصول إليها .

وإذا أردنا تلخيص ما نريد أن تنتهي إليه قلنا :

١ - الحس عاجز عن الوصول بنا إلى المفيات ، فإننا لا نحسها .

٢ - العقل - وهو مبني على الحس - قاصر كذلك .

وإذن فعلم الكلام الذي لا يسير على نهج سلفي - وهو آراء من صنع

البشر - ليس بدعة فحسب ، وإنما هو ضلالة . وهو عبث ، وهو انحراف عن

سواء السبيل

قال الإمام مالك : الكلام في الدين أكرمه ، ولم يزل أهل بلدنا

يكرهونه ، وينهون عنه : نحو الكلام في رأي جهنم ، والقدر ، وما أشبه

ذلك ، ولا أحب الكلام إلا فيما تحته عمل .

وقال الإمام أحمد : لا يفلح صاحب كلام أبداً ، ولا نكاد نرى أحداً نظر

في الكلام إلا وفي قلبه دغل .

وقال الإمام مالك : أرايت إن جاءه من هو أجدل منه ، أيدع دينه كل

يوم لدين جديد ؟

هل معنى ذلك : أن المعرفة - فيما يتعلق بالإلهيات - : غير ممكنة ؟

هل معنى ذلك : أن الغطاء لا يمكن أن يكشف عن الحجب ؟ وأنه

في وسيلة المعرفة

سيدنا رسول الله ، صلوات الله عليه وسلامه ، معجزة التاريخ ، وهو المنارة التي يهتدى بها الإنسان كلما انبهت الأمور ، أو ضلت الآراء .
وحياته قبل المعنة كحياته بعدها - : عظة وعبرة ، وهداية ومثل أعلى لمن أراد الطريق الأقوم .

إن من يتدبر حياته ، صلوات الله وسلامه عليه ، قبل البعثة ، ولا يكون عنده فكرة صحيحة عن النبوة ، من حيث إنها لا تكسب اكتساباً ، وإنما توهب من الله تعالى : يكاد يعتقد أنه اقتنص اقتناصاً ، واضطره إلى التزول اضطراراً ، وأنه أهي إلا أن يظفر بما يريد ، فكان له ما أراد .
بيد أن الصواب هو أن الله اصطفاه ، وفضله على العالمين ، عندما حان للوعد الذي حددته العناية الإلهية لتسجل ، عن طريق اختياره رسولا .
يقول الإمام المراغي رحمه الله :

النبوة هبة لا تتال بالكسب ، لكن حكمة الله وعلمه : قاضيان بأن تمنح للمستعد لها ، القادر على حملها : « الله أعلم حيث يجعل رسالته » .
ومحمد ، ﷺ : أعد لأن يحمل الرسالة للعالم أجمع ، أحمره وأسوده ، إنسه وجنته .

وأعد لأن يحمل رسالة أكمل دين .
ولأن ينحتم به الأنبياء والرسل وليكون شمس الهداية وحده ، إلى أن تنفطر

السماء ، وتتكسر النجوم ، وتبدل الأرض غير الأرض والسموات (٥) اهـ .
أما هذا الإعداد ، فقد حاظه الله بعنايته الثامة ، إنه أعده من ناحية
أسرته . أعنى من ناحية الوراثة ، وأعده من ناحية فطرته : أعنى طبيعته
الشخصية .

أما من ناحية أسرته ، فهذا جده عبد المطلب كان « سمح الطبع رضى
النفس » سخي اليد ، حلو العشرة ، حذب الحديث . وكان عبد المطلب أيضاً
قوى الإيمان تملك قلبه ، وتسيطر على نفسه ، زعة دينية حادة عنيفة ، ولكنها
غامضة ، يحسها ، ويخضع لها ، ولكنه لا يبينها ، ولا يستطيع لها فيها
ولا تفسيراً (٦) .

« كان فقي من قتيان قريش ، ولكنه يمتاز من بقية قتيان قريش » :
فيه ذكائهم ووطنهم ، وفيه إباؤهم وعزيمهم ، ولكن عيه دعة ، لم تكن
مألوقة عندهم ، وفيه شدة من الدين ، قلما كانوا يرضونها ، أو يتسمون بها .
على أن خصلة أخرى ميزته مهم أشد المميز : فلم يكن يصدر في حياته - كما
كانوا يصيرون - عن الروية والتفكير ، وطول التدبير ، وإنما كانت تدفعه إلى
العمل ، والاضطراب في الحياة ، قوة خفية ، يحسها ، ويأق عليها ويغلو في
الإباء ، ولكنه يضطر إلى أن يذعن لها ، ويصدر بأمرها (٧) .
وكانت هذه القوة تصدر إليه أمرها في أشكال مختلفة : تدفعه إلى العمل
حيناً وكأنها إرادته الخاصة ، قد ملكت عليه حسه وشعوره ، فهو لا يستطيع

(٥) من مقدمة « حياة محمد » للتكوير هيكلم .

(٦) انظر كتاب « على هامش السيرة » .

(٧) انظر كتاب « على هامش السيرة » .

عنها انصرفاً ، ولا يملك لها خلافاً .

وتمثل له حياً آخر شخصياً ، واضح الحامل . بين الصوت ، ولم به إذا
اشتمله النوم ، فيأمره أن يأتي كأنه وكذا من الأمور .

وكان في هذا الصوت خموض ، وكان في هذا الصوت إبهام .

وكان في هذا الصوت جلال مصدره هذا الغموض والإبهام ، وكان الفقى
بكره ، ويرتاع له ، وكان الصوت بغمزه وبلح عليه . وكان الفقى يخاف هذا
الصوت ويهواه ، وكان هذا الصوت يتجنب الفقى يؤسه من نفسه ، ويلم به
بكثر الإيثار ولم يكن هذا الصوت يقع في أدن الفقى بالفاظ كالتى تقع في آذان
الناس ، وإنما كان يصطنع ألفاظاً خاصة ، غريبة الجرس ، غريبة
المعنى ، (٨) اهـ .

أما والده - عبد الله - فقد كان صورة طبق الأصل من جده ، وكان
شعاره : « أما الحرام فالملات دونه » .

وتقول له فاطمة الختمية : إني لأعرف فيك نسك أيبك .

قبيلته : قريش : وأسرته : بنو هاشم ، وجده : عبد المطلب ، سيد قريش
إذ ذلك ، ووالده عبد الله : فكان هو محمداً .

ولقد اختاره الله للرسالة ، ولكنه ، تعالى : اصطنعه لنفسه ، قبل أن يختاره
أجل . وهذه الفترة من حياته التي سبقت البعث . كانت فترة جهاد وصراع
روحي هادئ بكل معنى الهدوء ، عنيف أشد العنف ، مستمر لا ينقطع ، فيه
الحرف ، وفيه الرجاء ، وفيه الكثير من الأمل الوثاب . الذى يشهد العزيمة ،
ويسد على اليأس القانط كل منفذ . إن هذه الفترة من حياته كانت - على حد

(٨) انظر كتاب « على هامش السيرة » .

تعبير الجند في تعريف التصوف - حنة لا صلح فيها .

كان صلوات الله وسلامه عليه ، يتوج كل عام ، جهاده الروحي المتصل ،
يشهر يقضيه في غار حراء : حيث الخلوة التامة ، وحيث التجرد المطلق أو شبه
المطلق . عن كل ما سوى الله ، وهناك في سجرة الليل ، أو في راحة النهار :
يحاول محمد أن يحطم الحجب ، وأن يخترق المساتير ، وأن يتغذ بصيرته إلى عالم
العيب فيصل إلى سدره المنتهى ، وإلى قاب قوسين أو أدنى ، حتى يشاهد الجمال
في سنائه ، والجلال في عظمته وكبريائه وجلاله .

ها هو ذا الرسول ﷺ ، يذل مجهوداً جباراً ، لا يكاد الإنسان
يتصوره ، فضلاً عن أن يأتي بمثله .

وها هو ذا ، يرى الهدف بعيداً لا يكاد الإنسان يفهمه ، فضلاً عن أن
يصل إليه .

ها هو ذا ، يرى الطريق وعثاء ، صعبة المرتقى بيد أن ذلك كله لم يكن إلا
لزيده عزماً على حزم ، وإرادة على إرادة . وتشاطاً مضاحفاً .

إنه الجهاد الأكبر ، على حد تعبير الأثر المشهور ، عن جهاد النفس
لتتركى .

وتعفى السنون ، بطيئة سريرة في آن واحد ، وجهاد الرسول ﷺ ،
لا يفرح حتى أصبح ، أو كاد ، روحاً خالصة ، أو قبساً من نور الله ، وانتهى به
الأمر إلى قرب ، يقول عنه الإمام الغزالي إنه :

« أول حال رسول الله عليه الصلاة والسلام : حين أقبل على جبل حراء
حيث تبثل ، حين كان يخلو فيه بربه ويتعبد ، حتى قالت العرب : « إن محمداً
عشق ربه » .

ثم كانت الرسالة ، وكانت المعجزة التي غيرت مجرى التاريخ :

« اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك
الأكرم ، الذي علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم » .

ويقول الدكتور هيكل :

« وجد محمد فيه (في التحنث) خير ما يمكنه : من الإيمان فيما شغلت به
نفسه ، من تفكير ، وتأمل ، كما وجد فيه طمأنينة نفسه ، وشفاء شغفة بالوحدة .
يلتمس أثناءها الوسيلة إلى ما لم يبرح شوقه يشتد إليه ، من نشدان المعرفة ،
واستلهاهم ما في الكون من أسرارها .

وكان أعلى جبل حراء - على فرسخين من شمال مكة - غار ، هو خير
ما يصلح للانقطاع والحنث ، فكان يذهب إليه طوائف شهر رمضان ، من كل
سنة ، يقيم به مكثياً بالقبيل من الزاد يحمل إليه ، ممعاً في التأمل ، والعبادة ،
بعيداً عن ضجة الناس وضوضاء الحياة ، متنسلاً للحق ، والحق وحده .
ولقد كان يشتد به التأمل ابتغاء الحقيقة حتى لقد كان ينسى طعامه وينسى
كل ما في الحياة ؛ لأن هذا الذي يرى في حياة الناس مما حوله : ليس
حقاً

« وشارف محمد الأربعين ، وذهب إلى غار حراء يتحنث ، وقد امتلأت
نفسه إيماناً بما رأى في رؤاه الصادقة ، وقد خلصت نفسه . . . وقد أدبه ربه ،
فأحسن تأديبه ، وقد أنجبه بقلبه إلى الصراط المستقيم ، وإلى الحقيقة الخالدة وقد
أنجبه إلى الله بكل روحه ، أن يهدى قومه ، بعد أن ضلوا في تيهاء الضلال ،
وهو في توجهه هذا يقوم الليل ، ويرمف ذهنه وقلبه ، ويطلق الصوم ، وتثور
به تأملاته ، فينحدر من الغار إلى طريق الصحراء ، ثم يعود إلى خلوته ، ليعود
لعبه التصوف المنفذ من الضلال

فيمتحن ما يدور بذهنه ، وما يتبين له في رؤاه .

ولقد طالت به الحال ستة أشهر ، حتى خشى على نفسه عاقبة أمره ، فأسر بمخاوفه إلى خديجة ، وأظهرها على ما يرى ، وأنه يخاف عبث الجن به . فطمأنته الروحنة المخلصنة الوقية ، وجعلت تحذره بأنه الأمين ، وبأن الجن لا يمكن أن تقترب منه ، وإن لم يدر بخاطرها ، ولا بخاطره : أن الله يبسط يده مصلطاً يده الرياضة الروحانية ، إلى اليوم العظيم ، وإلى النبأ العظيم ، يوم الوحي الأول ، ويبيته بها إلى البحث والرسالة :

وفيا هو نائم بالغار يوماً جاءه ملك وقي يده صحيفة فقال له : « اقرأ » (٩) .

• • •

هذه الحياة التي هداه الله لها - لا علم الكلام ولا الفلسفة العقلية - هي التي رسمت لنا الطريق إلى الله : طريق الكشف ، طريق الإلهام ، طريق البصيرة بل طريق المشاهدة . على ما يرى الصوفية .

وهذه الحياة التي علمتها عن الرسول ﷺ إجمالاً : قد فصلها الصوفية أدق تفصيل ، وبينوها بياناً سيكولوجياً ، غاية في الاحكام . يتدرج مع الإنسان خطوة خطوة ، حتى يصل به إلى درجة - لا نقول : إنها النهاية ، إذ ليس لمعرفة الله نهاية - يكون ما بعدها بعيداً كل البعد عن إدراك الطبايع البشرية العادية ، فلا يمكن التمييز عنه بلسان اللقال .

وهذا الطريق سماه الصوفية : معارج القدس ، وسماه : منازل السالكين ، ومدارج السالكين ومنازل الأرواح ، وهو عبارة عن المقامات والأحوال التي يسلم كل مقام منها إلى ما بعده ، وكل حال منها إلى الذي يليه ، حتى يصل

(٩) من حياة محمد (للتذكير مكي) .

الإنسان إلى القرب ، والمشاهدة . ويستغرق في ملكوت يسوع على الوصف . يقول الإمام الغزالي : « ومن أول الطريق تبتدئ للكاشفات والمشاهدات حتى إنهم في يقظتهم يشاهدون الملائكة ، وأرواح الأنبياء ، ويسمعون منهم أصواتاً ، ويقتبسون منهم فوائد . ثم يترقى الحال : من مشاهدة الصور والأمثال إلى درجات يضيئ عنها نطاق النطق » .

يقين مطلق من جانب ، وشك عميق من جانب آخر ، اختلاف شاسع ، بل تعارض وتضاد .

ومع ذلك فإن الصوفى ، والشاك ، قد يتفقان في المبدأ الذى بنى عليه كل منهما اتجاهه . أريد أن أقول - إن الحالات التى تؤدي بالصوفى إلى التصوف ، هى - فى بعض الأحيان - نفس الحالات التى تؤدي بالشاك إلى رأيه ، هذا من جهة .

ومن جهة أخرى فإن الشك نفسه ربما أدى إلى التصوف .

كلنا يعلم أن هناك طريقين للمعرفة : هما الحواس ، والعقل : فمعرفة بالشئ تتيج عن أنى أراه ، وأحسه ، أو أنى أستنتجه ، بدليل عقل . كثير من الناس ، بل الأغلبية الساحقة منهم يأخذون المعرفة الناشئة عن هذين الطريقين قضية مسلمة ، لا تقبل جدلاً ، ولا يحيط بها شك . ولكن فى العالم أيضاً ذلك الشخص ، الذى يرى أنه ما دامت الحواس تخطئ فهى ليست أهلاً للثقة إلى أرى السراب فأحسبه ماء ، وتسيطر على فكرى صورة من الصور ، وتقوى هذه السيطرة ، فأرى الصورة ممثلة أمامى والمريض يرى حبالاً ، لا حقيقة لها ، والخائف يرى أشباحاً ، ويسمع أصواتاً لا وجود لها . إن الأمثلة لا تحصى ، وكل يوم ، بل وكل فترة ، تمنطينا دليلاً على خطأ الحواس فهل بعد هذا نثق بمعرفة تأتي عن طريقها ؟ كلا .

بقى العقل ولكن ما قيمته ؟ كل يتسبب إليه ، ومع ذلك فلا نجد اثنين على اتفاق تام .

إن هذه المذاهب الفلسفية التى لا تكاد تعد كلها مبنية على العقل ، وكلها

التصوف والشك

يعرف كثير من الناس التصوف : بأنه المذهب القائل بالإلهام ، والبصيرة ، أو إذا شئت فبالعلم اللدنى : أى بهذا النوع من المعرفة اليقينية ، الذى لا يتصور فيه الشك ، ولا تبعث به السفسطة .

وإذا كان هذا التعريف غير جامع مانع فإنه - لا ريب - يرينا ما للمعرفة اليقينية من أهمية .

تخصفية الروح ليس غرضاً من أغراض الصوفية إلا أنها تمهد للاتصال بالله ، ولتلقى المعرفة عنه . ولا ريب أن معرفة تأتي عن طريق الإلهام ، هى معرفة لا يتطرق إليها الهدم ، ولا تنهار أمام حجج المطلق ، وأنت تحاول عبثاً ، إذا أردت أن تبعث الشك فى نفس الصوفى ، أو أن تحوله عن رأيه ، إذ كيف يجيد عن فكرة ، يعتقد أنه تلقاها عن الملائ الأعلى ، فى فترة صفت فيها روحه ، وتطهرت ؟ وكيف يكون على باطل وهو يعمل وفق إرادة وتعاليم عليا سامية ؟ على العكس من ذلك تماماً نرى الشاك : فهو شخص لا يعترف بحقيقة ، أولاً يعترف بأن هناك طريقاً يوصلنا إلى معرفتها ، على فرض وجودها ، وعشاً نحاول أن نقتنعه بعقيدة ما ، إذ هو لا يقتنع إلا بالشك ولا يرضى عن رأيه بدليلاً وإن يدهش لشيء فإنما يدهش لعدم اقتناعك بفكرته فى الشك يعطيك على صحته البرهان ، ثل البرهان ، والحجة ثل الحجة حتى تمتد فى النهاية ، بأن رأيه له منطقه .

مؤسسه عليه ، وقائمة به ، وكلها جذابة أعاذة نعى بقوة أدلتها . وتستول عليك بصرامة منطقتها ، ومع ذلك فلا تكاد تصق في شيء .

ثم ماذا ؟ ألم يبرهن أحدهم ببرهان عقل ، منطلق على أن الأرب لا يلحق بالسلفاة - مها أسرع في العدو - إذا بدأت السلفاة قبله وسبته بمر ، أو
- - متزين ؟

ألم يبرهن أحدهم على أن السهم في سيره لا يتحرك ؟

وأنت نفسك : أليست آراؤك في حالة التناؤم ، غيرها في حالة أخرى ؟ وفي حالة السرور ، غيرها في حالة الحزن ؟

ثم البراهين ، التي ترى قوتها ، وتعقد فيها حالة الحلم ليست أقل من أن يقال عنها : إنها براهين عقلية . .

هكذا إذا أخذت في تعداد الأمثلة على أخطاء العقل ، فإنك لا تكاد تقف عند حد .

• • •

أخطأت الحواس فلا ثقة فيها ، وأخطأ العقل فلا ثقة به ، فهل معنى ذلك أن لا سبيل إلى المعرفة الحقيقية ؟

يبيينا الشاك نعم ، وسنمكث إلى الأبد محكوما علينا ، بالجليل ، أو إذا شئت ، بعدم المعرفة الصحيحة .

ولكن الصوف - بعد أن سار هذه الخطوات ، ووصل إلى المنك في قيمة حوس والعقل . وفي قيمة المعرفة الناشئة عنها - يعود فيثبت المعرفة عن طريق

آخر : هو الإلزام ، أو البصيرة ، أو العلم اللدني ، كما يقولون

دن : قطع الصوف ، والشاك المرحلة الأولى معا ، فوصلا إلى الشك ،

مرصى به أحدهم ، واتمعت بأن لا مطمع وراءه ، وخطا الآخر خطوة أخرى ، خطاها لا يضع لنفسه منطلقاً ، أو مسيحاً يسير عليه ليحتصم من الزلل الذي توقعه به حواسه ، ويوقعه فيه عقله - كما يفعل العلاسفة - وإنما ليصل إلى معرفة من طريق آخر ، لا يتسرب إلى نتائجه شك .

لنلق الآن نظرة على النفس الإنسانية ، فنرى أنها لا تحب الإقامة على الشك ، ولا ترعب في اتحاد الإنكار مذهباً ، وقاعدة ، وأنها - على كثرة حينا للمعرفة ، وشغفها بالاستطلاع - تريد دائماً أن يجعل اليقين قاعدة آرائها ، وأعمالها .

ونرى - أيضاً - أن من أشق أوقات الإنسان ، تلك الفترات التي تضطرب فيها نفسه ، وتتذبذب آراؤه ، ويختلط عليه الأمر .

هذه الحالة تبعث في النفس الضيق ، والكآبة ، فإذا اشتدت واستمرت سببت أحياناً الانتحار . وأحياناً الجنون ، ولكنها - أيضاً في بعض الأحيان - تؤدي إلى التصوف .

نعم ! تؤدي إلى التصوف : حيث يجد الشخص ملجأ تستقر فيه نفسه ، وتهدأ ، وتسكن ، وحيث يجد اليقين ، والإيمان والعلم الثابت :

لقد كان « الحارث بن أسد الخاسي » متعطشاً إلى المعرفة ، والبحث والاطلاع ، وإلى الوصول لرأى لا يتوره الشك ، إلى رأى يقيني ، ثابت لا يتزلزل .

ولكنه بعد أن بحث ، زاد حيرة - بدل أن يزيد إيماناً - واضطربت نفسه وحشى أن يأتيه الموت فجأة قبل - يتصم بحمل الله المستقيم - فكذ وجد ، ثم

يشس من أن يصل إلى النتيجة

ولكن الله وفقه في النهاية إلى الاتصال بقوم صالحين فسكن إليهم وأحلد ،
سكن إليهم وأحلد ، لا لأن متطهين أوجد عنده اليقين ، ولا لأن براهينهم
بعثت في نفسه الاطمئنان ، وإنما لأن سباهم على وجوههم تيمت الثقة ،
وتهدى إلى الرشاد .

لتدع المحاسبي نفسه بصور حالته - والنص الذي ثبته الآن من مخطوط له
بدار الكتب المصرية ، اسمه : « النصائح » (١٠) - وقد تضمنت إثبات هذا
النص كاملاً ، لما بينه وبين كلام الغزالي في كتابه : « المقتد من الضلال » من
شبه ، يهيم كل باحث في التصوف معرفته :

قال المحاسبي بعد مقدمة موجزة :

« أما بعد فقد انتهى إلينا أن هذه الأمة تفرقت على بضع وسبعين فرقة ، منها
فرقة ناجية ، والله أعلم بسائرهما ، فلم أزل - برهة من عمرى - أنظر في اختلاف
الأمة ، وأنسج المنهاج الواضح والسييل القاصد وأطلب من العلم والعمل
وأستدل على طريق الآخرة بإرشاد العلماء ، وعقلت كثيراً من كلام الله عز وجل
بتأويل الفقهاء .

وتدبرت أحوال الأمة ونظرت في ملامحها ، وأقاولها ، ففقت من ذلك
ما قلدر ، ورأيت اختلافهم بجرأ عميقاً ، غرق فيه ناس كثير ، وسلم منه عصابة
قليلة ، ورأيت كل صنف منهم ، يرعم أن النجاة في اتباعهم ، وأن المالك من
خالعهم .

ثم رأيت الناس أصنافاً : فمنهم العالم بأمر الآخرة ، لقاؤه عسير ووجوده
عريض .

(١٠) طبع الكتاب أسيراً بعنوان « الوصايا في القاهرة ، (مكية صبح)

ومنهم الجاهل ، فالبعد عنه غشيمة .
ومنهم المتشبه بالعلماء مشغوف بدنياه مؤثر لها .
ومنهم حامل منسوب إلى الدين ملتزم بعلمه العظيم والعلو ، ينال بالدين
من عرض الدنيا .

ومنهم حامل علم لا يعلم تأويل ما حيل .
ومنهم مشبه بالنسك متجر بالخير لا عناء عنده ، ولا بقاء لعلمه ولا معتد
على رأيه .

ومنهم منسوب إلى العقل والدهاء مفقود الورع والتق .
ومنهم متوادون ، على الهوى يتفقون ، وللدنيا يتبادلون ورياستها يطلبون .
ومنهم شياطين الإنس ، عن الآخرة يصدون ، وعلى الدنيا يتكالبون ، وإلى
جمعها يهرعون ، وإلى الاستكثار منها يرغبون ، فهم في الدنيا أحياء ، وعن
العرف موتى ، بل العرف عندهم منكر ، والسوء معروف .
ففضقت في الأصناف نفسى ، وصفت بذلك ذرعاً ، فقصصت إلى هدى
المهتدين ، بطلب السداد والهدى ، واسترشدت العلم . وأعملت الفكر ،
وأطلت النظر .

فتبين لى في كتاب الله تعالى ، وسنة نبيه وإجماع الأمة ، أن اتباع الهوى
يعمى عن الرشاد . ويضل عن الحق ويظليل المكث في العمى .
فبدأت بإسقاط الهوى عن قلبي

ووقفت عند اختلاف الأمة مرتداً لطلب البرقة الناجية ، حذراً من الأهواء
المردية ، والفرقة المهلكة ، متحذراً من الاقتحام قبل البيان ، والجمت بين
النجاة لهجة نفسى .

ثم وجدت باجتماع الأمة في كتاب الله المتزل ، أن سبيل النجاة في العمل يتقوى الله ، وأداء فرائضه والورع في حلاله وحرامه ، وجميع حدوده والإخلاص لله تعالى بطاعته ، والتأسي برسول الله ﷺ .

فطلبت معرفة الفرائض والسد عند العلماء في الآثار ، فرأيت اجتماعاً واختلافاً ، ووجدت جميعهم مجمعين على أن الفرائض والسد عند العلماء بالله . وأن الفقهاء عن الله العاملين برضوانه ، الورعين عن محارمه ، التأسي برسوله ﷺ المؤثرين الآخرة على الدنيا : أولئك للمتسكون بأمر الله ، وسر المسلمين .

فالتفت من بين الأمة هذا الصنف المجمع عليهم والموصوفين ، أفقر آثارهم ، وأقبح من علمهم ، فرأيتهم أقل من القليل ، ورأيت علمهم متدسراً كما قال رسول الله ﷺ : « بدأ الإسلام عربياً ، وسيعود عربياً كما بدأ ، فطوبى للعرباء ، وهم المنفردون بعلمهم .

فمنعت مصيبي بفقد الأدلاء الأتقياء ، وخشيت بفتنة الموت أن يضجاني على اضطراب من عمري لاختلاف الأمة .

لأنكشت في طلبي حالاً لم أجد لي من معرفته بدءاً ، لم أقصر في الاحتياط ولم أن (١١) في النصيح .

فقيض لي الزهوف بمباده ، توماً وجدت فيهم دلائل التقوى وأعلام الورع ، وإيثار الآخرة على الدنيا ، ووجدت إرشادهم ووصاياهم موافقة لأفاهيل أئمة الهدى : مجمعين على نصيح الأمة ، لا يرجون أحداً من معصيته ، ولا يقنطون أحداً من رحمة ويوصون كل واحد بالصبير على النساء والصراء ،

(١١) أفقر ولم أثبت .

والرصا بالفضاء والشكر على النعماء ، يحبون الله تعالى إلى العباد ، بذكرهم أيا ديه وإحسانه ، ويحثون العباد على الإنابة إلى الله تعالى ، علماء بظمة الله تعالى وعظيم قدرته ، وعلماء بكتابه وسنه فقهاء في دينه ، علماء بما يجب ويكره ، ورعين في البدع والأهواء ، تاركين التعمن والإغلاء مبغضين للجدال والمراء ، متورعين عن الاغتياب والظلم والأذى ، محالين لأهوائهم ، محاسنين لأنفسهم ، مالكين لجوارحهم ورعين في معاصيهم وملابسهم وجميع أحوالهم ، محابنين للشهوات ، تاركين للشهوات ، مجتزين بالبلغة من الأقوات ، متقللين من المباح زاهدين في الحلال مشفقين من الحساب ، وجلين من العباد مشولين بينهم ، مؤثرين على أنفسهم من دون غيرهم ، لكل امرئ منهم شأن يفيه .

علماء بأمر الآخرة وأهاول القيامة ، وجزيل الثواب وأليم العقاب ، ذلك أورثهم الحزن الدائم والحلم المضي ، فشطوا ، من سرور الدنيا ونعيمها .

ولقد وصفوا للآداب صفات وحلدوا للورع حدوداً ، ضاق لها صدرى وعطمت أن آداب الدين وصلح الورع ، بحر لا ينجر من الفرق فيه شبيهي ، ولا يقوم بحدوده مثل .

فبين لي فضلهم ، واتضح لي نصيحهم ، رأيت أنتم العالمون بطريق الآخرة ، والمتأسون بالمسلمين ، والمصابيح لمن استضاء بهم ، والهادون لمن استرشد بهم .

فأصبحت راغياً في مذهبهم مقتبسا من فوائدهم ، قابلاً لآدابهم ، محباً لطاعتهم لا أحل لهم شيئاً ، ولا أؤثر عليهم أحداً .

ففتح الله لي علماً افتتح لي برهانه ، وأنار لي فضله ورجوت النجاة لمن أقر

به أو انتحله ، وأيقنت بالثبوت لمن عمل به ، ورأيت الاحوجاج فيمن خالفه ، ورأيت الرين متراكماً على قلب من جهله وجحدته ، ورأيت الحجة البالغة لمن همه ورأيت انتحاله ، والعمل بملوده ، واجياً على واعتقدته في سريري وانتويت عليه بضميري وجعلت أساس ديني وبنيت عليه أعمالاً وتقلبت فيه بأحوالي .

وسألت الله عز وجل : أن يوزعني شكر ما أنعم به علي ، وأن يقويني على القيام بجدود ما عرفني به معرفتي بتقصيري في ذلك . وإني لا أدرك شكره أبداً ، انتهى كلام المحاسبي .

وليس المحاسبي بدعاً في ذلك وإنما يتفق معه الإمام الغزالي ، بل الإمام الغزالي أوضح وأدق :

حاول أن تصور معي حالة الإمام الغزالي النفسية فستجده متلهفا على المعرفة محبا للاطلاع والدرس والبحث ، غارقاً في محيط الفلسفة والعلم ، ولكنه مع كثرة اطلاعه وتنقيبه لم يجد في المذاهب الفلسفية ما يرضيه ولم يجد في الأدلة العقلية المؤسسة عليها هذه المذاهب ما يقنعه .

ورأى أن من العبث أن يبدأ في تأليف ملهب فلسفي جديد ، إذ مصير ذلك - حتماً - مصير ما سبق من المذاهب التي وإن أخذت بألباب كثير من الناس ، فإنها لا تثبت أمام النقد الصارم . والتي تبعث التفرقة :

إذ ليس فيها من القوة البرهانية ما يقنع الجميع .

ليس هناك إلا الشك إذن :

وفي الواقع : لقد شك الإمام الغزالي : شك في الحواس وشك في العقل ، وشك فيما يتبع عنها :

ولكن نفسه اضطربت ونحل جسمه ، وضاق بالحياة ذرعاً ولم يجد ملجأً ولا عاصماً من هذه الحيرة وهذا الاضطراب إلا التصوف ، فولوج بابه واطمأن إليه .

وكتابه : « المنقذ من الضلال » الذي يقص فيه تطوره الفكري ، يصور هذا خير تصوير .

وكما يبدأ المحاسبي بحديث : « متفترق أمتي ثلاثاً وسبعين فرقة ، الناجية منها واحدة » كذلك يبدأ الغزالي هذا الحديث ، وتكاد بعض جملة تكون مأخوذة من كلام المحاسبي نصاً : بما دعا بعض المستشرقين إلى أن يذكر : أن الغزالي - في كتابته لكتابه هذا - تأثر بالمحاسبي في كتابته لمقدمة كتاب « الصائغ » . وسواء كان صحيحاً أم غير صحيح فما لا شك فيه أن الإمام الغزالي قرأ هذا الكتاب ، إذ أنه استشهد ببعضه في « الإحياء » .

والذي يعيننا الآن : هو أن الإمام الغزالي - كما يصور في كتابه - بدأ يشعر بعدم الاطمئنان حينما فكر في هذا الحديث الشريف ، وحينما رأى أن اختلاف الخلق في الأديان والملل ، ثم اختلاف الأئمة في المذاهب - على كثرة الفرق ، وتباين الطرق - بحر عميق : غرق فيه الأكثرون ، وما نجا منه إلا الأقلون ، وكل فريق يزعم أنه الناجي ، وكل حزب بما لديهم فرحون .

لهذا أخذ الإمام الغزالي في البحث جهد طاقته ، ليصل إلى اليقين الذي ينكشف فيه المعلوم انكشافاً لا يبقى معه ريب ، ولا يقارنه بإمكان الغلط والوهم ولا يتسع القلب لتقدير ذلك ، ثم يقول :

« وعلمت أن كل ما لا أعلمه على هذا الوجه ، ولا أتيقنه هذا النوع من

الدين ، فهو علم لا ثقة به ، ولا أمان معه ، وكل علم لا أمان معه ، وليس يعلم
بشيء .

ثم فحشدت عن علمي ، فوجدت نفسي عاطلاً من علم موصوف بهذه
الصفة إلا في الحسيات والضروريات . ولكن :

« انتهى في طول التشكيك إلى أن لم تسمح نفسي بتسليم الأمان في
الحسيات أيضاً . »

ثم أخذ الإمام الغزالي يذكر أسباب شكك في الحسيات وفي الضروريات وفي
العقليات ، وقد ذكرنا طرفاً منه آنفاً .

واستمر الإمام على تلك الحالة حتى شق الله تعالى من ذلك المرص ،
وعادت النفس إلى الصحة والاعتدال ، ورجعت للضروريات العقلية مقبولة
موثوقاً بها على أمن ويقين .

لم يكن ذلك بطم دليل . أو ترتيب كلام ، بل بتودقده الله تعالى في
الصدر وذلك النور : هو مفتاح أكثر المعارف ، فمن ظن أن الكشف موقوف
على الأدلة المهررة ، فقد ضيق رحمة الله الواسعة .

ولما سئل رسول الله ﷺ عن « الشرح » ومعناه في قوله تعالى :

« لمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام » قال :

« هو نور يقذفه الله تعالى في القلب » .

فقيل : وما علامته ؟ فقال :

« التجاف عن دار الغرور ، والإنابة إلى دار الخلود » ، وهو الذي قال عليه
عليه الصلاة والسلام فيه :

« إن الله تعالى خلق الخلق في ظلمة ، ثم رش عليهم من نوره »

من ذلك النور : يبغى أن يطلب الكشف ، وذلك النور ينحس من الجود

الإلهي في بعض الأحيان ، وبحسب التردد له كما قال عليه السلام :

« إن لربكم في أيام دهركم فحاحات ، ألا فترضوا لها . »

هذا الشك الذي حدا بالغزالي إلى التصوف ، كما حدا بالمجاسبي قبله ، هو

شك أتى من البحث وراء الحقيقة .

• • •

ولكننا لا نريد أن نقول : إن هذا النمط من الشك هو وحده : أساس

التصوف ، وإنما نريد أن نقول : إن أساس التصوف - في بعض الحالات :

هو شك على نحو ما ، سواء كان هذا الشك يتصل بالناحية الفكرية ، أو

بالناحية الاجتماعية ، أو بالناحية الوجدانية .

فهذا الشخص الذي صدم في عاطفة من عواطفه ، وكثيراً ما تكون عاطفة

الحب ، تلك العاطفة القوية ، الجماعة ، التي تهب النفس هزاً ، والتي تؤدي

كثيراً إلى الانتحار .

هذا الشخص الذي صدم في تلك الناحية : قد تصل به الصدمة إلى الشك

في كل شخص ، أو إلى الشك في أن يجد مثاله الأعلى في هذه الحياة ، مبتجه

إلى حياة العزلة والانفراد ، أو يعتكف في مسجد ، أو في بيته هابداً مصلياً طالباً

من الله أن يكون عاهداً ، وأن يكون ساجداً ، وأن يصرف عنه السوء

وهذا الشخص الرقيق المزاج ، الذي يرى في كل آونة ظلم الناس ، وفساد

الحياة ، والذي لا يجد في نفسه القوة من الجلال والصراع ، والذي يصل به

الأمر في النهاية إلى الشك في المجتمع ، وفي أهله ، فيضيق بالحياة ذرعاً : لا يجد

ملأ من أن يتكف متأملاً مفكراً في مثل حليا ، أو في حياة أخرى ، أو في ملا
أهل ، صفت فيه النفوس وتطهرت ، وسعت عن كل دنس .
وهكذا إذا بحثنا في حياة الذين أطلق عليهم اسم الصوفية ، فإننا نجد عند
البعض نقطة الارتكاز : الشك .

الشك ومدارج السالكين

ولكن تلك الحياة التي يتوجهون إليها تلك الحياة الجديدة التي أحدثت من
النفوس كل مأخذ . والتي انجهوا إليها في محس وحرارة . لا تزال من أنفسهم
الشك بجميع ألوانه .

حقيقة إنها تزال من أنفس هؤلاء الذين شكوا من الناحية الدينية : الشك
في تلك الناحية . وتنسى الآخرين : الشك الذي دفعهم إلى حياة التصوف
دفعاً .

ولكن النفس التي تتجه إلى الحياة الدينية في حريرة ومحس ، إنما تتجه نحو
الكمال من الناحية الدينية ، وهذا الكمال أول ما يبدأ ، يبدأ بالتوبة .

ومن المعقول ، ومن المنطق : أن ذلك الشخص الذي انجه في محس إلى الناحية
الدينية ، يرى في ماضيه كثيراً من الأخطاء ، فلا تبدأ نفسه ، ولا تستقر .
إلا إذا حضع لله ساجداً ، مستغفراً لنفسه ، طالباً من الله الصمغ والرضا
ولكنه لا يكاد يتحلى تلك الفترة ، إلا ويعرض له الشك في كثير مما يتصور
بجوانبه العادية اليومية ، ويكاد يتساءل في كل لحظة : أهذا حلال أم حرام ؟
طيب أم خبيث ؟ حسن أم قبيح ؟ يرضى الله أم لا يرضيه ؟ ويتحرج في المأكل
والمشرب والملبس ، وهذا هو « الورع » .

ولكنه مها تخرج في مأكله ومشربه وملبسه ، وبها تحفظ واحتياط ، فيه
سيجد دائماً . أن ذلك لا يكفي ويشك في كل لحظة ، وآونة ويندم على ما فات
وتقوى في نفسه الحرارة الدينية ، فيرى أن كل ما يتصل بالحياة الدنيا إن هو

لم يقل الصوفى ، ولا يمكن أن يقول : إن معنى الرضا هنا انقطاع كل الرغبات والشهوات ، أو زوال الآمال والطموح . كلا ! إنما معناه أن تلك الشهوة التي كانت تودى بصاحبنا . وتجمعه يعود إلى حياته الأولى هداة . وانتصرت عليها الناحية الروحية .

وليس السبب في هذا - حسب رأيه - قوة إرادة أو ذاتية ، وإنما ذلك توفيق من الله ، تلك معونة منه أراد به خيراً : أراد به الهداية والرشد
فإذا استحق ذلك الخالق . الذى أعانه من غير أن يكون ، سبحانه ، في حاجة إليه ، والذى هداه من غير أن يكون في تلك الهداية نفع للخالق . جل وطلا ؟

إنه إذا لم ينصرف إلى الله انصرافاً كلياً وجزئياً كان مقصراً .
وليس كل التصغير في مرتبة واحدة : فذلك تقصير في حق الإله . الذى منح الحياة . والذى أفاض النعم والذى غمره الطمئنان النفس ، وانتشله من الضلال ، ورفعه إلى مكانة منحه فيها معونته وتوفيقه .

ويبدأ الشك في عملجات نفسه ، وفيها يبدو : من دقائق الرياء ، ثم ينتهى إلى الانصراف المطلق - في حدود الإمكان - إلى الذات العليا الكاملة .
ولكن هذه الذات ، معها فكر فيها ، وتأمل ، يجد دائماً في نفسه الرمية منها فيزيده ذلك انصرافاً إليها ، وتجذب في نفسه الانصراف إلى الله ورجة ، حتى إذا استمر في ذلك ، مسح الله من فيه . وتحولت الرمية شيئاً شيئاً إلى حب عميق ، ثم إلى رؤية الله في كل ناحية ، وفي كل جانب ، أو في كل مكان ، ثم إلى الفناء في تلك القوة ، التي أخذت عليه سمعه وبصره ، فأعلن أو أسر .
ألاكل شيء ما خلا الله باطل .

الإلهو ، ولعب وضلال وباطل ، وأن خبر طريق - إن أراد الهداية أو الرشد - هو « الزهد » في تلك الحياة ، التي لا تساوى عند الله جناح بعوضة .
« توبة » - ثم « قوع » - ثم « زهد » ، تلك هي - بالتتابع - بعض

ما يسيبه « الصوفية » : مقاماتهم .
ولكن الكمال - كما قلنا - ليس له من غاية ، أو من حد . ثم وصل صاحبنا إلى الزهد في تلك الحياة ، ولكن أهدأ هو المطلوب ؟ إنه إنسان ؛ وطبيعته الحيوانية - معها قوت إرادته - تجذبه إلى الحياة الدنيا ، وترغبه فيها وتثبت فيه السخط على حياته ، ويحصل ذلك الصراع العنيف بين المادة والروح ، الذى صور « الحاسبي » في كتابه : « بدء من أناب إلى الله » ، وفي كتاب « الرعاية » تصويراً دقيقاً إلى أقصى حد من الدقة .

هذا الصراع - يبعث في نفس الصوفى اضطراباً لا مزيد عليه ، بل يبدأ الصوفى يشك في نفسه ، إلى قيمته الداتية ، ويكاد يصل به الأمر إلى أن يعتقد في تحلل المنة ، أو التوفيق الإلهي عنه ، لأنه ليس أملاً لها : ويجده في تلك الآونة يبكى ويتألم ويضرع إلى الله أن يمنحه معونته « وأن يصفح عنه ، إذا كان قد أخطأ بدون علم منه . ويعترف بأن لا قيمة له في الواقع ، أمام تلك القدرة العظيمة وكل ما يروجوه : أو يأمله إنما هو : أن يكون عبداً وأن يحمه السيد شيئاً من عنايته أو توفيقه أو رضاه .

يستمر صاحبنا كذلك فترة طويلة أو قصيرة ، وتثور روحه آونة بعد أخرى على الناحية المادية . تكبح من جماحها ، وتهدئ من ثورتها . حتى تصل إلى الرضا .

ولكن أذلك هو الكمال ؟

ولا بد للصوفى من دوام الحركة ، بدوام الاضمار ، ودوام الفرار وحسن
التفقد لمواقع إصابات النفس .
ومن وقف على هذا المعنى يجد في معنى : « الصوفى » جميع التفرق فيه
والإشارات : ا هـ .

أما بعد : فإني أعتقد أنني ابتعدت كثيراً في كل ماستق : في موضوع :
التصوف والشك ، عن النص الآتي ، بل أعتقد أن كثيراً مما سبق ، لم يكن
إلا شرحاً له .

والنص : للسهروردي ، ذكره في كتابه : « حوارف المعارف » في نهاية
الفصل المعنون : « ماهية التصوف » .

قال السهروردي :

وأقول المشايخ في ماهية التصوف . تريد على ألف ، ويطول قلبها .
وتذكر ضابطاً يجمع جل معانيها فإن الألفاظ - وإن احتلت متقاربة
المعاني ، فنقول :

« الصوفى » هو الذي يكون دائم التصفية ، لا يزال يصنى الأوقات عن
شوب الأكدار ، بتصفية القلب عن شوب النفس .

وبينه على هذه التصفية ، دوام افتقاره إلى مولا ، فدوام الافتقار ينق
من الكسر ، وكلما تحركت النفس ، وظهرت بصفة من صفاتها أدركها ببصيرته
الناقدة وفر منها إلى ربه ، فدوام تصفيته جمعته ، وبمركبة نفسه فركه وكلره
فهو قائم بربه على قلبه ، وقائم بقلبه على نفسه ، قال الله تعالى :

﴿ كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ﴾ وهذه القوامية لله على النفس هي

التحقق بالتصوف :

قال بعضهم : والتصوف كل اضطراب ، فإذا وقع السكون فلا تصوف .
والسريه : أن الروح مجذوبة إلى الحضرة الإلهية ، يعني أن روح الصوفى
منطقة مسجدة إلى مواطن القرب ، وللنفس بوضعها رسوب إلى عالها وانقلاب
على عقبها .

الإمام الغزالي يرسم طريق المعرفة

١- إن البحث العقلي في الإلهيات أمر طبيعي بالنسبة للمفكرين الذين نشأوا في أقاليم لا يوجد فيها كتاب مقدس ، إنه من الطبيعي أن يوجد في هذه الأقاليم رجال يحاولون ابتداع مذهب فيما وراء الطبيعة : ذلك أن الإنسان بفطرته طامع ، وهو يحاول دائماً معرفة العلل والأسباب ، وينشوف إلى رؤية المجهول ، إلى الكف عن عالم الغيب .

أما في البيئات التي فيها نص مقدس ، يحفظ بضرته ولا يشك إنسان في صحته ، فإنه من غير الطبيعي أن ينشأ بجوار هذا النص المعصوم اختراعات ذهنية تتصل بعالم الغيب . ذلك أن ثمرة التفكير الإنساني عرضة للخطأ ، والخطأ في الذات الإلهية أو في الصفات الإلهية ، الخطأ في عالم الغيب على وجه العموم فيه خطورة كبيرة .

الطريق المستقيم إذن : هو ألا ينشأ بجوار النص المقدس اختراع عقلي يتصل بعالم الغيب تلافياً لما عساه أن يكون في نتائج البحث العقلي من أخطاء التسليم للنص المقدس إذن هو المبدأ السليم عند ذوى العقول الحكيمة ، وقد حدث مرة أن أخذ سقراط ورفقاؤه يتحدثون عن خلود النفس ، ويحاولون إقامة الأدلة على ذلك ، فلا يكاد يستقيم لهم الأمر في يقين جارم ، ثم « بسكت سقراط ، ويسكت الجميع ويمد هنية يقول « سيمياس » : إن العلم بحقيقة مثل هذه الأمور ممنوع أو عسير جداً في هذه الحياة ، ولكن من الحزن اليأس من البحث قبل الوصول إلى آخر مدى العقل ، فيجب إما الاستيثاق من الحق ،

وإما - إن امتنع ذلك - استكشاف الدليل الأقوى والتفرع به في اجتياز الحياة ، كما يجاطر المرء بقطع البحر على لوح من خشب مادام لا سبيل لنا إلى مركب آمن وآمن ، أعني إلى وحي إلهي (١٢) .

المركب الآمن والآمن في رأى « سيمياس » هو اوحى الإله ومعنى ذلك - في وضوح لا يس فيه - : أنه لو كان لدى سيمياس ، أو لو كان في العهد اليوناني نص مقدس صحيح لاستسلم إليه الجميع دون نقاش أو جدل . أما استعمال العقل في عالم الغيب فإنه في أغلب الأحيان مخاطرة لقطع البحر على لوح من خشب ، وهيات أن ينجو من يفعل ذلك !

واستسلم المسلمون الأوائل للنص المقدس متبعين في ذلك الطريق القويم ، ومضى الصدر الأول للإسلام دون جدال في العقيدة ودون محاولة عقلية للاختراع بها وراء الطبيعة ، أو بتعبير آخر ، دون محاولة عقلية لتحديد ما لا يحد وتقييد ما لا يقيد .

٢- وكان أول انحراف منظم قوى عن هذا المبدأ السليم هو الطريق الذي سلكه واصل بن عطاء ، وعمر بن عبيد ومدرستها . إنهم لم يتعمدوا انحرافاً ، ولا خروجاً عن الطريق السوي ، وإنما خيل إليهم أن عملهم إنما هو خدمة للإسلام وخدمة للمسلمين ، ولكمهم بعملهم هذا حكموا العقل القابل للخطأ في الدين المعصوم ، بل لقد أخذوا في وضع قانون تشريعي يفرص على الله سبحانه وتعالى الفروض . لقد أخذوا بوجوده عليه ، ويمعنون عليه ، فهو سبحانه - على رأيهم يجب عليه أن يفعل كذا . . . ويجب عليه ألا يفعل كذا ، وحكموا ، هكذا عقولهم في الدين وفي الله وما دام عقل كل إنسان يختلف عن

(١٢) يوسف كرم : تاريخ الفلسفة اليونانية .

ظل الآخر قد انقسمت المدرسة الاعتزالية إلى مدارس ومذاهب لا تكاد
تُحصر.

وكانت النتيجة لتحكيم العقل في الدين أن بدأ الافتراق والاختلاف العقدي
في بيئة الإسلام.

لم يستسلم للمعتزلة استسلام المؤمن للمترقب بعجزه وقصره تجاه الذات
الإلهية ، كما فعل الصدر الأول ، إنما وثقوا بمقوّم الثقة المطلقة ، فكان من
نتيجة ذلك الشقاق والتفرق .

وحينما بدأ المسلمون في أوائل العصر العباسي يترجمون الثقافات الأجنبية
فإنهم لم يستغنوا ترجمة الإلهيات والأخلاق ، ذلك أن يقينهم للمطلق في نصهم
المقدس جعلهم يستنبطون بكل ما عداه مما يتصل بما وراء الطبيعة أو بالأخلاق ،
وكان موقفهم ذلك سليماً كل السلامة ، ذلك أن كل فكرة أو كل رأي متصل
بما وراء الطبيعة يخالف ما أتى به الوحي إما أن يكون خرافة أو يكون ضلالاً
عقلياً ، والحياة الجادة لا تستسيغ إنفاق الزمن في حراسة مخارقات أو أضراب
عقلية

ونكس المأمون ، ومن ورائه المعتزلة ، فعلوا ما امتنع جمهور المسلمون عن
فعله . فترجموا إلهيات اليونان وأخلاق اليونان ، فأصبح بذلك الاختراع العقلي
أو البحث العقلي أو الابتداع العقلي في الدين ، أرسطراطية عقلية يجرى وراءه
الكثيرون .

٣- ونشأ الفلاسفة ، وأخضع الفلاسفة كل شيء لعقولهم ، وأخذوا
يرسمون القواعد ويقومون الأدلة ، ويتعمدون كثيراً أو قليلاً عما فهمه المسلمون
من رسولهم ، وما استشعروه من الروح العامة للإسلام على وجه العموم .

والواقع أن إقامة ما وراء المادة على العقل ، إنما هو شهوة أو هوى ، ذلك
أنه منذ ابتداء العهد اليوناني وهذا النتيج من البحث في إخفاق متتابع ، و
فشل مستمر وفي تناقض ملازم ، ورجاله يناقض بعضهم بعضاً ، ويهدم كل
ما بناه الآخرون ، وعلى توالي الزمن تنهار الآراء وتشت آراء آخر لا تلبث أن
تنهار ، وهكذا دواليك .

ومع رؤية كل باحث عقلي لهذه النتائج المنهارة باستمرار ، فإن ذلك لم يقم
عظة واعتباراً في نظرهم ، واستمروا على الطريقة العقلية رغم رؤيتهم في وضوح
مآل بحوث سابقهم المتناهية .

٤- ونشأ الإمام الغزالي ، وكان من توفيق الله أن الإمام الغزالي منح طبيعة
طلعة ، ودهناً ثاقباً ، وتفكيراً حكماً ، وأنيحت له تربية دينية سليمة منذ نشأته
الأولى ، وأخذ تفكيره يجرى في جميع المناحي الدينية . فلاحظ أن اختلاف
الخلق في الأدب والمثل ، ثم اختلاف الأئمة في المذاهب على كثرة الفرق وتباين
الطرق : بحر عميق غرق فيه الأكثرون ، وما يحا منه إلا لأقرب فالتحتم لجة هذا
البحر العميق ، ونحاض غمرته نحوض الجسور ، لا نحوض الجبان الحفوز ،
وتوغل في كل مظلمة ، وتهجم على كل مشكلة ، وتحم كل ورطة ، وتفحص
عن عقيدة كل فرقة . وكان نتيجة ذلك كله أن فقدت في العلم ، ووجدت نفسه
عاطلاً عن علم يقيني ، فأراد أن يبدأ من البساط وأن يجعل أساسه قوياً متيناً
حتى ينتهي إلى اليقين المطلق فيما يعلم

ولكنه اختبر الثقة في الحساب فلم تسمح نفسه بالتسليم باليقين فيها وامتنع
الثقة بالعقليات فانهارت العقليات (١٣) .

(١٣) المقلد من الضلال

ومر إذن الإمام الغزالي بتجربة قاسية ، هي تجربة الشك في الحسيات والعقليات ، فاستمر على ذلك شهرين هو فيها على مذهب السفسطة « بحكم الحال ، لا بحكم النطق والمقال (١٤) » .

ثم شفاه الله تعالى من ذلك المرض « وحادت النفس إلى الصحة والاعتدال ، ورجعت الضروريات العقلية مقبولة موثوقاً بها على أمن ويقين . ولم يكن ذلك بنظم دليل ، وترتيب كلام ، بل بورد قذفه الله تعالى في صدره . وذلك النور هو مفتاح أكثر المعارف (١٥) » .

خرج الإمام الغزالي من هذه التجربة على نور من ربه ، وعلى بصيرة من نصيه محاول ما استطاع أن يرسم الطريق الصحيح للشغوفين بالمرقة ، والمتطلعين إلى الهداية والمستشرقين إلى العلم بالملأ الأعلى . لقد أراد أن يسلك الطريق الذي يرضى اتباعه الله ورسوله ، أراد أن يرسمه سحياًرى والمتطلعين إلى الهدى والشاكين الآملين في اليقين . وللمسترشدين الذين يريدون أن يعتمدوا بحبل الله المتين .

أراد أن يرسم هذا الطريق بعد تجربة مر بها ، فرسمه في ثقة المجرّب وفي بحكم الخبير .

بـ الأساس الخادع الذي لا يبدو أن يكون هوة عميقة يتردى فيها الكثيرون إنما هو إرادة تشييد ما وراء الطبيعة على العقل ، لما للعقل بالنسبة إلى ما وراء الطبيعة إلا السراب الخادع الذي غرر بكثير من الظالمين إلى معرفة الغيب . ثم إن هذا الاتجاه خطر على الدين نفسه :

نه من جانب انصراف عن النص الإلهي إلى للعقل .

(١٤) للفت من الصلال

(١٥) للفت من الضلال .

ومن جانب آخر إقامة مصدر لمعرفة الغيب غير النبوة .

وفي ذلك لاشك صرف للناس من التأمل في النص المقدم كمصدر لمعرفة الإلهيات ، وفيه كذلك تقليل من شأن النبوة .

ومجم الإمام الغزالي بكل ما يستطيع على هذا النهج ، ولم يفرق قط عن مهاجمته مد أن ألف كتابه القيم : « نهايت الفلاسفة » إلى أن انتهت به الحياة . ولقد كان كتابه هذا محاولة جريئة كل الجراءة ، موفقة كل التوفيق ، وما كان المقصد الأول والهدف الأساسي لهجومه هو هدم الآراء في نفسها ، إذ أن بعضها صحيح موافق للدين ، وإنما كان هدف الإمام هدم المنهج العقل الذي استندت إليه هذه الآراء ، فخلود النفس مثلاً رأى يقول به الإمام الغزالي ، ويقول به الفلاسفة ، ولكن الإمام حمل معوله وأخذ يهدم بيد قوية المسلك العقل الذي أثبت به الفلاسفة خلود النفس : فانهارت أدلتهم ونهايت .

لقد فعل ذلك مع إيمانه بالخلود .

وهو لم يلتزم في هذا الكتاب « إلا تكدير مفاهيم ، والتغيير في وجوه أدلتهم ، مما بين نهايتهم (١٦) » ومقصوده « تسيه من حسن اعتقاده في الفلاسفة وظن أن مسالكهم قبية عن التناقض ، بيان وجوه نهايتهم (١٧) » .

ويقول : « أنا لا أدخل في الاعتراض عليهم إلا دخول مطالب منكر ، لا دخول مدع مثبت ، فأبطل عليهم ما اعتقدوه مقصوحاً بإلزامات مختلفة ، فالزمهم تارة مذهب المعتزلة ، وأخرى مذهب الكرامية ، وطوراً مذهب

(١٦) نهايت الفلاسفة

(١٧) المصدر نفسه .

الوهمية ولا أنتهى ذاباً عن مذهب مخصوص (١٨) .

ويقول الأستاذ « بلايس » بحق : « إن الغزالي حينما سمي كتابه : « نواف الفلاسفة » كان يريد أن يمثل لنا أن العقل الإنساني يبحث عن الحقيقة ، يد الوصول إليها ، كما يبحث العوض عن ضوء النهار ، فإذا أبصر شعاعاً من نور الحقيقة اندفع به فرمى نفسه عليه ، ونهات فيه ، ولكنه يخطئ .

فكان الغزالي يريد أن يقول : إن الفلاسفة خطئوا بأشياء أسرعوا إليها بلا إعمال روية فتهاوتوا وهلكوا الهلاك الأبدي (١٩) .

٥ - والمعرفة عند الفلاسفة العقليين مصدرها إذن العقل ، والعقل وحده يهدى أن الإمام الغزالي يرى عن تجرية أن وراء العقل طوراً آخر تنفتح فيه عين آدمى بصير بها الغيب وما يكون في المستقبل ، وأموراً أخرى العقل معرول عنها من قوة التمييز (٢٠) ، عن إدراك العقولات وكمحل قوة الحس عن إدراكات التمييز وهناك إذن البصيرة ، وموضوعها الذي ينكشف ما إنما هو الغيب .
وإذا نساءنا مع الإمام الغزالي عن مراتب المعرفة بالغيب التي هي الإيمان وإنما يحدد ثلاث مراتب :

١ - المرتبة الأولى : إيمان العوام : وهو إيمان التقليد الخضم .

٢ - المرتبة الثانية : إيمان المتكلمين ، وهو ممزوج بنوع استدلال ودرجته حسبما يرى الإمام - قريبة من درجة إيمان العوام .

(١٨) المصدر نفسه .

(١٩) تاريخ الفلسفة الإسلامية ترجمة الدكتور أبو ربيعة .

(٢٠) المنفذ من الضلال .

٣ - المرتبة الثالثة : إيمان العارفين ، وهو اشاهد بنور اليقين .

ولا شأن لنا في حديثنا هذا بالمرتبة الأولى ، أما المرتبة الثانية ، وهي مرتبة المتكلمين ، وهم يدعون أنهم أهل الرأي والنظر ، أو أرباب البحث والاستدلال فإنهم يشاركون الفلاسفة بهذا الاعتبار في مسجع البحث ، والإمام الغزالي يرى أن درجتهم قريبة من درجة العوام .

وهو من جانب آخر لا يرى في منهج المتكلمين ما يؤدي إلى كشف الحقائق ، إنه يقول حرفياً عن علم الكلام : « وأما منفعته فقد يظن أن فائدته كشف الحقائق ومعرفة ما هي عليه ، وهيئات ، فليس في الكلام وفاء بهذا المطلب الشريف . ولعل التخبيط والتضليل فيه أكثر من الكشف والتعريف وهذا إذا سمعته من محدث أو حشوي ، ربما خطر ببالك أن الناس أصداء ما جهلوا فاسمع هذا ممن خبر الكلام ثم فلاه بعد حقيقة الخبرة وبعد التغافل فيه إلى منتهى درجة المتكلمين ، وجاور ذلك إلى التعمق في علوم آخر تناسب نوع الكلام ، وتحقق أن الطريق إلى حقائق المعرفة من هذا الوجه المسود (٢١) .
ويرى في موضع آخر أن المتكلم لا يزيد على العاصي إلا في صنعة الكلام ولأجله سميت صناعته كلاماً (٢٢) .

أما المرتبة العليا فإنها الهدف الأسمى ، وهي مقصد الطالبين ، ومطمح نظر

الصديقين ، إنها مشاهدة روحية ، إنه يقين مطلق ، إنها المشاهدة بنور اليقين .

٦ - ولكن مشاهدة ماذا ؟ ويقين في ماذا ؟ ما هو موضوع هذه المرتبة ؟

إنه - إذا أردنا الإجمال - الغيب

(٢١) الإحياء ص ١٩٨ .

(٢٢) الإحياء ص ٨٧ .

أما إذا أردنا شيئاً من التفصيل فإنه أمور كثيرة ، كان يسمع العارف من قبل أسماءها فيتوهم لها معاني مجملة غير متضحة ، فتضح إذ ذاك ، وتحصل المعرفة بالله سبحانه وبصفاته الباقيات التامات وبأصالة ، وبحكمت في خلق الدنيا والآخرة ووجه ترتيبه الآخرة على الدنيا .

والمعرفة بمعنى النبوة والنبي ، ومعنى الوحي ، ومعنى الشيطان ، ومعنى لفظ الملائكة ، وكيفية معاداة الشياطين للإنسان ، وكيفية ظهور الملك للأنبياء ، وكيفية وصول الوحي إليهم ، والمعرفة بملكوت السموات والأرض ومعرفة القلب وكيفية تصادم جنود الملائكة والشياطين فيه ، ومعرفة الفرق بين لمة الملك ولمة الشيطان . ومعرفة الآخرة ، والجنة والنار ، وعذاب القبر ، والصراط والميزان ، والحساب ومعنى قوله تعالى :

﴿ اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً ﴾ ومعنى قوله تعالى :
﴿ وإن الدار الآخرة لمى الحيران لو كانوا يعلمون ﴾ .

ومعنى لقاء الله عز وجل ، والنظر إلى وجهه الكريم ، ومعنى القرب منه والتزول في جواره ، ومعنى حصول السعادة بمرافقة الملائكة الأعلى ، ومقارنة الملائكة والنبين ، ومعنى تماوت أهل الجنان حتى يرى بعضهم البعض كما يرى الكوكب الدرى في السماء ، إلى غير ذلك مما يطول تفسيره (٢٣) .
ذلك بعض موضوع الغيب الذى يتطلع إلى معرفته ، دون جلوى ، المتكلمون والفلاسفة .

ولأنهم لم يتخذوا إليه السبيل الصحيح فقد اختلفوا فيه .

(٢٣) الإحياء ص ٣١ ، ٣٥

لقد اختلفوا في معاني هذه الأمور بعد التصديق بأصولها مقامات شتى ، فبعضهم يرى أن جميع ذلك أمثلة ، وأن الذى أهدى الله لعاده الصالحين ما لا عين رأت ولا أدن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، وأنه ليس مع الخلق من الجنة إلا الصفات والأسماء .

وبعضهم يرى أن بعضها أمثلة ، وبعضها يوافق حقائقها المفهومة من ألفاظها .

وكذلك يرى بعضهم أن منتهى معرفة الله عز وجل الاعتراف بالمعجز عن المعرفة .

وبعضهم يدعى أموراً عظيمة في المعرفة باقة عز وجل .
وبعضهم يقول حد معرفة الله عز وجل ما انتهى إليه اعتقاد جميع العوام وهو أنه موجود عالم قادر سميع بصير متكلم .

اختلف الناس هنا الاختلاف . لأنهم لم يتبعوا النهج الصحيح في معرفة الغيب ، وهذا النهج الصحيح إنما هو جلاء البصيرة .

ولو اتبعوا الكشف عن البصيرة لارتفع الغطاء حتى تتضح للإنسان جليلة الحق في هذه الأمور انضاحاً يجرى بجرى العيان الذى لا يشك فيه ، وهذا ممكن في جوهر الإنسان (٢٤)

أهنا ممكن حقاً في جوهر الإنسان ؟

إنها دعوى من الإمام الغزالي محتاج إلى إثبات ، وهى دعوى ينكرها الكثيرون .

ولكن الإمام الغزالي يرى أن الدليل القاطع ، الذى لا يقدر أحد على

(٢٤) الإحياء ص ٣٤ ، ٣٥

أحدهما : عجائب الرؤيا الصادقة ، فإنه ينكشف بها الغيب ، وإذا جاز ذلك في النوم فلا يستحيل أيضاً في اليقظة لم يفارق النوم اليقظة إلا في ركود الحواس وعدم اشتغالها بالحواس ، فكم من مستيقظ غائص لا يسمع ولا يبصر لاشتغاله بنفسه .

والثاني : إخبار رسول الله ﷺ عن الغيب وأمور في المستقبل وإذا جار للبي ﷺ ، جاز لغيره ، إذ البي عبارة عن شخص كوشف بمقاتق الأمور ، وشغل بإصلاح الخلق فلا يستحيل أن يكون في الوجود شخص مكاشف بالحقائق ولا يشغل بإصلاح الخلق . وهذا لا يسمى نبياً ، بل يسمى ولياً ، فمن آمن بالأنبياء وصدق بالرؤيا الصحيحة لزمه لا محالة أن يقر بالبصيرة أو بتعبير آخر أن يقر بباب للقلب يفتح على عالم الملكوت هو باب الإلهام وانفتح في الروح والوحي (٢٥) .

والإمام الغزالي يتشبه بالرؤيا ، كبرهان ودليل ، على أن هناك آلة للمعرفة غير الحس والعقل ، ويردد ذلك في كثير من كتبه ، إنه يتحدث في المنقذ عن النبوة فيقول : « وقد قرب الله تعالى ذلك على خلقه بأن أعماه نموذجاً من خاصية النبوة وهو النوم ، إذ النائم يدرك ما سيكون من الغيب ، إما صريحاً ، وإما في كسوة مثال يكشف عن التعبير ، وهذا ولو لم يمر به الإنسان من نفسه ، وقيل له : إن من الناس من يسقط مغشياً عليه كالميت ويزول عنه إحساسه وسمعه وبصره فيدرك الغيب ، لأنكره وأقام البرهان على استحاله وقال : القوى الحساسة من أسباب الإدراك ، فمن لا يدرك الأشياء مع وجودها وحضورها

فبالا يدركها مع ركودها أولى وأحق وهذا نوع قياس يكذبه الوجود -
والمشاهدة (٢٧) .

ولكن الغزالي لا يكفي بهذين الوجهين من الاستدلال ، بل يأتي بشواهد الشرع ، ويذكر التجارب والحكايات ، أما الشواهد - فيما يرى - فهي قوله تعالى : ﴿ والذين جاهلوا فينا لنهدينهم سلكاً ﴾ (٢٧) وقوله سبحانه : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً ﴾ (٢٨) . فمن نوراً يفرق به بين الحق والباطل ، ويخرج به من الشبهات ، وقوله ﷺ : « من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم » .

وسئل ﷺ عن قوله تعالى : ﴿ أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه . . . ﴾ (٢٩) ما هذا الشرح ؟ فقال : هو التوسعة إن النور إذا قذف به إلى القلب اتسع له الصدر وانشرح .
وقال عليه الصلاة والسلام : « إن من أمي محدثين ومعلمين ومكلمين ، وإن جبر منهم » .

والمحدث هو الملهم ، والملهم هو الذي انكشف له الحق في باطن قلبه من جهة الداخل ، لا من جهة الحواس الخارجية .
والقرآن مصرح بأن التقوى مفتاح الهداية والكشف : ﴿ ومن يؤمن بالله يهد قلبه ﴾ (٣٠) ﴿ أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً ، يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها ؟ ﴾ (٣١) ﴿ أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو

(٢٩) سورة الزمر آية ٢٢

(٣٠) سورة النجم آية ١١

(٣١) سورة الأحماد آية ١٢٢

قصبة التصوف المنقذ من الضلال

(٢٦) المنقذ ص ١٣٤ .

(٢٧) سورة المكبوت آية : ٦٩

(٢٨) سورة الأنفال آية : ٢٩ .

على نور من ربه ؟

ولم يكن علم الخضر عليه السلام حليماً حياً ، أَوْ حَقِيقاً ، وإنما هو العلم الرباني ، وإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا ﴾ (٣٢) .
كيف تنجلي البصيرة ؟ كيف يتأتى الكشف والإلهام والتفت في الروح ؟ كيف يتأتى معرفة الغيب معرفة مباشرة ؟
إن الطريق إلى ذلك إنما هو تقديم المجاهدة ، وهو الصفت المنسومة ، وقطع العلاق كلها ، والإقبال بكنهه للمهمة على الله تعالى .
ومها حصل ذلك كان الله هو المتولى لقلب عبده ، والمتكفل له بتزويده بأنوار العلم .

وإذا تولى الله أمر القلب فاضت عليه الرحمة ، وأشرق النور في القلب وانشرح الصدر ، وانكشف له سر الملكوت ، وانفتح عن وجه انقلب حجاب الغرة بلطف الرحمة ، وتلاأت فيه حقائق الأمور الإلهية ، قال تعالى :
﴿ وَالَّذِينَ جَاهَلُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ .

فليس على العبد الاستعداد بالتصفية المجردة وإحضار الهمة ، مع الإرادة الصادقة والتمطش التام والترصد بسوام الانتظار لما يفتح الله تعالى من الرحمة . وهو بفعله يصير معرضاً لتضحات رحمة الله ، وليس له اختيار في استجلاب هذه التضحات ، وليس له إلا الانتظار لما يفتح الله من الرحمة ، كما فتحها على الأنبياء والأولياء بهذه الطريقة .

وإذا صدقت إرادته ، وصفت همته ، وحسنت مواظبته تلمع لوامع الحق

(٣٢) الإحياء ص : ٤١ ، ٤٣ .

في قلبه ويرتفع الحجاب بلطف خلق من الله تعالى فيكشف له الغيب ويحصل له اليقين (٣٣) .

٧ - هذا النهج الذي رسمه الإمام الغزالي لمعرفة الغيب له آثار عميقة بالنسبة للفرد في خاصة نفسه ، وبالنسبة للمجتمع وبالنسبة للدين .
ولتوضيح ذلك بعض الإيضاح ، ولذكير بعض الآثار التي كانت لهذا النهج تذكر ما كتبه الدكتور محمد إقبال في كتابه : « تجديد التصكير الديني في الإسلام » عن الإمام الغزالي .

يقول الدكتور إقبال : « على أنه لا سبيل إلى إنكار أن الدعوة التي نهض لها الغزالي تكاد تكون دعوة للتبشير ببدأ جديد ، مثلها في ذلك مثل الدعوة التي قام بها « كانت » في ألمانيا في القرن الثامن عشر ، حتى ألمانيا ظهر المذهب العقل لأول عهد حقيقاً للدين ، ولكن سرعان ما تبين أن جانب العقيدة من الدين لا يمكن البرهنة عليه حياً ، فكان الطريق الوحيد إذن أن تنحى العقيدة الدينية من سجل المقدمات وقد جاء مع محور العقيدة مذهب المنفعة في فلسفة الأخلاق ، وبذلك مكن المذهب العقل من سيادة الإلحاد .

تلك كانت الحال في ألمانيا عندما ظهر « كانت » وكشف كتابه المذهب العقلي من قبل ، وصدق عليه القول بأنه كان أجل نعم الله على وطنه ، وإن التشكك الفلسفي الذي صممه الغزالي - على نظره بعض الشيء - قد انتهى إلى النتيجة نفسها في أنحاء لإسلامي ، إذ قضى ذلك المذهب العقل الذي كان موضع الزهو على الرعب من ضحائه ، وهو المذهب الذي سار في نفس الاتجاه الذي اتجه إليه المذهب لعقل في ألمانيا قبل « كانت » .

(٣٣) الإحياء ص ٢٧ - ١٣٧٠ .

غير أن هناك فارقاً هاماً بين النزالي و«كانت» فإن «كانت» تمشى مع مبادئه تمشياً لم يستطع أن يثبت أن معرفة الله ممكنة. أما النزالي فعندما خاب رجاؤه في الفكر التحليلي ولى وجهه شطر الرياضة الصوفية وألقى فيها مكاناً للدين قائماً بنفسه، وبهذه الطريقة وفق لأن جعل للدين حق الوجود مستقلاً عن العلم، كوجه الفلسفة الميتافيزيقية (٣٤).

مشكلة المعرفة والصوفية (٣٥)

١

يسم التاريخ - سياسياً كان أو مكريماً - بفترات ، تبدو فيها ، الحيوية الجارفة ، وهذه الحيوية ، تتركز في شخص ، أو أشخاص نابغين يلقون بأنفسهم في مجرى الحياة المادى الوديع ، فضطرب الحياة وتموج ، ويعلو موجها ويحتمص ، وتضطرب القوتان - قوة الشعب الذى يتبع التقاليد - وقوة المصلحين النابغين - فترة تطول أو تقصر ، ثم تنحصر الأمواج وتهدأ الأمور ، فإذا بالحياة تأخذ لونهاً جديداً ، وإذا بالقيم قد تغيرت ، في قليل أو كثير. ومهما يكن من شيء ، فإن عظماء الرجال - على أى وضع قضوا نحيم - لا يتركون هذا العالم ، إلا وقد تركوا أثراً لا ينسى أبداً الدهر. وقد ينشأ النابغة ، فيجد نفسه في ميدان المعركة ، مختاراً أو مضطراً ، وتشرع نحوه الأسمه ، وتوجه إليه السيوف المهنددة ، فيدافع ويهاجم ، ويغلب أو يُغلب ، ويترك على كل حال أثراً مؤثراً.

٢

ونشأ الخاسي ، وفي العالم الإسلامى قوتان هائلتان تضطرعان :

١ - أهل السنة ويمثلهم الإمام أحمد بن حنبل.

(٣٥) هذه الكلمة كتبها بمناسبة طبع كتاب الرعاية للمحاسبي وهو ، وإن كانت قد كتبت في مناسبة خاصة ، فإنها من حيث الفكرة ، عامة . فإيا يتعلق بالمعرفة الصوفية .

(٣٤) تجديد التفكير الدينى في الإسلام ، ١٠ ، ١١ .

عنه ، ورد هجوات أعدائه ، وتأييده منطقياً وعقلياً ، فإنه مما لا شك فيه . أن العقل لو ترك وشأنه لا يمكنه أن يتسلل إلى عالم : وما وراء الطبيعة ، فيفسر لنا غامضه ، ويوضح لنا من أمره ما اتهم .
لا بد إذن أن يخضع العقل للنص .
ومذهب المتزلة ، إذن لا يسير في عالم : « ما وراء الطبيعة » ، على النهج الصواب .

■ هناك ، إذن إفراط وتفریط .
والمبودية الحققة - فيما يرى الخاسبي - : هي النهج الصحيح للوصول إلى المرقة الحققة .
ودخل الخاسبي المرركة ، وسلاحه فيها : عبودية حققة ، وإخلاص لا حد له ، وتقوى تنمى كل الجوارح ، ومن قبل ذلك ومن بعده : دراسة مستفيضة للدين : وسائله وغاياته ، جزئياته وكتباته .
التقوى والعلم ، إذن : كانا سلاحه في المرركة .
واستخدم النزاع ، وكان لابد من أن يستخدم ، وثار الفقهاء على الخاسبي ، وكان لابد أن يثوروا ، فقد كان الخاسبي ينتج في درسه نهجاً آخر غير الطريق العادي التقليدي .
كان يتحدث في الإخلاص ، وفي الورع ، وفي الزهد ، وفي الخشوع الخالص لله .
وكان يتحدث في عبية الله ، والأنس به ، والقرب منه .

٢- المتزلة وهم مملووم في البصرة ، والكوفة ، وبغداد .
وهذا الصراع بين المتزلة ، وأهل السنة : صراع طبيعي لا يتخلو من مثله حين من الأديان :

إنه الصراع الحفاله بين النصيين والعقلين .
إنه نزاع الأبدى بين الذين يقولون :
إن الدين نص تفسره أسباب النزول ، واللغة ، والرواية ، والذين يقولون :

إن الدين نص : يفسره العقل ويوضحه .
ويظن بعض الناس - للوهلة الأولى - أنه لا يمكن أن يكون هناك طرف ثالث في هذه الخصومة .
فالإنسان إما : نصي ، وإما عقلي : ولا يجتمل الأمر سلا تالفاً .

٣

ونشأ الخاسبي ليمثل هذا الحل الثالث ، أو بتعبير أدق ، ليدكر بهذا الحل الثالث :

لقد حاجم المتزلة هجوماً عنيفاً ، وألف كتاباً خاصاً في الرد عليهم ، سماه :
« فهم القرآن » .
لقد رأى في تزعمهم العقلي طمأنناً ، لا يتناسب ومقام المبودية ، ورأى أن تزعمهم : تخكم العقل في القرآن ، ويجعله يسيطر على النص ، ولو كان الأمر كذلك لكان القائد في الحقيقة وواقع الأمر هو : العقل ، لا الكتب المقدسة .
وإذا كان المتزلة قد خدموا الدين خدمات جليلة ، تتمثل في دفاعهم الجيد

وكان يتحدث في هيته وسلاله وعظمنه .

وكان حديثه عذبا ، طلقا ، ساميا ، فكانت تخشع له الأفئدة ، وتلين له القلوب ، وتسيل له الدموع ، ويتذكر الناس ما قاله من فضل ، فترق قلوبهم ويهادون على الاستقامة .

وملأت سمعة المحاسبي أرجاء بغداد ثم عبرتها إلى جميع أرجاء المملكة الإسلامية المترامية الأطراف ، وكما أخذت شهرته في الازدياد كلما كثرت خصومه وشائته ١١

ولكنه كان يسير في طريقه ، ثابت الخطى لا يمينه سوى أن يكون الله راضيا عنه !

وتكشفت له الحجب ، وزالت عنه المساتير . ووصل إلى المعرفة الحقة فأعلن طريقها

وطريقها ليس حسا يخطئ ، وليس عقلا يقبل ، وإنما هو : بصيرة وضاعة وروح صاف .

٦

واستمرت الخصومة بين :

العصيين ، ويمثلهم الإمام أحمد .
والبصيرين ، ويمثلهم الإمام المحاسبي .
والعقلين ، ويمثلهم المعتزلة .

ومن غريب الأمر : أن أية قوة من هذه القوى ، لم تخر صريعة بل بقيت قوية ، واستمرت في كفاح ونضال ، حتى يومنا هذا .

تسلست فكرة المحاسبي ، وتمثلت غير تمثل في الإمام الغزالي ، ثم في بقية الصوفية من بعده ، حتى كان العصر الحاضر ، فكان يمثلها في أسلوب جديد وتعبير صادق ، المرحوم : « الشيخ عبد الواحد بيجي » الذي توفي منذ سنوات .

وتسلست فكرة الإمام أحمد ، وتمثلت في الإمام : « ابن تيمية » الذي وضع لها المنطق ، وأرسى لها القواعد والأصول واعرف بها إلى الشكل أكثر من الجوهر ، واستمرت قوية إلى عهدنا الحاضر ، وكان يمثلها المرحوم : « الشيخ رشيد رضا » تمثيلا قويا .

وتسلست فكرة المعتزلة ، راكدة حيناً ، وقوية حيناً آخر ، حتى كان جمال الدين الأفغاني ، فدفعها قويا إلى عالم الظهور .

وكان « الشيخ محمد عبده » من أهم العوامل في نشرها . ملقطة خفيفة تكاد تخفى ، أو تكاد تلبس ثوب السلفية الأولى الأصيلة التي كانت قبل ابن تيمية والتي لا يمثلها ابن تيمية .

وحمل اللواء من بعده المرحوم : « الشيخ المراغي » والمرحوم : « الشيخ مصطفى عبد الرازق » .

وفكرة « الإمام محمد عبده » تمثل فيها حقيقة ، لا في الشيخ رشيد رضا كما يظن كثير من الناس .

لا تزال تلك القوى الثلاث تتصارع حتى عهدنا هذا ، ونعتقد أنها
ستستمر ، ذلك أنها تمثل نزعات فطرية في بني الإنسان :
بعضهم ، واقعى يتجه إلى النقص ، ولا يريد ، أو لا يمكنه أن يسير إلى
أبعد منه .

وبعضهم : يحتفظ بشخصيته قوية جارفة لا تلبس ، فهو عقل أو اعتزال .
وبعضهم : رقيق الشعور ، مرهف الحس ، ملائكى التزعة ، فهو بصيرى
أو صوفى .

نزعات ثلاث تقوم على فطر مختلفة ، وهذه الفطر تستمر في بني البشر
ما دام على وجه الأرض ، أفراد من النوع الإنسانى ، ومن هنا كان خطأ هؤلاء
الذين يحاربون التصوف ، أو الاعتزال ، أو النصيين على أمل أن يقضوا على
هذه الاتجاهات قضاء تاماً .
وبالله التوفيق .

الفصل الرابع قضية التصوف

- إنكار التصوف .
- تحديد موطن النزاع .
- المشاكل التى يبرأ حلها .
- الحس ومشاكل ما وراء الطبيعة .
- العقل ومشاكل ما وراء الطبيعة .
- البصيرة ومشاكل ما وراء الطبيعة .
- الطريق إلى المعرفة .
- طريق البصيرة طريق الصواب .
- التصوف أرسطراطية .
- تفاوت الناس في فهم الدين .
- التصوف قوة .
- التصوف ليس دخيلاً على الإسلام .
- التصوف في العصر الحديث .

إنكار التصوف

إن الذين يتكفرون والتصوف ليسوا من رجال العصر الحديث فحسب . ذلك أن النزاع بين الفقهاء والتصوف قديم للدم والتصوف نفسه ، ورجال الظاهر على وجه المصوم يتفرون من التصوفية ويحلزونهم أيضا كالأول .

والحرب قائمة أيضا بين التصوفية ومن يخطون العقل مقياسا للأراء ، ويرون أنه وحده المادى إلى الرشاد .

ولم يبدأ الصراع بين التصوفية وغيرهم - قهوا كانوا أو حقلين على مر الزمن :

ما هي مآخذهم على والتصوف ؟

أولا : يرى الفقهاء - وبشركهم في هذا الرأي كثير من الباحثين : أن التصوف تدخل على الإسلام : إذ ليس في الإسلام إلا الضمى ، والورع ، ونوع من الزهد يشبه أن يكون عفة أو قناعة .

ثانياً : الأدلة على وجود الله وحدانيته ، وكبريته وإرادته ، موجودة في القرآن الكريم ، في وضوح لا ليس فيه نادا ما تركناه ، وذمها لنفسها في معانيات والتصوف ، بلينا لا تأمن أن نفضل في مجال الطريق .

ثالثاً : والتصوف ليس في متناول الجميع ، فهو إذن وترضاطية وبتاف مع روح الإسلام والديفراطية . . .

ولأن والتصوف ليس في متناول الناس جميعاً ، فهو إذن تكليف بما

لا يطاق والله سبحانه لا يكلف نفساً إلا وسعها .

وأما : « التصوف » ضعف ، والإسلام قوة ، والله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ﴾ ، والجهد باب من أبواب الإسلام لا يتلامح مع صوم النهار وقيام الليل .

أما العقليون : فإنهم يرون أن الله - سبحانه وتعالى - منحنا العقل لنتهدى به إليه ، فإذا ما احتقرناه - كما يفعل « الصوفية » - فقد احتقرنا أجل نعمة وهبها الله لنا .

ويرى « العقليون » أن العقل : هو الوسيلة الوحيدة للوصول إلى اليقين في محبط « ما وراء الطبيعة » ، وهم يبرهنون على وجود الله - عقلياً - ويرون في براهينهم شتاه ودقة ، ووقيناً ووضوحاً لا لبس فيه .

وقد حث الله في القرآن على استعمال العقل ، والآيات التي تخاطب العقل وتدعو إلى استعماله كثيرة متعددة .

هذه هي أهم ما يأخذ منكر التصوف على « التصوف » و « الصوفية » وأما ما عداها مما يتكلمون به على الأشكال ، والطقوس والعادات التي يلصقونها بـ « التصوف » وليست منه ، فإننا نضرب عنها صفحاً ، ذلك أننا نتحدث عن « التصوف » و « الصوفية » الحقيقيين .

تحديد موطن النزاع

ونريد الآن أن نبين - في إيجاز - بعض ما يراه « الصوفية » في هذه الاعتراضات ، لتبين الحق في هذا التموض والاضطراب ، والخلط الذي يسود قضية « التصوف » .

إن الاستدلال على وجود الله لا يحتاج - في نظر الصوفية - إلى كد المسح وإعمال الفكر .

كيف يتأتى أن يخفى الله ، وأن يكون من الخفاء بحيث نحاول جهلنا أن نتطلب ما يثبت وجوده من أدلة ؟

إن إثبات وجود الله ليس مشكلة في نظر الصوفى ، وإذن فإنه لا يؤخذ على الصوفى أنه يذهب إلى طرق خصبة لينتهى من ورائها إلى الاستدلال على وجود الله . إن الصوفية يرون أن مجرد محاولة إثبات وجود الله إنما هي انتقاص من جلاله سبحانه ، فتنى حتى سبحانه حتى يحتاج إلى دليل يدل على وجوده ، إنه سبحانه أظهر من كل موجود .

ولكن البشرية - شرقية كانت أو غربية ، ومسلمة كانت أو مسيحية ، وقديمة كانت أو حديثة - لا تخلو من طائفة كبيرة تتطلب في إلحاح ، وفي قلق ، وفي تحمس جارف ، ما وراء إثبات وجود الله ، النفس الإنسانية هكذا خلقت : فكلما منح الله الإنسان عقلاً كبيراً ، ودكاه جاداً ، ونفساً طامعة ، كان ذلك مدعاة له إلى التوغل في البحث فيما وراء الطبيعة .

إن وجود الله ووحدهانيته ، وكونه عالماً ، مريداً ، قادراً ، كل هذه مسائل هينة .

لو وقفت عندها النفوس لما كانت هناك فلسفة .

ولما كان علم الكلام .

ولما كانت الأبحاث النظرية فيما وراء الطبيعة .

ولما كان التصوف .

ولكن النور لم تقتصر على ذلك ، ولا يمكنها الانحصار على ذلك ولن يتألى لها - عن رغبة أورمية - أن تقتصر على ذلك ! !

المشاكل التي يواجه حلها

كيف خلق الله العالم ! أخلقه من العدم المطلق ، فكيف إذن يتبع شيء من

الشيء ؟

إن شيئاً من لا شيء لا يتصوره العقل ، بل إنه يحكم باستحالة .

أم خلقه من مادة كانت موجودة : فاللادة إذن قديمة ، قدم الله نفسه ، وهناك إذن قديمان : الله والمادة .

والله لا نهال اللات : ومقتضى هذا ألا يخرج عن ذاته مقال ذرة في

الأرض ولا في السماء ، إنه الأول والآخر ، والظاهر والباطن ، وهو على كل

شيء ، وفي كل شيء . وهذه النظرة يخاطب « شل » الله - سبحانه وتعالى -

فيقول :

« إن أصغر ورقة من أوراق الأشجار التي يلاعها النسيم ليست إلا بضعة

منك : (جزءاً من أجزائك) كلا ، ولا أضعف دودة تسكن القبور ، وتسن من

لحم الموتى أقل مشاركة لك في حياتك السعيدة . »

« ويقول : إن هذه الروح التي توجد في كل مكان ، بما يحيا كل موجود ،

وهي هو^(١) .

أحق هذا ؟ أم أن ذات الله لا تقتصر أرضاً ولا سماه ، ولا برا ولا بحراً ،

فهي ، إذن ، محدودة ، لأنها ما حدا هذا الكون .

(١) عن ملحق الفلسفة . ترجمة « الدكتور أحمد أمين ،

ثم إن الله - زيادة على ذلك - لا يمكن أن يوجد في كل مكان . والله عالم .

أمر عالم بما كان على أنه كان ؟ وما سيكون على أنه سيكون ؟ وما هو كائن

على أنه كائن ؟

أم أنه عالم بما كان وما هو كائن على أنه سيكون ؟ .

أم أنه عالم بما هو كائن وما سيكون على أنه كان ؟

أيسطر الزمن على علم الله ؟

أم أن الله فوق الزمن ؟ وأنه في حاضر لا يزول ؟

ولكن كيف يتألى لنا حقاً أن نفهم أن الله في حاضر لا يزول ؟ مع بدهة شعوراً بالماضي والحاضر والمستقبل .

والله عالم - كما قلنا - أمر عالم بذاته فحسب لأن علمه في شرفه وسموه

وكأنه إنما يتعلق بما يناسبه من شرف وكمال وسمو ، وليس ذلك إلا ذاته ،

سبحانه وتعالى .

أم أن علم الله يتعلق بذاته ، وبالكليات ، ولا شأن له بالجزئيات . لأنها

تألفه لا قيمة لها ، والله متره عن أن يتعلق علمه بالتألف ؟

أم علم الله يتعلق بذاته ، وبالكليات ، بالجزئيات ، على الرض مما في

الجزئيات من نقص وتعاque ، ومن مناظر تشتمر منها النفس ويعاها النظر .

والله قادر : أمر قادر على كل شيء ؟ أقادر هو على الجمع بين الصدين

مثلاً ؟ أقادر على أن يجعل الثلاثة أكثر من العشرة ؟ والجزء أكبر من الكل ؟ أم

أن هناك المستحيل بالنسبة إلى قدرة الله .

وإذا كان هناك المستحيل بالنسبة إلى قدرته ، أفيصنف إذن بالكمال ؟ أم أن

قدرته تتلاق بالمستحيل - كما يقول علماء الكلام - محققين أنهم بذلك قد حلوا الإشكال ؟

والله مرید : . . .

أيريد الخير والشر؟ فلم الحساب ، والعقاب أو الثوبة إذن ؟
وكيف يريد الشر؟ مع أن طبيعته خير محض ؟ كيف يريد الشر مع أن إرادة الشر في بني البشر تعتبر نقصاً .

وإذا لم يكن يريد الشر فهل يحدث الشر في هذا العالم بالرغم عنه ؟
أم أنه يحدث وهو عنه راض وإن لم يكن له مریداً ؟
أيرضى الله عن الشر أم يكرهه ؟
إن رضاه بالشر يتنافى مع كماله .

وإذا كان يكره الشر فكيف يوجد مع كراهيته له ؟
أيجب الله أن يعصى ؟ أم أنه يعصى بالرغم عنه ؟

وصفات الله عامة ، مطلقة ، شاملة ، لا نهائية : إنه رحمن رحمة مطلقة لا نهائية ورحمته وسعت كل شيء ، وهو جبار ذو جبروت لا نهائي ولطيف لآحد للطفه :

فكيف تنسجم الرحمة المطلقة مع الجبروت المطلق ، مع أن البدهة تقضى بأن تنق كل صفة منها وحود الأخرى ؟ وإنه لمن الرائع حقا : أن ما يريد أن يراه الشاعر « إسماعيل صبري » حينما خاطب الله قائلا :

ومر الوجود يشف عنك لكي أرى غضب اللطيف ورحمة الجبار
أيمكننا أن نرى حقا غضب اللطيف الذي لا نهاية للطفه ؟ ورحمة الجبار الذي لا نهاية لجبروته ؟

يوه عفو ، وعفوه مطلق شامل : إذ أن صفاته كلها مطلقة شاملة ، فهل يصح صبري بحق إذن حينما يقول :

رب أين ترى تقام جهنم للظالمين هكذا وللأشرار
بين عنوك في السماوات العلا والأرض شبرا خاليا للنار
وكيف يلقي الله بالمعرفة إلى رسله ، بأي لغة يخاطبهم ، وكيف ينزل الملك
على رسول الله ، فيراه ويسمعه في حين أن من كانوا معه لا يرونه ولا يسمعونه ؟ !

ومن أين يأتي الملك ؟ ، أمن السماء ؟ ولم ؟ مع أن الله في كل مكان
من مشكلة الرحي ، هي الأخرى ، من المشاكل التي استغذت الكثير من اللحد .

وماذا بعد هذه الحياة ؟ حياة أخرى جسمية ، نأكل فيها ، ونلهو ،
ونلعب ونسرح ونمرح ، ونأخذ بذلك ثمن ما أديناه في حياتنا الدنيا العابرة ، من عبادة وطاعة ؟

أم أنها حياة روحانية لا صلة لها بالمادة البتة ؟
أم أنها مزيج من الحياة المادية والحياة الروحية ، تأتلف فيها المادة بالروح ابتلافاً منسجماً متناغماً ؟

إن الداهيين الأولين لم يعد منهم أحد ليصف لنا الحالة في دقة دقيقة ، وفي تحديد محدد .

والقرآن يتحدث عن نعم الآخرة وعذابها ، فيفسر قوم وصفه على أنه حسي وروحاني ، ويفسر آخرون وصفه على أنه روحاني بحت .
وما هدف الله في إيجاد هذا العالم ! أخلقه ليعبده : ﴿ وما خلقت الجن

الغراب والمقاب إلى مشيئة الله ، وأعمال ذلك .
ويقول : وما حكاها الله من قصة آدم ومصائبه بالأكل من الشجرة لما خلق

فيه سر النسي من الأكل والواضحة عليه .

الحس ومشاكل - ما وراء الطبيعة

هذه المشاكل لم أنتزها انتزاعاً ، ولم أنتزعها ابتداءً ، وإنما هي موجودة
تصادفك في الفلسفة ، وتصادمك في علم الكلام ، وهي موجودة قديماً ،
وموجودة حديثاً ، وهي بعض من كل :

كيف نصل حقيقة إلى الإجابة عنها ؟ ما هو السبيل الصحيح للاطمئنان
التمام فيما يتعلق بشأنا ؟ هل مرد الأمر فيها إلى الحس واللاحظة ، والتجربة ،
والعلم الحديث ، وما فيه من طيبة وكساة ، أو من فلك وطب ؟ اللهم ، لا .

العقل ومشاكل ما وراء الطبيعة

هل مرد ذلك إلى العقل إذن ؟ أيكشف العقل حقا عن ذلك ؟ يعمل
العقل إلى كشف مسانير ما وراء الطبيعة ، وانخراق حجب ما وراء المادة
، والممود إلى اللأ الأعلى ؟

وعقل من ؟ أصل أنا ؟ أغتكم إلى عقل وهو - فيما أرى - ناصح ؟
وسجلها دون أن يكون مسجراً سوى ، أو بهيمية ، أيرصى بعقل حكماً ؟ أم
يحكمك إلى عقلك أنت أيها القارئ العزيز ؟ وهو فيما ترى ناصح ؟
وسجلها دون أن يكون مسجراً سوى ، أو بهيمية .

ولكن إمام و الشيمة - بحسب نظرهم - مسموم ، وهم يلجئون إليه فيما

والإس لا يجهلون ، أم خلقه يعرف كما قيل : وكنت كثيراً عجباً فتأملت
الخلق ، وفي هرون في الله .

إن كمال الله عبق عن أن يكون في حاجة إلى طاعة البشر ، وأسمى من أن
يكون في حاجة إلى أن يعرف : ﴿ يا أيها الناس أقموا الصلوات إلى الله ، والله هو
الغني العظيم . ﴾

أعقل الله المأم اعتباراً ، أم خلقه حكمة ؟

إن الله يتزه عن أن يعمل العمل اعتباراً : ﴿ أنصبتم أنا خلقكم
سناً ؟ ﴾ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

والحكمة : إنما هي تسيء عن الفرض أو المطلب أو النفاة ، وذلك ينشأ عن
الحاجة والله تعالى متزه عن الحاجة .

نمود فتسامل : لم أوجد الله المأم ؟

والشيخ محمد عده بذكر بعض المشاكل التي أثارها العقل ، وجعلته يشط
إلى البحث والنظر ، ويمدما من المشابه . قال رحمه الله في رسالة التوحيد :
« وجاء القرآن بعصف الله بعصاف ، وإن كانت أقرب إلى التثنية مما وصف
في محاطبات الأجيال السابقة ، فمن صفات البشر ما يتشاركها في الاسم ،
أو في الجنس : كالقدرة ، والاختيار ، والسمع ، والبصر .

وهذا إليه أموراً يوجد ما يشبهها في الإنسان : كالاستواء على العرش ،
والدرجة ، واليدين .

ثم أتأخر في القضاء السابق ، وفي الاختيار للمنوح للإنسان ، وجادل
العلماء من أهل الملل .

ثم جاء بالردة ، والرجعة ، حل المسلمات والسيات ، وركل الأرف

ادلهم من الأمور، وسوف لا يرضون بغير حكمه بديلا، وهم ملايين عدة،
أنتلهمهم الرضا في هذه المسائل؟

إن الكاثوليك يرون أن البابا متصوم، إنه على الأقل - فيما يرون - معصوم
في الأمور الدينية، ورأيه هو الفيصل في كل ما يتعلق بمسائل الدين، أترضى
- آراؤه البروتستانت، أو المسلمين، أو اليهود؟

هل حل هذه المسائل من اختصاص أصحاب القبعات، أم من اختصاص
أصحاب العمام؟

أطرها محصور في السوربون؟ أم هو من اختصاص الأزهر.

إن هذه المسائل شغلت الروس على اختلاف أنواعها: من ذوات
القلانس من قسماة المصريين، إلى حملة العمام، إلى لابس القبعات السود،
إلى أرباب الصفائر، إلى ألوف تصيبت حرقاً من البحث (٢١).

إلى أي هؤلاء نلجأ في حلها؟ لقد:

تجبرت يبدو ماذا تكون وضلت بوادي الطنون الحضر
قد تقول: إنها من اختصاص الفلاسفة، ويجب أن نلجأ إذن إلى أهل
الاختصاص.

أنلجأ إلى عقل « أفلاطون » أم إلى عقل « أرسطو ».

وهل نلجأ إلى عقل « بيكون »، أو إلى عقل « ديكارت »،

هل نلجأ إلى عقل « فيلسوف » حسي؟ أو إلى عقل « فيلسوف » مثالي...؟

أنلجأ إلى علماء الكلام؟ وأيهم؟: أالنظام، وقد كان حاد الذكاء متوقد
الذهن، صاحب منطق وجدل...؟ إن « ابن تيمية » لا يرضى لنا ذلك

(٢١) من مبادئ الفلسفة. ترجمة الدكتور أحمد أمين.

« وابن تيمية » رجل واسع الاطلاع، حاد الذكاء، متوقد الذهن فهل تتبعه؟
أم تتبع شخصية من شخصيات العصر الحديث؟ فهل تتبع « الشيخ محمد
عبده »، أو « الشيخ عليش »؟ إن كلا منها رجل فاضل، واسع الاطلاع
ولكنهما لا يكادان يلتقيان في شيء من آرائهما سواء في ذلك الوسائل
والأهداف، بل عقل أيهما تحتكم؟

وبعد كل ذلك أليس رأي « كانت » هو الحكمة كل الحكمة حينما يقول:
« إن عقل الإنسان مركب تركيا يوسف له فإنه مع شغفه بالبحث في مسائل
لا تدركها حواسنا، لم يستطع أن يكشف عن معيبتها ».

أما الإمام « الرازي » فإنه يقول في حيز العقل:

نهاية إلهام العقول عقل وأكبر سعي العالمين ضلال

ولم تستد من بحثنا طول عمرنا سوى أن جمعنا فيه قليل وقالوا

ومن كلامه الحكيم: « ولقد تأملت الطرق الكلامية، والمناهج الفلسفية لما

رأيتها تشقى حللا، ولا تروى حللا ».

ويقول في وصيته التي أملاها حل تلميذه « إبراهيم بن أبي بكر

الأصفهاني »: « ولقد اخترت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية، لما رأيت

فيها فائدة تساوي الفائدة التي وجدتها في القرآن العظيم ».

والإمام « الرازي » هنا، هو الذي يقول فيه صاحب « وفيات الأحيان »:

فاق أهل زمانه في علم « الكلام » و « المعقولات » وعلم « الأوائل ».

وليس « كانت » وليس الرازي إلا مثلين من أمثلة عديدة تتلاقى في النهاية

مع الشاعر الرقيق إسماعيل صبري فترجو من الله « يرجو حينما يلجأ إليه قاتلا »

يارب أعلني لفضلك واكفني شطط العقول وفتنة الأفكار

ومع ذلك فهذه المشاكل تقض مصاحبة كثيرين من ذوى الإحساس الديني
المرهف ، وتورق أعينهم ، وتشعلهم - مصبحين مسمين - ومثلهم في ذلك مثل
إبراهيم - عليه السلام - إذ قال :

﴿ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ نَحْيِي الْمُؤْمِنِينَ ؟

قَالَ : أَوْ لَمْ تُؤْمِنِ ؟

قَالَ : بَلَى ، وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنُّ قَلْبِي . . . ﴾ .

فأهى الوسيلة التي يروون عن طريقها غلتهم ، وتشقى صدورهم ، وتطمئن
قلوبهم .

إن الدين لم يتعرض لهذه المشاكل ، والحس لا يصل إلى حلها ، والعقل
نوازيته ومقاييسه وقواعده : عاجز كل العجز كما رأينا سابقاً عن الوصول إلى
حلها ، وليس أدل على عجزه من التجربة الواضحة لكل ذى عينين : إن
مجلسة مند عهد سقراط تتحبط وتعث ، وتتصارب وتتناقض ، وتخل وتعقد ،
ولا تصل البتة إلى نتيجة حاسمة في أية مسألة من مسائل ما وراء الطبيعة
لشائكة .

وعلم الكلام مختلف مضطرب ، يحارب بعضه بعضاً ، بل ويكفر رجاله
بعضهم البعض :

إلام تنجّه إذن ؟

إننا إذا فصلنا أيدينا من الحس ، فذلك لأننا لم نجد فيه غناء فيما وراء
الطبيعة ، وإذا أعرضنا عن العقل ، فليس ذلك احتقاراً له ، لأننا نستعمله
معتزبين بفضلها في ميدانه الخاص به ، وإنما كان إهراضنا عنه فيما وراء الطبيعة
لأننا لا نريد أن نقحمه في غير دائرة اختصاصه .

نعود فنقول : إلام تنجّه ؟ إن الأمر ليس بين !! وتكشف الطريق
الصواب ليس من السهولة بمكان .

البصيرة ومشاكل ما وراء الطبيعة

ولكننا إذا ما لجأنا إلى الله نستلهمه الخير ونستهدبه طريق الرشاد .
وإذا ما توجهنا إلى القرآن نسترشده فبم ادلهم ونحفي ، لماذا نجد ؟
نجد أن القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، يرشد في
مواطن عدة ، إلى نوع من المعرفة ، ليس طريقه الحس ، وليس طريقه
العقل ، ولا يستمد صراحة من الكتب المقدسة ، ذلك النوع في أبسط صورة
وأعمها وأشملها هو الرؤيا فالقرآن يحدثنا في سورة يوسف عن عدة رؤى :
﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ : يَا أَبَتِ ، إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا ، وَالشَّمْسَ
وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾ .

ويعتقد والده في رؤياه ، ويؤمن بها ، ويسدى إليه النصيحة .

﴿ يَا بَنِي ، لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا ﴾

وحيثما سجن العزيز يوسف ﴿ ودخل معه السجن فتيان .

قَالَ أَحَدُهُمَا : إِنِّي أَرَأَيْتُ أَحْمَرَ خَمْرًا .

وقال الآخر : إِنِّي أَرَأَيْتُ أَحْمَلَ فَوْقَ رَأْسِي خَبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ ﴾ .

وذهبا إلى يوسف واستناباه الأمر ، وطلبا إليه مستعطفين :

﴿ بِنَا بِنَاؤِيهِ إِنَّا بَرَكْنَا مِنْكَ إِحْسِينًا ﴾ . ونأهما يوسف بتأويل الرؤى

ولا تقتصر السورة على ذكر ذلك :

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانًا ، يَأْكُلْنَ سَبْعَ عَجَافٍ ، وَسَبْعَ

منبئات خضر ، وأشر يابسات ، بأبيها الملائة أفتونى فى رؤىاى إن كنتم للرؤيا نهمون ﴿ .

ويفسر « يوسف » تلك الرؤى ، فىرى أن نفس الملك « تكشف لها المفضل ، ورأيت الغيب المحجوب ، وعبثت عنه فى صورة رمزية ، ويمر « يوسف » الرمز فىقول : ﴿ ترعون سبع سنين دأباً ، لما حصدتم قذروه فى سنه إلا قليلا مما تأكلون .

ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد ، يأكلن ما قدمت لهن إلا قليلا مما تحصنون .

ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يفاث الناس وفيه يعصرون ﴿ .

ولما اجتمع شمل « يوسف » بأبيه وإخوته وخر له إخوته سجداً .

ذكر « يوسف » آياه برؤيته السابقة وقال : ﴿ يا أبت هذا تأويل رؤىاى من قبل قد جعلها رى حقاً ﴿ .

والحديث الشريف يذكر أن الرؤيا جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة .

ليست الرؤيا معرفة حسية ، وليست معرفة عقلية ، وليست معرفة مصدرها الكتب المقدسة .

ولكن « قد قرب الله تعالى على خلقه بأن أعطاهم أتمودجاً من خاصية النبوة ، وهو النوم ، إذ التأم يدرك ما سيكون من الغيب ، إما صريحاً ، وإما فى كسوة مثال يكشف عنه التعبير . وهذا لو لم يجره الإنسان من نفسه - وقيل له : إن من الناس من يسقط مشقياً عليه كالميت ، ويوزل عنه إحساسه وسمعه وبصره . فيدرك الغيب - لأنكر وأقام البرهان على استحالة وقال : لفقوى الحساسة سبب الإدراك ، فن لا يدرك الأشياء مع وجودها وحضورها

فبالا يدركها مع وجودها ، أولى وأحق .

وهذا نوع قياس يكذب الوجود والمساعدة ﴿ .

والنبوة ، هى الأخرى ليست معرفة حسية ، وليست معرفة عقلية ، إنما ليست تجربة ، وليست منطلقاً ، وليست استفراء ناقصاً أو تاماً ، وليست قياس من الشكل الأول أو الرابع ، ولكنها وحى من الله .

والقرآن خاص بهذا المعنى من المعرفة الإلهية . إنه خاص بذكر الأنبياء والرسل الذين كلمهم الله وحياً ، أو من وراء حجاب ، أو بإرسال الرسل إليهم أعنى الملائكة .

والقرآن يحدثنا أيضاً فى أسلوب قصصى طريف شائق عن العبد الصالح الذى أخذ سيدنا « موسى » فى البحث عنه جهده ، حتى وجدته وأبدى رغبته فى اصطحابه ومرافقته ، فقال له العبد الصالح :

﴿ إنك لن تستطيع معى صبراً ﴿ .

وألح « موسى »

وقبل العبد الصالح - فى النهاية - على شروط اشترطها .

ولم يكن فيها رقيقاً « بموسى » أو عطفوا عليه . .

وسارا فأخذ العبد الصالح يأتي بأعمال لا تتسجم مع العاطفة ، ولا مع المنطق ولا مع العقل ، ولا مع القانون .

ولم يكن موسى ليحصل الصبر على ما يرى دون تفسير له وتعليل .

وكان من أول شروط العبد الصالح عليه ألا يسأله عن شيء ، ولم يجد

موسى إلى الصبر سبيلا ، ولم يجد العبد الصالح - وقد أخذ موسى بالشرط

(٣) الدال فى المنقذ من الضلال .

من أن يعلبها صريحة واضحة ﴿ هذا فراق بيني وبينك ﴾ والقصة كلها حجة بأن تذكر بأسلوب القرآن الطريف الشائق :

﴿ وإذا قال موسى لفتهاه : لا أيرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضي حيا ، فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما ، فاتخذ سبيله في البحر سريّا . فلما جاوزا قال لفتهاه :

لما غداتما ، لقد لقيتا من سفرنا هذا نصبا .

هـ : أرأيت إذ أوتينا إلى الصخرة ، فإني نسيت الخوت ، وما أنسانيه الشيطان أن أذكره ، واتخذ سبيله في البحر عجبا

قال : ذلك ما كنا نبغ ، فارتدا على آثارهما قصصا . فوجدنا عبدا من عندنا أتياه رحمة من عندنا وعلما من لدنا علما .

هـ : له موسى : هل أتبعك على أن تعلمني مما علمت رشدا .

هـ : إنيك لن تستطيع معي صبرا وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا .

قال : متجدتي إن شاء الله صابرا ولا أعصى لك أمرا .

هـ : فإن اتبعني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرا .

« مطلقا حتى إذا ركبا في السفينة خرقها ،

هـ : أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئا إمرا .

هـ : ألم أقل : إنيك لن تستطيع معي صبرا .

هـ : لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري حسرا .

« مطلقا حتى إذا لقيا غلاما فقتله .

قال : أقتلت نفسا زكية بغير نفس لقد جئت شيئا نكرا .

هـ : ألم أقل لك إنيك لن تستطيع معي صبرا .

قال : إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحني ، قد بلغت من لدني عدوا .

« مطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطاعا أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض فأقامه

قال : لو شئت لأنقضت عليه أجرا .

قال : هذا فراق بيني وبينك ، سأنتبك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا .

أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر فأردت أن أعيبها ، وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا .

وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقها طغيانا وكهرا ، فأردنا أن يبدلها ربها خيرا منه زكاة وأقرب رحما .

وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحا فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كثرهما رحمة من ربك ، وما فعلته عن أمري ذلك تأويل ما لم تستطع عليه صبرا ﴿ (١) .

هناك إذن طريق للمعرفة ، غير الحس وغير العقل .

ما السبيل إليه ؟

الطريق إلى المعرفة

إن تجارب الصالحين ، منذ عصور متطاولة ، دللت على أن تركية النفس ، وتطهيرها والاتجاه إلى الله ، والتقرب إليه ، كل ذلك يسمر بالإسنان إلى عالم من الروحية تستشرف فيه النفس إلى الملاء الأعلى ، فتفيض عليها منه نفعات ،

(١) سورة الكهف آيات ٦٠ - ٨٢

إلهامات ، ومعرفة لا تتأتى للنوى النفوس المادية ، الذين شغلوا بالدنيا عن الدين ، وبالمادة عن الله .

طريق البصيرة طريق صواب

ولكن الكثيرين يشكون في هذا الطريق - طريق البصيرة الذي سيبله الله ، والتطهر - الموصل إلى المعرفة ، ويرون أنه أسطورة من الأساطير أو خرافة المرافعات ، ويطلبون في إلحاح الاستدلال على أن هذا الطريق صحيح .

ويرون أن النوبة ، والرسالة ، والعبد الصالح ، كل هذه أمور خارقة ، وأرادها الله فكان ما أراد ، ولكن ليس هناك من دليل على أن غيرهم البشر يستطيعون أن يصلوا إلى معرفة إلهامية ، فما الدليل إذن على أن الله وسيلة من وسائل المعرفة ؟

هؤلاء نقول ما قاله الشيخ عبد الواحد يحيى : لأمثالهم من المعترضين ، مساحة السريون ، وأسئلة الجامعة . وعلماء باريس ، حينما دعوه لهم في « ما وراء الطبيعة » :

استبسال قوم : أمن الممكن أن تتخطى الطبيعة فنصل إلى ما وراءها ؟
الآن لا نتردد في أن يجيبهم في وضوح واضح : ليس ذلك ممكنا فحسب ، ذلك واقع موجود .

يقولون : تلك قضية تقتصر إلى برهان :
والآن أي برهان يمكن أن يقدمه الإنسان على وقوع هذا الأمر بوجوده ؟
العريب حقا أن يطلب البرهان على إمكان نوع من المعرفة ، بدلا من أن

يحاول الإنسان أن يصل إليها بتجربته الشخصية ، سالكا إليها ما تتطلبه من سبل .

إن الشخص الذي وصل إلى هذه المعرفة لا يمتبه - في قليل أو كثير - ما يشور حولها من جدل ونقاش .

وإنه لمن البين للواضح أن إحلال « نظرية المعرفة » محل « المعرفة » نفسها إعلان صريح على حيز الفلسفة الحديثة ، اهـ .

وهذا الرأي نفسه هو ما يراه كثير من كبار المفكرين ، في كل عصر : إنه رأي الفارابي ، ورأي ابن سينا ، ورأي الشيخ محمد عبده .

يقول الأستاذ الإمام في رسالة التوحيد :

« أما آرياب النفوس العالية ، والمقول السامية ، من العرفاء ممن لم تدن مراتبهم من مراتب الأنبياء ، ولكنهم رصوا أن يكونوا لهم أولياء ، وعلى شرعهم ودعوتهم أمناء ، فكثير منهم نال حظله من الأنس بما يقارب تلك الحال : حال الاتصال في النوع أو الجنس ، لهم مشاركة في بعض أحوالهم على شيء من عالم الغيب ، ولهم مشاهد صحيحة في عالم المثال لا تنكر عليهم لتحقق حقائقها في الواقع ، فهم لذلك لا يستبعدون شيئا مما يحدث به عن الأنبياء - صلوات الله وسلامه عليهم - ومن ذاق حرف ، ومن حرم الحرف .

ودليل صحة ما يتحدثون به وحيته : ظهور الأثر الصالح منهم ، وسلامة أعمالهم مما يخالف شرائع أنبيائهم ، وطهارة فطرهم مما ينكره العقل الصحيح ، أو يجهه الذوق السليم ، وانتفاعهم بباعث من الحق الناطق في سرائرهم ، المتألمة في بصائرهم ، إلى دعوة من يحف بهم إلى ما فيه خير العامة ، وترويح قلوب الخاصة .

ولا يخلو العالم من مسبيين بهم ، ولكن ما أسرع ما يتكشف حالهم ، ويسوء حالهم ، ومآل من غرروا به ، ولا يكون لهم إلا سوء الأثر في تضليل العقول ، وفساد الأخلاق ، والمحطات شأن القوم الذين رزقوا بهم ، إلا أن يتداركهم الله بلفظه ، فتكون كلمتهم الخبيثة : كشجرة خبيثة احتشت من فوق الأرض مالها من قرار ، (٥) .

التصوف أرستقراطية

١ - مما سبق تبين : أن « الصوفية » يرون أن الحس وسيلة إلى المعرفة ، له ميدانه .
وأن العقل وسيلة إلى المعرفة ، له ميدانه هو أيضا .
والبصيرة - التي سبيلها تركية النفس - وسيلة إلى المعرفة ، لها ميدانها .
ولا صلة لتركية النفس بالعاطفة . و« الصوفية » أقل الناس ، تأثراً بالمعاطف ، هل خلاف ما هو مشهور عادة ، وإذا استعملوا أحياناً كلمة القلب ، فلا يعنون بها ما يتصل من قرب أو من بعد بالعاطفة .
وتركية النفس طريق صعب المرتقى ، وتركيز الانتباه في الله - وهو المقصود بـ « الذكر » - وعمر المسلك ، ولذلك كان طريق التصوف طريقاً خاصاً لا يمكن سلوكه إلا لطائفة قليلة من الناس ، وإذا نظرنا إلى الشروط التي يجب توافرها في السالك ، علمنا أن الغفوس الجديرة بسلوك هذا الطريق من الندرة فكان .

ومن هنا يعترض خصوم « التصوف » قائلين :

(٥) رسالة الشيخ محمد عبده ، في التوحيد طبع في ١٩٠٦ - ١٩٠٧

« التصوف » إذن : « أرستقراطية »
وهذا اعتراض لا قيمة له : فد « التصوف » حقاً « أرستقراطية » .
وطبيعة الأمور تأتي إلا أن يكون « أرستقراطية » ، إنه نظام الصفوة المختارة ، إنه نظام هؤلاء الذين وهبهم الله حراً مرفحاً ، وذكاء حاداً ، وفطرة روحانية ، وصفاء يكاد يقرب من صفوة « ملائكة » ، وطبيعة تكاد تكون مخلوقة من النور .

٢ - وإذا كانت « الديمقراطية » معناه التساوي في كل شيء ، فهي أسطورة من الأساطير : فالتساوي لا يوجد في عالم الطبيعة بجمال الأحوال : إنه لا يوجد بين الحيوانات في العايب . ولا يوجد بين بني آدم في المدن أو في القرى .
إن الله لم يسو بين الناس في ألوانهم ، ولا في قوتهم الجسدية ، ولا في ذكائهم ، ولا في دهائهم ومكرهم ، ولا في أرزاقهم وحظوظهم . . . ونظام « الطبقات » الذي يسود في « الهند » ، « وادي ننتقه » ونسج عليه إنما هو النظام الواقع فعلاً في جميع أقطار الأرض .
و« الروس » الذين بلغت « الديمقراطية » عندهم حد الفوضى فيهم الرئيس والمرعوس ، والسائد بذكائه وقوته . والمسود بغبائه وضعفه .
و« الإنجليز » فيهم « الملك » و« الأبرار » و« النلاء » ، وفيهم « عامة الشعب » .

و« أفلاطون » ، وهو « فيلسوف » نابه ، قسم جمهوريته المثالية إلى « طبقات » وذلك بحسب استعداد كل طائفة من الطوائف : ففي « جمهوريته » : طائفة « الإنتاج » وهي الطائفة ذات « المعدة » الشرهة ،

لهذا التصوف المتقدم من الضلال

وطائفة « الجند » ذات العاطفة القوية .

وطائفة « القادة » معدن العقل والحكمة ، والبصيرة ، والإشراق .

٣ - « التصوف أرسقراطية » وهو في ذلك مسجج مع طبيعة الأمور : وعلى هذا لا يمكن أن يوجه إلى « التصوف » الاعتراض الرخيص ، الذي يقول : لو شمل « التصوف » كل الناس - فقد العالم : ذلك أن الناس جميعا لا يمكن أن يصبحوا متصوفين ، لطبيعتهم تأتي ذلك ، وأئمة « التصوف » يعلمون حق العلم أنه لا يمكن أن يطلب من طائفة الإنتاج : طائفة المدة والشهوة ، أن يتهجروا تهج السادة المختارين : معدن الصفاء والحكمة .

الناس معادن : على حد تعبير الرسول ﷺ - ومعادهم ثابتة لا تتغير فـ « خيارهم في الجاهلية » ، خيارهم في الإسلام إذا فقهوا ، إن فيهم المعدن الذهبي وفيهم المعدن الفضي ، وفيهم غير ذلك .

ويصور الشيخ محمد عبده ذلك غير تصوير فيقول في رسالة التوحيد : « لما شهدت به البديية ، أن درجات العقول متفاوتة ، يعلو بعضها بعضا ، وأن الأدنى منها لا يدرك ما عليه الأعلى ، إلا على وجه من الإجمال . وأن ذلك ليس لتفاوت المراتب في التعليم فقط ، بل لابد معه من التفاوت في القدرات لا مدخل فيها لاختيار الإنسان وكسبه ولا شبهة في أن من النظريات : عند بعض العقلاء ما هو بديهي عند من هو أرق منه ، ولا تزال المراتب ترتق في ذلك إلى ما لا يحصره العد ، وأن من أرباب المهمل وكبار النفوس من يرى البعيد عن صغارها قريبا ، فيسمى إليه ، ثم يتركه والناس دونه ينكرون بدايته ويعجبون لنهايته ، ثم بالنون ما صار إليه ، كأنه من المعروف الذي لا ينارح ،

والظاهر الذي لا يحاد ، فإذا أنكره منكر ثاروا عليه نورتهم نادى الأمر على من دعاهم إليه ولا يزال هذا الصنف من الناس على قته ، طاهرا في كل أمة إلى اليوم » (٦) .

والله سبحانه يذكر تمايز الناس فيما ينعم عليهم به ، ويبين أن منهم الأنبياء ، ومنهم الصديقون ، ومنهم الشهداء إلخ . قال تعالى : ﴿ ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم : من النبيين ، والصديقين ، والشهداء ، والصالحين ، وحسن أولئك رفيقا . ذلك الفضل من الله وكفى باقعا عليا ﴾ (٧) .

لا يدعو « الصوفية » إلى أن يكون الناس جميعا متصوفين . و « جل جناب الحق عن أن يكون شرعة لكل وارد ، أو أن يطلع عليه إلا الواحد بعد الواحد » .

إن أهل الحق نادرون ، وهذه فكرة بديية ، لا تحتاج إلى الاستفاضة ، بيد أن « الصوفية » : إذا كانوا لا يدعون الناس جميعا إلى « التصوف » فإنهم يعملون جهدهم للوصول إلى مجتمع أسمى ، إسم يريدون أن يسود بين جنات المجتمع جو من الروحانية والرحمة والهبة يجعل الناس إخوانا متعاونين ، متكاتفين .

(٦) رسالة التوحيد (للشيخ محمد عبده) طبع صح ٦٧

(٧) سورة النساء ٦٩ ، ٧٠

تفاوت الناس في فهم الدين

أما الاعتراض : بأنه إذا كان الإسلام الحق هو « التصوف » فالإسلام إذن دين طائفة محدودة ، لا يتيسر لكل إنسان : فهو اعتراض لا يسجم مع لترعة العامة عند « الصوفية » .

إن « الصوفية » لا يكفرون من عداهم ، إنهم يرون أن طائفة « الإنحاح » ناجية .

ولمحن جميعاً نعلم أن التحقيق الإسلامي ليس بدرجة واحدة عند جميع الناس : إن إيمان « أبي بكر » - رضوان الله عليه - ليس كإيمان غيره ، والرسول - ﷺ - يمثل تفاوت الطابع في الاسترشاد فيقول :

« إن مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً فكان منها طائفة طيبة قبلت الماء ، فأثبتت الكلاً والعشب الكثير .

وكان منها أجادب أمسك الماء فنفع الله تعالى بها الناس فشربوا منها وسقوا وزرعوا .

وأصاب طائفة منها أخرى إنما هي قيعان : لا تمسك ماء ولا تثبت كلاً .
فذلك مثل من فقه في دين الله تعالى وضعه ما بعثني الله تعالى به ، فلم وعلم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ، ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به .

التصوف قوة

والتصوف قوة : ذلك أن نفوس « الصوفية » حية : عندهم في سبيل الله ، يذلونها عن رضا لإعلاء كلمة الله ، فهم تتين جسوا أنفسهم المشاق لنشر الإسلام بين ربوع أفريقيا وأقطارها التي لم تمنحها جيوش الإسلامية . وقد كان لهم الفضل الأكبر في نشر الإسلام في (آسيا) وغيرها من الأقطار النائية .

وكانوا ينشرونه بالقدوة الطيبة ، والمخلق الكريم . أكثر مما ينشرونه بالحماية التي قد لا تجدي .

وكان الكثير منهم من المرابطين ، ومعروف أن المرابط هو ذلك الشخص الذي يعيش على الحدود الإسلامية : مكرساً حياته لصد غارة الأعداء . والعبادة والروحانية ، والزهد والورع ، كل ذلك ليس من مظاهر الضعف وإنما هو قوة .

يقول « ابن سينا » عن الصوف « العارف الشجاع » وكيف لا وهو بمعزل عن تقية الموت .

« التصوف » روحانية ، والروحانية قوة ، ولا يتارى في ذلك اثنان .

التصوف ليس دخيلاً على الإسلام

أما أن « التصوف » دخيل على الإسلام ، فيكفيها في الرد على ذلك أن نذكر ثلاثة آراء .

أولها : للشيخ « عبد الواحد يحيى » ، وهو جليل من صوفى .
والثاني : للمستشرق الشهير الأستاذ « مسينيون » ، الذي جرح أعظم باحث
في « التصوف » بين المستشرقين في العصر الحاضر :

والثالث لصاحب كتاب « التبصير في الدين » وهو منى ضد عنابة الرد على
كل من يخالف مذهب أهل السنة :

ومؤلفه هو : « الإمام الكامل » ، الفقيه الأصولى حرسه الإسرائيلى .
ويرى الشيخ « عبد الواحد » أن « التصوف » يكون جرحاً جوهرياً من الدين
الإسلامى ، إذ أن الدين يكون ناقصاً بدونهُ ، بل يحد ناقصاً من جهته
السامية ، أعنى جهة المركز الأساسى ، لذلك كانت فروصاً يخبئة ، تلك التى
تذهب بـ « الصوفية » إلى أصل أجنبى ، « يونانى » أو هندى ،
أو فارسى ، وهى معارضة بالمصطلحات « الصوفية » نفسها ، تلك
المصطلحات التى ترتبط باللغة العربية ارتباطاً وثيقاً :

وإذا كان هناك من تشابه بين « الصوفية » وما يخالها في البيئات الأخرى
تفسير هذا طبيعى ، لا يحتاج إلى فرض « الاستعارة » ، ذلك أنه مادامت
الحقيقة واحدة فإن كل العقائد السنية تتحد في جوهرها ، وإن اختلفت فيما
تلبسه من صور^(٨) .

ويقول الأستاذ « مسينيون » : وقد بين « نيكولسون » أن إطلاق الحكم
بأن التصوف دخيل في الإسلام غير مقبول .

والحق أننا نلاحظ منذ ظهور الإسلام أن الأنظار التى انتصت بها
« متصوفة » المسلمين « نشأت في قلب الجماعة الإسلامية نفسها في أثناء عكوف

(٨) انظر كتاب : القبول المسلم ، مكتبة الأجلو للصرية .

المسلمين على تلاوة القرآن ، والحديث وتقرئها وتأثيرها كما أصاب من
من أحداث ، وما حل بالأفراد من نوازل .

ويذكر صاحب كتاب « التبصير في الدين » ما يمتاز به « أهل السنة » عن
غيرهم من « الخوارج » و « الروافض » ، و « القدرية » ، فيذكر أن سادس
ما امتاز به « أهل السنة » هو :

علم « التصوف » ، و « الإشارات » ، وما لم فيها من الدقائق والحقائق ، لم
يكن قط لأحد من « أهل الدعوة » فيه حظ ، بل كانوا محرومين مما فيه : من
الراحة والحلاوة والسكينة والطمأنينة .

وقد ذكره أبو عبد الرحمن السلمى ، من مشايخهم قريباً من ألف وجمع
إشاراتهم ، وأحاديثهم ، ولم يوجد في جملتهم قط من ينسب إلى شىء من بدع
« القدرية » ، و « الروافض » ، و « الخوارج » .

وكيف يتصور فيهم من هؤلاء ، وكلامهم يدور على التسليم والتفويض ،
والتبرى من النفس ، والتوحيد بالخلق والمشيئة .

وأهل البدع ينسبون الفعل ، والمشيئة ، والخلق والتقدير إلى أنفسهم ،
وذلك بمنزلة عما عليه أهل الحقائق من التسليم والتوحيد^(٩) .
تعليل الإقبال على دراسة التصوف في العصر الحاضر .

(٩) التبصير في الدين - (لأبى منظور الإسرائيلى) الطبعة سنة ١٩١٧ هـ . ط السعيد حوت المطابع

التصوف في العصر الحديث

لقد كان أتباع « فولتير » في القرن الثامن عشر ، وأنصار « ريتان » في القرن التاسع عشر يسحرون ممن يتجه إلى دراسة « التصوف » وكان تأثيرهما من القوة بحيث كان الناس - شريون وغيرهم - منصرفين عن هذا الميدان ، مقلين على العلم الحديث ، معتقدين أنه يحل كل مشكلة في الطبيعة وفيها وراءها ، ولكن الناس الآن معنيون بالدراسة الصوفية ، فما الذي غير اتجاههم ؟ إننا ندع الأستاذ الكبير « عباس محمود العقاد » يفسر لنا ذلك بأسلوبه الرصين :

« ما الذي غير اتجاه العقل الإنساني في القرن التاسع عشر ؟

الذي غيره هو العلم نفسه ، لأنه عرف حدوده وكشف من غروره ، فهو اليوم يدعى ويتواضع كثيراً في دعواه : يدعى أنه يصف ما يحس ولا يزيد . لا نريد أن نقول : إن العلم أخفق في تعزية الإنسان وتعمير قلبه وضميره . كلا بل نريد أكثر من ذلك . بدأ أنه أخفق في دعواه الوحيدة التي كان خليفاً أن ينجح فيها ، لأن أصحابه كما يسمونه بالعلم « المادى » وهو اليوم لا يعلم من المادة إلا أنها حركة مجهولة ، في فضاء مجهول .

نعم كل مادة تتركب من ذرات ، وكل ذرة تتفلق فتصح شعاعاً ، وكل شعاع هو حركة في « الأثير » . وما « الأثير » ؟ . . . شيء كلاً شيء ، وليست به حدود ولا أوصاف ، ولا مقادير يرقها العلماء .

فالعلم المادى لا يعرف المادة إلا في هذه الحدود ، ومن الأدب إذن أن يتواضع كثيراً ، فلا يجتكر المعرفة ، ولا يتكبر على غيره أن يحاولها حيث

استطاعوا ، وهذا هو الجديد على العلم الحديث ، إنه لا يعلم كل شيء لأنه مقيد بالحواس . وإذا كانت الحواس لا تعلم جميع الأشياء ، فهل يعلمها الفكر ؟ كلا - أيضاً - لأن الفكر محدود ككل شيء في الإنسان .

فلا بد للمعرفة من وسيلة أخرى مع وسائل الحس ووسائل التفكير . لا بد لها من البصيرة ، أو من البديهة ، أو من الإلهام .

وذلك هو مجال التصوف ، أو مجال الدين . فهذه هي المعرفة التي يتعاون عليها الحس ، والفكر ، والإلهام^(١٠) .

• • •

أما بعد : فأرجو أن يكون الحق قد استبان مما بين الصوفية وغيرهم من نزاع ، وإني لعلني يقين من أن نظرة الإصاف ستزيل ما في نفوس خصومهم من حدة : فيتلاقى الجميع - في رحاب المودة التي يدعو إليها الصوفية - إخواناً في الله متحابين .

(١٠) حديث للأستاذ العقاد في الإداعة المصرية .

الفضل الخماس
الإمام الغزالي

- حياته
- نبذة عنه بقلم أحد معاصريه
- كتبه
- نصوص تبيّن منهجه

حياته

هو : « أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي » . ولد « بطوس » بسنة
إقليم « خراسان » عام ٤٥٠ هـ الموافق عام ١٠٥٨ م .
وكان والده - كما يقول « السبكي » ، في طبقاته - يفتل الصوف ، ويبيع في
دكانه بطوس ، فلما حضرته الوفاة ، أوصى به وبنيه : « أحمد » ، إلى صديق
له متصوف ، وأعطاه ما ادخره من مال يسير ، قائلا :
« إن لي لتأسفاً عظيماً على عدم تعلم الخط ، وأشئني استدراك ما فاتني ،
في ولدي هذين » .

وأشرف عليها الوصي الصالح ، وعلمها الخط ، إلى أن فني ذلك التزو
اليسير ، الذي كان قد خلقه لها أبوها ، وتعذر على الصوف القيام بقوتها ،
فقال لها :

اعلمي أني قد أتفتت عليكما ما كان لكما ، وأنا رجل من أهل التجريد ،
بحيث لا مال لي فأواسيكما به ، وأصلح ما أرى لكما أن تلجأ إلى مدرسة ،
فإنكما من طلبة العلم ، فيحصل لكما قوت ، يمينكما على وقتكما ، ففعلنا ذلك ،
وكان هو السبب في مساعدتها ، وعلو درجتها .

وكان « الغزالي » يحكي هذا ، ويقول :

طلبنا العلم لغير الله ، فإني أن يكون إلا لله (١) .

(١) من كتاب « إيضاح السادة المشفقين » بشرح « أسرار إحياء علوم الدين » ، للعلامة « محمد بن
محمد الحسيني الزبيدي » .

وفي عهد العبا في «طوس» أنك طرفاً من الفقه، على وأحمد
الراذكاني، ثم سافر إلى «جرجان»، ليأخذ عن الإمام «أبي نصر
الإسماعيلي» فسمع منه، وكب عنه، ثم عاد إلى «طوس»، فكث بها ثلاث
سنين، يتأمل ويتدبر، ويحفظ ما حصله «بجرجان».

وبعد ذلك، قدم «نيسابور» ولازم إمام الحرمين، حتى برع في
المذهب. (٢)

والخلاف والجدل، والأصلين (٣)، والمنطق، وقرأ الحكمة، والفلسفة،
وأحكم كل ذلك، وفهم كلام أرباب هذه العلوم، وتصدى لرد على مبطلهم
وإبطال دعاوهم... (٤)

وكان إمام الحرمين يصفه بأنه: «بحر مفرق».

ولما انتهت الحياة بإمام الحرمين (عام ٤٧٨ هـ - ١٠٠٥ م) خرج
«الغزالي» إلى العسكر، قاصداً الوزير: «نظام الملك»، «إذ كان محله
مجلس أهل العلم، ومحط رحلتهم، فناظر الأئمة العلماء في مجلسه، وقهر
الخصوم، وظهر كلامه عليهم، واعتبروا بفصله، فلقاه الصاحب بالتمظيم،
وصار اسمه في الآفاق، واشتهر في الأقطار».

ولما أصبح بهذه المثابة، اختاره نظام الملك للتوجه إلى بغداد، وذلك
للتدريس بالمدرسة النظامية بها، فقلعها في ستة أربع وثمانين وأربعائة، وقد
بلغ الرابعة والثلاثين من عمره المبارك. واستقبل في بغداد، استقبالاً حافلاً فقد
سبقته شهرته إليها.

(٢) طلب الشافعي رضي الله عنه.
(٣) بين أصول الدين وأصول الفقه.

(٤) شرح إمام طوم الدين الزبيدي.

وفي بغداد نال من الاحترام، ما يشبه التقديس. فقد صحت حشمته
الأمرء والملوك والوزراء، على حد تعبير «السبكي» وصار - على حد تعبير أحد
معاصريه، وهو «عبد الغافر الفارسي» - بعد إمامة «عبد بن محمد» في العراق.

• • •

ثم ماذا؟

ها هو ذا، قد بلغ قمة المجد، وأنته الدنيا شامخة ذليلة: ثم من جانبها
المال.

وأنته من جانبها الذي يتصل بالشهرة، وذويع الاسم.
وأنته من جانبها الذي يتصل بالجاه والنفوذ، حتى إنه ليذكر أن من قرب
من الولاة:

«كان يشاهد إخطابهم في التعلق في والانكباب على، وإعراض عنهم
وعن الالتفات إلى قولهم (٥)».

واستمع الإمام بكل ذلك فترة، لعلها لم تكن طويلة الأمد...
ثم ماذا؟

ثم كانت انتفاضة العارمة التي انتزعته قسراً وفي عتف، من وسط النعم
والأبهة والمجد... إلى حيث الاتزواء والعزلة. لقد كان ينعم في الترف
الديوري، وما هو ذا الآن ذاهب إلى الله. لقد كان يرفل في رياض من النعم
المادى، وما هو ذا الآن فار إلى ربه، ومهاجر إليه.

ماذا حدث؟

هل حدث هنا الانقلاب الكلي فجأة ودون مقدمات؟

(٥) نطق من الضلال.

لا حك أن ذلك لم يكن انضاضة فجائية ، كانضاضة مهدئة « عمر
ابن الخطاب ، التي اقلعت - في دقائق - جندور الشرك من أمماته ، وغرست -
في دقائق - أصول التوحيد في سويداء قواده ، فأمن في لحظة وأتاب :

لقد كان الإمام « الغزالي » ، طيلة حياته طلعة ، يجري وراء المجهول ، وكان
كما يقول عن نفسه :

« ولم أزل في عصفوان شبان - منذ راهقت البلوغ ، قبل سبع العشرين إلى
الآن ، وقد أناف السن على الخمسين - أقتحم لجة هذا البحر العميق (٦) ،
وأخوض غمرته خوض الجسور ، لا أخوض الجبان الخنور ، وأتوغل في كل
مظلمة ، وأتهجم على كل مشكلة ، وأنضم على كل ورطة ، وأنحص عن
عقيدة ، كل فرقة ، وأستكشف أسرار مذهب كل طائفة ، لأميز بين محق
ومبطل ، ومتسن ومبتدع .

لا أغادر باطنيا إلا وأحب أن أطلع على باطنيه .

ولا ظاهريا إلا وأريد أن أعلم حاصل ظهارته .

ولا فلسفياً إلا وأقصد الوقوف على كنه فلسفته .

ولا متكلمياً إلا وأحتد في الاطلاع على غاية كلامه ومجادله .

ولا صوفياً إلا وأحرص على العثور على سر صفوته .

ولا متعبداً إلا وأترصد ما يرجع إليه حاصل عبادته .

ولا زنديقاً معطلاً إلا وأتحسس ورامه لثنيه ، لأسباب جرأني في تعطيله

ورندقته .

(٦) يقصد بحر المعرفة .

ويقول أيضاً :

« قد كان التعمش إلى درك حقائق الأمور ، دأبي وديدي - من أول أمرى
وريعان عمري - غريزة ، وطرقة من طرقاته ، وصعنا في جبتي ، لا باختياري
وحيلاني ، حتى الملت على رابطة لضيق ، وانكسرت على العقائد الموروثة ،
على قرب عهد من الصبا .

ومن أجل ذلك يقول عنه « حتى يور » .

« وقد وهب هذا الفتي عقلاً متوثاً ، قوى الخيال ، لا يرضى بأى قيد
يقفه » .

ولكن هذا التهم في البحث ، وهذا الاستقصاء في الدراسة ، وهذه العقليّة
الجريئة النافذة ، كل ذلك : انتهى به إلى الشك ، ك ما يرى ، ويسمع ،
ويقرا وفي ما يقول ويعتقد .

وكان هذا الشك حيفاً ، حاداً ، شاملاً ، عاماً ، طيلة شهرين هو فيها :

« على مذهب السمطة ، بحكم الحال ، لا بحكم الطق والمقال » .

ولكن هذا لشك المطلق يشمل العام تبخر ررال ، لا ينظم دليل ،
وترتيب كلام ، « بل بنور قذفه الله تعالى في الصدر » .

• • •

زال ذلك الشك ، ليحل محله شك آخر ، حين سهل . وهذا الشك الثاني

إنما هو شك في طريق النجاة ، إنه الآن يؤمن بالله وبالرسالة وبالبعث ولكن

ما هي الكيفية التي يتكيف بها الإيمان ، فيما يتعلق بهذه الجوانب الثلاثة ؟

هذه الكيفية ، إذا وضحت : تحدد النجى الذي يجب أن يسير عليه .

ودراسته المستفيضة : يثبت له أن كل فريق من الباحثين - على كثرتهم

واختلافهم - « يزعم أنه الناجي ، وكل حزب بما لديهم فرحون » .

أي هذه الأحزاب حق ، وأيها مبطل ؟

ذلك هو : ما أخذ الإمام « الغزالي » نفسه باستكشافه .

ورأى أن أوضح طريق وأسسه ، أن يحرص أصناف الطالبين للحق ، ويدرسهم بمنهج « صنفاً ، أو فرقة ، فرقة .

وانحصرت الفرق عندة في أربع :

١ - « المتكلمون » : وهم يدعون أنهم أهل الرأي والنظر .

٢ - « الباطنية » : وهم يزعمون أنهم أصحاب التعليم ، والمختصون بالاقْتِباس من الإمام المعصوم .

٣ - « الفلاسفة » : وهم يزعمون ، أنهم أهل المنطق والبرهان .

٤ - « الصوفية » : وهم يدعون أنهم خواص الحضرة ، وأهل المشاهدة والمكاشفة ، اهـ .

هؤلاء هم السالكون سبل طلب الحق ، والحق إذن ، لا يدور هذه الأصناف الأربعة .

وشمر الإمام « الغزالي » عن ساعد الجهد ، لدراستها ، وابتدأ بعلم الكلام ، فوجده لا يشق غلته ، ذلك أن أكثر حوض المتكلمين إنما هو :

« في استخراج مناقضات الخصوم ، ومؤاخذتهم بلوازم مسلماتهم ، وهذا قليل النفع في حق من لا يعلم سوى الضروريات شيئاً أصلاً .

ونفى بدراسة الفلسفة ، وأطلعه الله على منتهى علوم الفلاسفة في أقل من ستين ، ثم أخذ يفكر فيما انتهى إليه قريباً من سنه ، يعاوده ، ويردده ، ويصدق غوائله ، وأغواره ، حتى اطلع على ما فيه من خداع وتلبيس ، وتخييل .

رأى أن مجموع ما صح ينحصر في ثلاثة أقسام :

١ - قسم يجب التكفير به .

٢ - وقسم يجب التبديع به .

٣ - وقسم لا يجب إنكاره أصلاً ،

أما هذا الذي لا يجب إنكاره فمثل :

١ - العلوم الرياضية .

٢ - المنطقيات .

٣ - العلوم السياسية .

٤ - العلوم الخلقية .

٥ - « أما الطبيعيات ، فلا إنكار فيها إلا في مسائل معينة ، ذكرتها في

كتاب « تهافت الفلاسفة » وأكثر أغالبهم إنما هي في :

٦ - الإلهيات .

ومجموع ما غلطوا فيه يرجع إلى عشرين أصلاً ، يجب تكفيرهم في ثلاثة

منها ، وتبديعهم في سبعة عشر .

وانصرف الإمام الغزالي عن الفلسفة ، لأن العقل :

« ليس مستغلاً بالإحاطة بجميع المطالب ، ولا كاشفاً للغطاء عن جميع

المعضلات » .

فأخذ يدرس مذهب التعليمية ، وهو مذهب يقوم على القول بـ « الحاجة

إلى التعليم والمعلم » وأنه : « لا يصلح كل معلم ، بل لابد من معلم معصوم » .

وقد نقد الإمام « الغزالي » مذاهبهم في قوة ، وفي عتق ، وألف كثيراً من

الكتب في الرد عليهم .

وسهل على قلبى الإعراض عن الجاه ، وآمال ، والأولاد ، والأصحاب ،
١٥١ .

تألف الإمام « الغزالي » بطائفة الخليل في الخروج من خناده ، مظهراً حزم
الخروج إلى مكة ، وهو يدبر في نفسه السفر إلى الشام . وسار يملؤه الأمل
العذب في المعرفة ، ويفسر قلبه الرجاء القوي في الفتح ، يفضّل الله به عليه ،
كما تفضل على من سلف من الأولياء والعارفين .
حتى إذا ما وصل إلى الشام ، أقام به قريباً من سبعين ، لا شغل له إلا
العزلة ، والخلوة ، والرياضة ، والمجاهدة : اشتغلاً بتركية النفس ، وتهذيب
الأخلاق ، وتصفية القلب لذكر الله تعالى ، وكان يشكف في منارة مسجد
دمشق ، طول النهار ، ويفلق بابها على نفسه .
ثم رحل من الشام إلى بيت المقدس ، فكان بدتل كل يوم الصخرة ويقلق
بابها على نفسه ، ثم سار إلى الحجاز لأداء روضة الحج ، وزيارة الرسول ،
صلوات الله وسلامه عليه .
ثم عاد إلى وطنه ملازماً بيته ، مشتغلاً بالتكبير .
ولقد كان ، في حله وترحاله مؤثراً العزلة ، حريصاً على الخلوة ، وتصفية
القلب للذكر . ودام ذلك كل ما يقرب من عشر سنوات ، اكتشف له في
خلواته في أثنائها ، أمور لا يمكن إحصائها : وأفاض الله عليه من النور
الإلهي ، وغمرته أطفاف الله ، وترقى به الحال إلى درجات يضيئ فيها نطاق
النطق ، وكان كتاب الإحياء من ثمار هذه الفترة .

ولما انتهى من كل ذلك ، أقبل جهده على طريق الصوفية .
وطريق الصوفية : حلم وعمل ، وابتداءً بتحصيل علمهم : من مطالعة كتب
أئمتهم ، مثل « قوت القلوب » ، « لأبي طالب المكي » ، رحمه الله ، وكتب
« الخارث المحاسبي » ، والمتفرقات الماثورة عن « الجنيد » ، « والشبل » ،
« وأبي يزيد البسطامي » ، قدس الله أرواحهم ، وغير ذلك من كلام مشايخهم
١٥٢ .
ولكن طريق الصوفية : لا يتم بالعلم فحسب ، بل إن العلم فيه : أقل
جانب من جوانبه ، أما الجانب الذي يصل بالإنسان إلى النور ، والإشراق ،
واليقين ، إنما هو الجانب العملي ، وهذا النوع يحتاج إلى الإقبال بكنه المهمة على
الله تعالى ، وذلك يقتضى الإعراض عن المال والجهد ، والشهرة وذويوع
الصيت ، ويقتضى الخلوة فترة تطول ، أو تقصر ، يتفرغ فيها الإنسان تفرغاً
كاملاً إلى الله فارغاً مهاجراً إليه .

وكان الإمام « الغزالي » إذ ذلك منغمساً في المال ، والجاه ، والشهرة . وبدأ
الصراع في نفسه بين الشهوات والدنيا من جانب ، وبين التجاني عن دار
الغرور ، والإنابة إلى دار الخلود من جانب آخر .
ولم يزل يتردد بين مجاذب شهوات الدنيا ، ودواصي الآخرة قريباً من ستة
أشهر ، ستة ثمان وثمانين وأربعمائة ، وانتهى الأمر في هذا التجاذب بأن اعتقل
لسانه عن التدريس ، وغمر قلبه حزن أثر على صحته ، فضضعت قواه ، ثم
يحدثنا هو عما فعل حينئذ :
« ثم أحسست بعمجى ، وسقط بالكعبة اختياري فالتجأت إلى الله تعالى ،
التجاء المضطر ، الذي لا حيلة له ، فأجابني الذي يجب للمضطر إذا دعاه ،

نبذة عن الإمام الغزالي

بقلم أحد معاصريه (٧)

محمد بن محمد بن محمد أبو حامد الغزالي ، حجة الإسلام والمسلمين ،
إمام أئمة الدين ، لم تر العيون مثله لساناً وبياناً ، ومنطقاً وخطباً وذكاه وطبعاً ،
أخذ طرفاً في صباه بطوس ، من الفقه على الإمام « أحمد الراذكاني » ، ثم قدم
نيسابور مختلفاً إلى درس إمام الحرمين في طائفة من الشبان من طوس ، وجد ،
واجتهد حتى تخرج في مدة قريبة ، وبز الأقران وحمل القرآن ، وصار أنظر أهل
زمانه ، وأوحد أقرانه ، في أيام إمام الحرمين ، وكان الطلبة يستفيدون منه ،
ويدرس لهم ، ويرشدهم ويجهدهم في نفسه ، وبلغ الأمر به إلى أن أخذ في
التصنيف ، وكان الإمام - مع علو درجته ، وسمو عبارته ، وسرعة جريه في
الطق والكلام - لا يصق نظره إلى « الغزالي » سراً لإيائه عليه في سرعة العبارة
وقوة الطبع ، ولا يطيب له تصديه للتصنيف ، وإن كان متخرجاً به متسبباً
إليه ، وهذا لا يجني من طبع البشر ، ولكنه يظهر التيجح به ، والاعتداد
بمكانه ، مظهر خلاف ما يضره ، ثم بق كذلك إلى انقضاء أيام الإمام .
فخرج من نيسابور ، وصار إلى العسك ، واحتل من نظام الملك محل
القبول وأقبل عليه صاحب لعلو درجته وظهور اسمه ، وحسن مناظرته ،

(٧) مر عبد الغفار بن إسحاق الفارسي الذي توفي سنة ٥٢٩ هـ ، وكان مسلماً بالإمام الغزالي
ومصاحباً له .

وجرى عبارته . وكانت تلك الحضرة محط رحال العلماء ، ومقصد الأئمة
والمصحاء ، فوقمت للغزالي اتفاقات حسنة من الاحتكاك بالأئمة وملاقات
الخصوم اللد ، ومناظرة الفحول ومناقدة الكبار ، وظهر اسمه في الآفاق وارتفع
بذلك أكمل الارتفاق ، حتى أدت به الحال إلى أن رسم للمصير إلى بغداد ،
للقيام بالتدريس في المدرسة الميمونة النظامية بها ، فصار إليها : وأعجب الكل
تدريسه ومناظرته ، وما لقي مثل نفسه ، وصار بعد إمامة خراسان إمام العراق .
ثم نظر في علم الأصول - وكان قد أحكمه - فصنف فيه تصانيف ، وجدد
المذهب في الفقه ، فصنف فيه تصانيف ، وسبك الخلاف ، فجدد فيه أيضاً
تصانيف ، وعلت حشمته ودرجته في بغداد حتى كانت تغلب حشمة الأكابر
والأمراء ودار الخلافة ، فانقلب الأمر من وجه آخر ظهر عليه بعد مطالعة العلوم
الدقيقة وممارسة الكتب المصنفة فيها ، وسلك طريق الزهد والتأله ، وترك
الحشمة وطرح ما نال من الدرجة للاشتغال بأسباب التقوى وزاد الآخرة ،
فخرج عما كان فيه وقصد بيت الله وحج ، ثم دخل الشام ، وأقام في تلك الديار
قريباً من عشر سنين : يطوف ويزور للمشاهد المعظمة ، وأخذ في التصانيف
المشهورة التي لم يسبق إليها ، مثل : إحياء علوم الدين ، والكتب المختصرة منه ،
مثل الأربعين وغيرها من الرسائل التي من تأملها علم محل الرجل من فنون العلم .
وأخذ في مجاهدة النفس ، وتبوير الأخلاق ، وتحسين الشائيل ، وتهذيب
المعاش فانقلب شيطان الرعونة ، وطلب الرياسة والجاه ، والتخلق بالأخلاق
الذميمة ، إلى سكون النفس ، وكرم الأخلاق والفراغ عن الرسوم والترتيبات ،
وتقريباً بزى الصالحين ، وقصر الأمل ، ووقف الأوقاف على هداية الخلق
ودعائهم إلى ما يعينهم من أمر الآخرة ، وتبويض الدنيا والاشتغال بها على

السالكين ، والاستعداد للرحيل إلى الدار الباقية ، والانقياد بكل من يتوسم فيه أويشم منه رائحة المعونة أو التيقظ شيء من أنوار المشاهدة ، حتى مر على ذلك ولان .

ثم عاد إلى وطنه ملازماً بيته مشتغلاً بالتفكير ، ملازماً للوقت ، مقصوداً تقياً ، وذخراً للقلوب لكل من يقصده ويدخل عليه ، إلى أن أتى على ذلك مدة وظهرت التصانيف وفشت الكتب ، ولم تبد في أيامه مناقضة ما كان فيه ولا اعتراض لأحد على أمره . حتى انتهت بوبه الوزارة إلى الأجل فخر الملك جمال الشهداء فعمده الله برحمته ، وترينت خراسان بحشمته ودولته ، وقد سمع وتحقق بمكان الغزالي إلى ودرجته . وكال فضله وحالته ، وصفاء عقيدته ومعاشرته . فببرك به وحضره ، وسمع كلامه ، فاستلحي منه ألبين نفاثه وفوائده عقيمة لا استفادة منها ولا اقتباس من أنوارها ، وألح عليه كل الإلحاح وشدد في الاقتراح ، إلى أن أجاب إلى الخروج ، وحمل إلى نيسابور ، وكان الليث غائباً عن عربنه ، والأمر خافياً في مستور قضاء الله ومكونه ، فأشير عليه بالتدريس في المدرسة الميمونة النظامية ، عمرها الله ، فلم يجد بداً من الإذعان لمولاه ونوى بإظهار ما اشتغل به : هداية الشداة وإفادة القاصدين ، دون الرجوع إلى ما انحلع عنه ونحمر عن رقه ، من طلب الجاه وممارسة الأقران ومكابرة المعاندين وكم قرع عصاه بالخلاف والوقوع فيه ، والطمع فيما ينزبه ويأتيه . والسعاية به والتشجيع عليه لما تأثر به ، ولا اشتغل بحروب الطاعنين ، ولا أظهر استيحاءاً بغميزة المخلصين . ولقد زرت مراراً وما كنت أحدث نفسي ما عهدته في سالف الزمان عليه من الزعارة . وإيحاء الناس ، والنظر إليهم بعين الازدراء ، والاستخفاف بهم كبيراً وخيلاً ، واغتراراً بما يروق من البسطة

في التعلق والخطاير والعبادة ، وطلب الجاه والعلو في شتيه ته صار على الضد ، وتصنى عن تلك الكلدورات وكنت أظن أنه متعصب بحسب التكلف ، متيمن بما صار إليه . فتحفت ، بعد التوى والتفتير . لأمر على خلاف المظنون ، وأن الرجل أفاق بعد الجنون ، وحكى لنا في أيام كعبة أحواله ، من ابتداء ما ظهر له من سلوك طريق التآله ، وغلبة الحار عليه . بعد تبحره في العلوم واستطالته على الكل بكلامه ، والاستعداد الذي حصه لله به في تحصيل أنواع العلوم وتمكنه من البحث والنظر ، حتى تيمم من الانتصاب بالعلوم العربية عن المعاملة وتمكر في العاقبة ، وما يجدى وما ينفع له في الآخرة فابتدأ بصحة الفارمدى وأخذ منه استخراج الطريقة ، وأمثل ما كان بشيره عليه من القيام بوظائف العبادات والإيمان في التواقل ، واستدانة الأذكار ، والجد والاجتهاد ، وطلباً للنجاة إلى أن جاز تلك العقبات ، وتكف تلك المشاق ، وما تحصل على ما كان يطلبه من مقصوده .

ثم حكى أنه راح العلوم ، وخاض في القنون وعاود الخد والاجتهاد ، في كتب العلوم الدقيقة واقتنى تأويلها حتى انفتح له أبوابها ، ونق مدة في الوقائع وتكاثر الأدوات ، وطراف المسائل ، ثم حكى أنه فتح عليه باب من الحروف ، بحيث شغله عن كل شيء وحمله على الإعراض عما سواه ، حتى سهل ذلك ، وهكذا إلى أن ارتص كل الرياضة ، وظهرت له الحقائق ، وصار ما كنا نظن به . نمرساً ومحلماً . طبعاً وتحققاً ، وإن ذلك أثر السعادة المقدره له من الله ثم سألت عن كيفية رغبته في الخروج من بيته ، والرجوع إلى ما دعى إليه من أمر نيسابور ، فقال معتدراً عنه :

ما كنت أجوز في ديني إلى أن أقف عن الدعوة . وسعة الطالبين بالإفادة ،

وقد حق على أن أبوب بالحق ، وأنطق به ، وأدعوا به . وكان صادقاً في ذلك ثم ترك قبل أن يترك وعاد إلى بيته ، واتخذ في جواره مدرسة لطلبة العلم ، وعاشقاه للصوفية ، وكان قد وزع أوقاته على وظائف الحاضرين من ختم القرآن ، ومجالسة أهل القلوب ، والعودة للتدريس ، بحيث لا تخلو لحظة من لحظاته ، ولحظات من معه عن فائدة . إلى أن أصابته عين الزمان ، وصنت به الأيام على أهل عصره فنقله إلى كرم جواره بعد مقاساة أنواع من التقصّد والمناوأة من الخصوم ، والسعى به إلى الملوك ، وكفاه الله وحفظه ، وصانه من أن تنوشه أيدي المنكيات ، أو ينتهك متردبته بشيء من الزلات ، وكانت خاتمة أمره : إقباله على حديث المصطفى ﷺ ، ومجالسة أهله ، ومطالعة الصححين : البخاري ومسلم ، اللذين هما حجة الإسلام ، ولو عاش لسبق الكل في ذلك الفن اليسير من الأيام يستفرغه في تحصيله . ولا شك أنه سمع الأحاديث في الأيام الماضية ، واشتغل بآخر عمره بسماعها ولم تنفق له الرواية ولا ضرر فيما خلفه من الكتب المصنفة في الأصول والفروع ، وسائر الأنواع التي نتخذ ذكره ، وتقرر عند المطالعين المستفيدين منها ، أنه لم يخلف مثله بعده .

مضى إلى رحمة الله يوم الاثنين الرابع عشر من جمادى الآخرة ، سنة خمس وخمسمائة ، ودفن بظاهر قبة طابران ، والله تعالى ينحصره بأنواع الكرامة في آخرته ، كما خصه الله بفتون العلم في دنياه بجمته .

ولم يعقب إلا البنات ، وكان له من الأسباب إراثاً وكسباً ما يقوم بكفايته ، نفقة أهله وأولاده . فما كان يباسط أحداً في الأمور الدنيوية ، وقد عرضت عليه أموال فما قبلها وأعرض عنها ، واكتفى بالقدر الذي يصون به دينه ولا يحتاج معه إلى التعرض لسؤال ومثال من غيره .

وما كان يعترض به عليه : وقوع خلل من وجهة التوزيع في أثناء كلامه ورجع فيه فأنصف من نفسه ، واعترف بأنه مارس ذلك الفن ، واكتفى بما يحتاج إليه في كلامه ، مع أنه كان يؤلف الخطب ، ويشرح الكتب بالعبارات التي تعجز الأدباء والقصاصاء عن أمثالها ، وأذن للذين يطالعون كتبه فيعثرون على حلل فيها من جهة اللفظ أن يصلحوه ويبدروه ، فما كان قصده إلا المغاني وتحقيقتها ، دون الألفاظ وتلفيقها .

وما نقم عليه : ما ذكر من الألفاظ المستبشرة بالفارسية في كتاب كيمياء السعادة والعلوم ، وشرح بعض الصور والمسائل ، بحيث لا يوافق مراسم الشرع ، وطاهر ما عليه قواعد الإسلام ، وكان الأولى به والحق أحق ما يقال : ترك ذلك التصنيف والإعراض عن الشرح به فإن العوام ربما لا يحكمون أصول القواعد بالبراهين والحجج فإذا سمعوا شيئاً من ذلك تخيلوا منه ما هو المضمر بعقائدهم ، ويسبون ذلك إلى مذهب الأوائل ، على أن المصنف اللبيب إذا رجع إلى نفسه علم أن أكثر ما ذكره ، مما رمز إليه إشارة الشرع . وإن لم يبح به ويوجد أمثاله في كلام مشايخ الطريقة مرموزة ومصرح بها متفرقة وليس لعظ منها إلا وكما يشعر أحد وجوهه بكلام موهم فإنه يشعر سائر وجوهه بما يوافق عقائد أهل الملة فلا يجب إذن حمله إلا على موافق ، ولا ينبغي أن يتعلق به في الرد متعلق إذا أمكنه أن يبين له وجهاً في الصحة يوافق الأصول ، على أن هذا القدر يحتاج إلى من يظهره ، ويقوم به وكان الأولى أن يترك الإفصاح بذلك كما تقدم ذكره ، وليس كل ما يتعدد ويتمشى لأحد تقديره ينبغي أن يظهره بل أكثر الأشياء مما يدرى بطوى ولا يحكى . فعل ذلك درج الأولون من السلف الصالح إبقاء على مراسم الشرع وصيانة الدين عن طعن الطاعنين وعيرة

وقد ثبت أنه سمع سنن أبي داود السجستاني . عن الحاكم أبي الفتح الحاكمي الطوسي وما عثرت على سماعه . وسمع من الأحاديث المتفرقة آفاقاً من الفقهاء . فما عثرت عليه ما سمعه من كتاب ، مولد النبي ﷺ ، من تأليف أبي بكر أحمد بن عمرو بن أبي حاصم البشيباني . رواية الشيخ أبي بكر أحمد ابن الحارث الأصبهاني الإمام عن أبي محمد عبد الله بن محمد بن جعفر بن حيان ابن المصنف ، وقد سمعه الإمام الغزالي من الشيخ : أبي عبد الله محمد بن أحمد الخوارزمي : خوار طابران ، مع ابنه : الشيخين عبد الجبار ، وعبد الحميد ، وجهاة من الفقهاء .

ومن ذلك ما قال : أخبرنا الشيخ أبو عبد الله بن محمد أحمد الخوارزمي ، أخبرنا أبو بكر بن الحارث الأصبهاني ، أخبرنا أبو محمد بن حيان ، أخبرنا أبو بكر أحمد بن عمرو بن أبي حاصم بن إبراهيم بن المنذر الخوارزمي ، حدثنا عبد العزيز بن أبي ثابت ، حدثني الزبير بن موسى ، عن ابن الخويرث قال : سمعت عبد الملك بن مروان . سأل قتات بن أشيم الكتافي : أنت أكبر أم رسول الله ﷺ ؟ فقال : رسول الله ﷺ : أكبر مني وأنا أسن منه . ولد رسول الله ﷺ . عام الفيل . وتمام الكتاب في جزء مسموع له نقله الأستاذ عبد الكريم عثمان ، عن الطقات الكبرى للسبكي ، وفي كتابه النفيس « سيرة الغزالي » .

كتبه

ولقد ألف الإمام الغزالي عشرات الكتب ، عد منها صاحب طفت الشافية ما يقرب من ستين كتاباً .

وعد منها شارح الإحياء الإمام الزبيدي ما يقرب من ثمانين كتاباً ورسالة ، منها في الفقه : الوجيز ، والوسيط ، والبسيط .

ومنها في علم الكلام : الاقتصاد في الاعتقاد .

ومنها في الفلسفة : مقاصد الفلاسفة ، ونهايت الفلاسفة .

ومنها في التصوف : بداية الهداية ، ومحتاج العابدين ، وكتاب الإحياء .

بيد أننا ، إذا تصفحنا مؤلفات الإمام الغزالي - سواء منها ما ألف قبل فترة تصوفه وما ألف في أثنائها ، فإننا نجد أن أهمها في نظر الباحث الذي يريد أن يحدد شخصيته ومهجه واتجاهه ثلاثة :

وهي - فضلاً عن ذلك - تعتبر في نظره أهم كتبه على الإطلاق .

ولو لم يؤلف الإمام الغزالي غيرها ، لبقى هو الغزالي العملاق ، الصوفي الفيلسوف بطاعه وسماته وشخصيته ، لا يتقص شيئاً . . ولكنه لو لم يؤلفها ، لما كان هو الإمام الغزالي صاحب الأثر الخالد على الدهر .

١ - أما أحدها ، فإنه : كتاب المنتقى من الضلال .

وهو كتاب لا غنى للباحث في تطور حياة الغزالي الفكرية عنه ، ففيه يقص الإمام حياته الفكرية ، في تطورها : من الدراسة المستفيضة إلى الشك ، ثم إلى اليقين .

ويحدد موقفه من علم الكلام ، ومن مذهب التطهيرية ، ومن السنة
والفلاسفة ثم من التصوف .

وفي بين موقفه من مسألة النبوة ، ومن الشكوك التي ترد عليها ، وبين
الطريق الصواب ، لإحياء الشعور الديني ، حينما يتر عند بعض الناس .
وهو من الكتب التي يندرج ما يناهها في لغاتها الشريفة ، إذ أن كبار المفكرين

صداً ، لم يتجهوا إلى تسجيل تاليفهم الفكري ، وخصائصهم اللغوية .
ولم يسبق « الغزالي » - فيما نعلم - في هذا النهج سوى « الحارث بن أسد
الهاشمي » ، في مقفنة كتاب الوصايا : فإنه قص فيه طرفاً من سيرته ، وشكك المين
السهيل ، ثم بقيته الذي انتهى إليه ، وقد قرأ الإمام « الغزالي » كتب
« الحارث » وانتفع بها ، ورواها كانت مقفنة كتاب « الوصايا » ، من الموامل التي
دفعت الإمام « الغزالي » إلى كتابة « المنقذ » .

وقد كسبه الإمام « الغزالي » بعد أن أناف سنة على المحسنين ، كما يذكر هو .
٢- وأما ثانيها فإنه : « ناهت الفلاسفة » .

وهو كتاب تدل تسميته على ما يقصد به ، فإن الإمام « الغزالي » ، حينما
سمى كتابه : ناهت الفلاسفة - كما يقول « بلاسيوس » - كان يريد أن يعزل
لنا : أن العقل الإنساني ، يبحث عن الحقيقة ، ويريد الوصول إليها ، كما
يبحث البهوض من ضوء النهار ، فإذا أبصر شعاعاً ، يشبه نور الحقيقة ، انخدع
به ، فرمى بنفسه عليه ، ونهات فيه ، ولكنه يخطئ ، عموماً بأقضية منطقية
خاطئة ، فيهلك ، كما يهلك البعض .

فكان الغزالي يريد أن يقول :
« إن الفلاسفة خدعوا بأشياء ، أسروا إليها بلا إعمال روية ، فناهتوا ،

وهلكوا الملاك الأبدى » .

وقد حاول « بلاسيوس » ، أن يجد في عبارات كتاب : « الناهت » وفي
استعمال « ابن رشد » ، هذه الكلمة ، ما يؤيد اقتضائه (٨) .

وما لا شك فيه ، أن كتابه هذا : عبارة جريئة كل الجراءة ، موفقة كل
الترويض .

وما كان المقصد الأول والمهدف الأساسي ، لمحجومه ، هو عدم الآراء في
نفسها ، إذ أن بعضها صحيح ، موافق للدين .

وإنما كان هدف الإمام « الغزالي » : عدم للنهج العقل ، الذي استندت
إليه هذه الآراء .

لمخلود النفس مثلا : رأى يقول به الإمام « الغزالي » ويقول به الفلاسفة ،
ولكن الإمام حمل معوله ، وأحد يهدم بيد قوية ، المملك العقل ، الذي أثبت

به الفلاسفة مخلود النفس ، فانهارت أدلتهم ، ونهاتت .
لقد فعل ذلك مع إيمانه بمخلود النفس .

وهو لم يلتزم في الكتاب إلا تكدير مذهبيهم ، والتفجير في وجود أدلتهم ، بما
يبين ناهيتهم (٩) .

ومقصوده : تيه من حسن اعتقاده في الفلاسفة ، وظن أن مسالكهم تقيه
عن التناقض ، ببيان وجود ناهيتهم .

ويقول :
« أنا لا أدخل في الاعتراض عليهم ، إلا دخول مطالب منكسر ، لا دخول

(٨) من كتاب « تاريخ الفلسفة في الإسلام » . ترجمة الدكتور محمد عبد الغدادي أبو ريرة .
(٩) من كتاب « الناهت » .

مدع شت ، فأبطل عليهم ما اعتقدوه مقطوعاً بالزمامات مختلفة ، فألزمهم تارة ، مذهب المعتزلة ، وأخرى ، مذهب الكرامية ، وطوراً مذهب الواقعية ، ولا أنتهض ذاكاً عن مذهب مخصوص .

ولقد وفق الإمام «الغزالي» توفيقاً تاماً ، فيما انتطب نفسه إليه في هذا الكتاب ، وهو : إثبات أين العقل - إذا لم يتخذ الوحي هادياً ومرشداً - عاجز كل المعجز ، عن الوصول إلى المعرفة الصحيحة ، فيها وراه الطبيعة .

٣- أما ثالث الكتب فإنه : «الإحياء» .

وهو أهمها ، وأهم كتب الإمام «الغزالي» عامة ، ولقد قال فيه الإمام «السيوطي» : «كاد الإحياء يكون قرآناً» .

وقد ألفه الإمام «الغزالي» ، في أوائل الفترة التي اصطحب فيها مع العزلة ، وما يؤيد ذلك ، ما رواه الإمام «أبو بكر بن العربي» في كتابه : «القواصم والمواصم» من أنه التقى بالإمام بمدرسة السلام ، في جمادى الآخرة ، سنة تسعين وأربعمائة : وكان قد راض نفسه بالطريقة الصوفية من سنة ست وثمانين ، إلى ذلك الوقت نحواً من خمسة أعوام . . . فقرأت عليه جملة من كتبه ، وسمعت كتابه الذي سماه : «الإحياء لعلوم الدين» . . .

أما فيما يتعلق بالبواعث التي من أجلها ألف الإمام . «كتاب الإحياء» .
وأما فيما يتعلق بالهدف الذي من أجله ألف كتاب «الإحياء» .
وأما فيما يتعلق بجوهر موضوعه . فإن ذلك كله يتلخص في كلمة واحدة هي الإخلاص .

ولقد روى «ابن الجوزي» : أن بعض أصحاب «أبي حامد» . سأله قبيل الموت قائلاً : أوصني فقال له : «عليك بالإخلاص» ولم يقل بكرر حاجتي الموت

عليك بالإخلاص ! ! لقد تلفت «أبو حامد» يوماً إلى نفسه ، فوجد أنه متجرد من الإخلاص ، وأن كل همه ، إنما هو الشهرة ، والصبية ، والجاه ، والمترلة عند الناس ، وعند الحكام . . . وانخفض «أبو حامد» انخفاضته ، التي وضع بها نفسه في محيط الإخلاص . . .

وتلفت «أبو حامد» - بعد ذلك - فيما حوله ، فوجد أن الناس هم ، بكم ، همي ، عن قوله تعالى :

﴿ألا لله الدين الخالص﴾

وعن قوله تعالى : ﴿وما أمروا إلا ليعبدوا الله ، عاقلين له الدين﴾ .
وقوله تعالى : ﴿فادعوا الله ، عاقلين له الدين﴾ .

وغير ذلك من الآيات الكثيرة ، التي تدعو إلى الإخلاص في الدين ، وإلى إخلاص الدين لله وحده ، وهي في دعوتها إلى الإخلاص ، إنما تدعو إلى التوحيد .

ووجد أن الشيطان : قد استحوذ على أكثر الناس ، واستفواهم الطغنيان ، وأصبح الدين - في نظر علمائه ، فضلاً عن غيرهم - فتوى حكومية ، أو جدلاً للمباهاة والعبث والإفحام ، أو سجعاً مزخرفاً ، يتوسل به الواعظ إلى استدراج العوام .

لما رأى «أبو حامد» ذلك ، ألف كتابه النفيس .

وألفه ليستعيد الإخلاص إلى القلوب ، ليستعيد ما درج عليه السلف الصالح : من اتخاذ الإخلاص أساساً ، وشعاراً ، وما من شك في أن إخلاص الدين لله وحده ، هو التوحيد ، وما من شك في أن التوحيد : هو جوهر الدين الإسلامي ، وهو طابعه ، وهو هدفه ، وغايته .

فضية التصوف للفقير من الضلال

وألف الإمام كتابه إيدن ، ليعين فيه الإخلاص نساء ، ونتائج ، وأسباباً ، وغايات .

ورنّب الكتاب أقساماً ، والأقسام كتباً ، والكتب أبواباً ، والأبواب فترات . . . كل ذلك ليسهل تناوله .

فلما أقسام الكتاب فهي أربعة :

١ - قسم العبادات : يذكر فيه من خفايا آدابها ، ودقائق سننها ، وأسرار معانيها ، كل ما يحتاج العالم العامل إلى معرفته : من وجوه الإخلاص فيها ، وإقامتها على الأسس التي يحبها الله ، سبحانه ، ورسوله ، ﷺ .

٢ - قسم العبادات : يذكر فيه أسرار المعاملات الجارية بين الخلق ، وأغوارها ودقائق سننها ، وخفايا الورع في مجاريها ، وذلك مما لا يستغنى عنه متدين .

٣ - قسم المهلكات . وهي الأخلاق المنمومة ، التي ورد القرآن بتطهير القلب منها : يعرف بها ، ويذكر أسبابها ، وما ينشأ عنها من مضار ، ثم يذكر طرق العلاج منها .

٤ - قسم المنجيات : يذكر فيه كل خلق محمود ، ويشرح الوسائل التي بها يكتسب ، والآثار التي تجني من الخلق به .

وهو في كل هذه الأقسام : يتدبّر كل موضوع يعالجه يذكر الآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية ، والآثار عن الصحابة والتابعين ، وأخبار الصالحين .

تحليل كتاب « الإحياء »

ويفتح كتابه : « بكتاب العلم » فيسير فيه على حسب طريقته المحددة : « شواهد الآيات ، والأخبار ، والآثار » وشواهد الشرح والعقل .

لقد ﴿ شهد الله ، أنه لا إله إلا هو ، والملائكة ، وأولو العلم ، قائماً بالقسط ﴾ فاطر كيف بدأ سبحانه وتعالى بنفسه ، وثق بالملائكة ، وثالث بأهل العلم . وناهيك بهذا شرفاً ، وفصلاً ، وجلالاً ونبلاً .

ويقول صلوات الله وسلامه عليه : « العلماء برقة الأنبياء » ومعلوم أنه لارتبة فوق النبوة ، ولا شرف فوق شرف الوراثة لتلك الرتبة . وقال الأحنف رحمه الله : « كاد العلماء يكرنون أرباباً » .

والعلم الذي يريد به الإمام « الغزالي » ، أوسع دائرة وأعم موضوعاً ، مما نسميه العلم الآن : إذ أن العلم الذي يريد به الإمام « الغزالي » إنما هو : علم الدين والدنيا ، ولا يجرم الإمام « الغزالي » منه إلا ما يضر المجتمع ، كعلم السحر مثلاً : فإذا أدى العلم إلى ضرر ما ، إما لصاحبه ، أو لغيره كان مذموماً . والمهدف من العلم . على كل حال : زيادة الهداية ، وعرس الإخلاص .

فإن من ازداد علماً . . . يزداد هدى ، لم يزد من الله . لا بعداً . ولا بد للإخلاص من معرفة العقائد الصحيحة ، وتلك بتقّي الإمام « الغزالي » بكتاب . « قواعد العقائد » وقواعد العقائد تدور حول ثلاث مسائل :

١ - الله وصفاته . لأساس فيه ، أنه ليس كمثل شيء . وأنه متصف بكل

صفات الكمال : كالحياة والقدرة ، والعلم الشامل ، والإرادة الكاملة ، وغير ذلك من صفات الجلال والجمال .

٢- وأنه ، سبحانه : بعث محمداً ، ﷺ ، برسالته إلى كافة العرب والعجم ، فمسخ بشريعته الشرائع ، إلا ما قرره منها ، ومنع كمال الإيمان بشهادة التوحيد - وهي قولك : لا إله إلا الله . ما لم تقتن بشهادة الرسول ﷺ وهي قولك : محمد رسول الله ، وألزم الخلق تصديقه في جميع ما أخبر به من أمور الدنيا والآخرة .

٣- والمسألة الثالثة هي الإيمان بالآخرة : البعث ، والحساب ، والنعم أو العذاب .

وسواء كنا بصدد معرفة وجوده تعالى ، أو معرفة صفاته ، أو معرفة أحوال الآخرة ، أو معرفة صدق الرسول ، صلوات الله وسلامه عليه . فإن أول ما يستضاء به من الأنوار ، ويسلك من طريق الاعتبار : ما أرشد إليه القرآن في ذلك . فليس بعد بيان الله سبحانه بيان ، وفي القرآن إرشاد ، واستدلال واضح على كل ذلك .

ويتبنا الإنسان للإخلاص بالطهارة ، والطهارة ظاهرية ، وباطنية ، وقد أطال الإمام الغزالي في الطهارة الباطنية ، وستحدث عنها فيما بعد إن شاء الله .

أما الطهارة الظاهرية ، فمنها الوضوء فإن : « من توضأ فأحسن الوضوء وصلّى ركعتين لم يحدث نفسه فيها بشيء من الدنيا ، مخرج من ذنوبه ، كيوم ولدته أمه » .

« والوضوء على الوضوء : نور على نور » بيد أن الوضوء إنما شرع من أجل

الصلوة ، والصلوة إنما هي الباب الذي يدخل منه الإنسان إلى الله . سبحانه وتعالى ، يتأجبه وينغمس في رحابه ، ويستثير بنوره ، وهي من أجل ذلك عماد الدين ، وعصام اليقين ، ورأس القربات ، وغرة الطاعات . « كانت حل المؤمنين كتاباً موقوتاً » ، وإنما لتسهي عن الفحشاء والمنكر ، وهي كذلك بشرط الخضوع وحضور القلب ، وهذا هو معنى الإقامة في قوله تعالى : « أقم الصلاة » .

أما من لم يكن كذلك في صلاته : فإنه يدخل تحت قوله صلوات الله وسلامه عليه : « كم من قائم حفظه من صلاته التعب والنصب » وما أراد ، صلوات الله وسلامه عليه ، بذلك إلا الغافل ، أما إذا خشع في صلاته ، فإنه يدخل في دائرة قوله تعالى :

« قد أفلح المؤمنون ، الذين هم في صلاتهم خاشعون » .

ويقول الله ، سبحانه ، الركة بالصلوة في غير ما موضع : « أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة » وقد جعلها الله تركية ، ويفضلها تركي من عباد الله من تركي ، وقد شدد الله الوعيد على المقصرين فيها فقال : « والذين يكنزون الذهب والفضة ، ولا ينفقونها في سبيل الله ، فبشرهم بجناب أليم » ، ومعنى الإنفاق في سبيل الله : إخراج حق الركة ، والزكاة نوع من تجريد الإنسان عن جزء من المادة بعد امتلاكه ، وذلك من أجل الله .

والصوم باب العبادة وسبب الإخلاص ، فإذا ما صام الإنسان إيماناً واحساباً ، باهى الله به ملائكته ، وكانت كل حركاته عبادة حتى نومه . والصوم ثلاث درجات : صوم العموم وهو : كف البطن والفرج عن قضاء الشهوة ، وصوم حصير وهو : كف الجوارح عن الآثام ، وصوم

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ الْمُدْعِيَ إِذَا دَعَانِ ﴾ .
ولكن لابد للإجابة عن التوبة ، ورد الطعام ، والإقبال بكنه الله ، على
الله عز وجل ، فذلك هو السبب القريب في الإجابة .

وبعد أن ينتهي الإمام والنزول ، بذلك من ريع المبادات ، يبدأ في ريع
المادات ، فيبتغي فيه آداب الأكل ، وآداب النكاح ، ثم يبتغي آداب الكسب
والمماشى ، ويصعد من فضيلة العمل ، ومن الآثار الكريمة : قرآنية ونبوية في
فضل العمل ، وفي استقامة المال ، والتجار : لمن لا تترك ذنوب ، لا يكفرها
إلا المهم في طلب الميعة ، والتاجر الصدوق يحشر يوم القيامة مع الصديقين
والشهداء .

ويخلص من ذلك إلى كتاب جليل تيسر هو : « كتاب اطلاق والحرام »
واطلاق : كله طيب ، ولكن بعضه أطيب من بعض ، والحرام كله خبيث ،
ولكن بعضه أخبيث من بعض .

ويفضل الإمام كل ذلك ، ليعتني إلى « كتاب آداب الأئمة والأخوة
والمسحبة ، وأساسه حسن الخلق ، والتأسي فيه بالرسول الذي يقول الله له :
﴿ وَإِنَّكَ لَمِنَ خَلْقٍ مُطَهَّرٍ ﴾ وقد بحث ، صلوات الله عليه وسلامه ، ليعتم
مكارم الأخلاق .

فإذا ما كان حسن الخلق كانت الأخوة ، وفاقدة الأخوة ، كما يريد لها الدين
عظيمة .

وقد قال صلوات الله عليه وسلامه في التناء على الأخوة في الدين : « من
أراد الله به خيراً رزقه خيلاً صالحاً ، إن نسي ذكره وإن ذكره آمنه » .
ومن أروع ما قاله صلوات الله عليه وسلامه في ذلك : « مثل الأخوين ،

مخصوص المخصوص وهو : صوم القلب عن المسلم الدينية ، والأفكار
الدنيوية ، وكفه عما سوى الله عز وجل ، بالكافية . ويمكن في فضل الحج
ما رواه الشيخان : البيهقي ومسلم : « من حج ثم يموت ، ولم ينس ، خرج
من دونه يوم ولدته أمه » .

والقرآن : كتاب الإسلام المترك ، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من
خلفه ، من تحسك به مؤمراً ، ومن عمل به فقد فاز ، ولقد قال صلوات الله
وسلامه عليه :

أهل القرآن أهل الله وخاصته ، والقرآن : رسائل أنبياء ، من قبل رشا .
بعبودته تدبرها في الصلوات ، ووقف عليها في المحلوات ، وسمعتها في
الطاعات ، والسنين النجيات ، وهو شفاه ورحمة للمؤمنين ، وتلاوته إذن
مطلوبة - جلالة القلوب ، وشفاه لما في الصدور ، وغرساً للإخلاص ، وتيسيراً
للتوحيد .

والقرآن يوعى من الذكر والدعاء ، وقد حث الله على الذكر في قوله تعالى :
﴿ فَادْكُرُوا آلَ ذِكْرِكُمْ ﴾ ، وفي قوله تعالى . ﴿ اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴾
والخلص يذكر الله على الدوام ، مع حضور القلب ، فما الذكر باللسان ،
والقلب لا وهو قليل الجدى .

ولقد فضل رسول الله ﷺ قول : « لا إله إلا الله ، على سائر الأذكار ،
لأنها عنوان الإخلاص ، ودليل التوحيد .

ومن الذكر : الصلاة على سيد المرسلين : ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى
النَّبِيِّ ﴾ ، بأنها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً ﴾ .

ومن الذكر : الدعاء ، والدعاء مع العبادة ، يقول الله تعالى :

إذا اتضا مثل اليلين : تفصل إحداهما الأخرى ، وما اتقى مؤمنان قط ، إلا أفاد الله أحدهما من صاحبه خيراً .

ثم يتحدث عن العزلة والاختلاط ، مبيناً الآراء في كل منها لينتهي إلى أن كلام الشافعي ، رحمه الله ، في هذا الموضوع - وهو فصل الخطاب - إدار قال : « يا يونس ، الانقباض عن الناس شكسبة للعداوة ، والانبساط إليهم : مجلبة لقرناء سوء ، فكن بين المنقبض والنسبط ، ولذلك يجب الاعتدال في المخالطة والعزلة ، ويختطف ذلك بالأحوال ، وبملاحظة الفوائد والآفات يتبين الأفضل ، هنا هو الحق الصراح ، وكل ما ذكر سوى هذا فهو قاصر ، وإنما هو إحصار كل واحد عن حالة خاصة هو فيها ، ولا يجوز أن يحكم على غير المخالف له في الحال .

والسفر للعظة والاعتبار من أعظم ما يفيد الإنسان في جانبه الروحي ، ولكن السفر قد يكون يسير القلب عن أسفل السافلين إلى ملكوت السموات ، وهو أشرف من السفر بظاهر الدن ، ويجمع السعيرين ويحث عليها قوله تعالى .

﴿ وفي الأرض آيات للموقنين ، وفي أنفسكم أفلا تبصرون ؟ ﴾

ويتهى الإمام في كتاب « السماع والوجد » بالحكم الرزين المطلق ، وهو أن سماع الغناء قد يكون حراماً ، وقد يكون مباحاً ، وقد يكون مكرهاً ، وقد يكون مستحباً .

أما الحرام : فهو لأكثر الناس من الشبان ، ومن ظفبت عليهم شهوة الدنيا فلا يترك السماع منهم ، إلا ما هو الغالب على قريهم من الصفات المنومة . وأما المكروه : فهو لمن لا يتزله على صورة المخلوقين ، ولكنه يشغفه عادة له في أكثر الأوقات على سبيل اللهو .

وأما المباح : فهو لمن لاحظ له من التلذذ بالصوت الحسن .

وأما المستحب : فهو لمن غلب عليه حب الله تعالى ، ولا يجرم السماع منه إلا

الصفات المحمودة .

ولا بد - لاستمرار الدين حيا في النفوس - من القيام بالأمر بالمعروف

والنهي عن المنكر ﴿ ولتكن مكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف

وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون ﴾ .

وبعد أن بين الإمام مواقف العلماء الرائعة ، وجهادهم في سبيل الله ، نضم

الفصل بقوله :

فهذه كانت سيرة العلماء وعاداتهم في الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر

وقلة مبالاتهم بسلطة السلاطين ، لكنهم اتكلوا على فضل الله تعالى ، أن

يجرسهم ، ورضوا بحكم الله تعالى . أن يرقظهم الشهادة ، فلما أخلصوا في

النية ، أثار كلامهم في القلوب القاسية عليها ، وأزال قسوتها ، وأما الآن فقد

قيدت الأطلاع ألسن العلماء فكتموا ، وإن تكتموا لم تساعد أقوالهم أحوالهم ،

فلم يسبحوا ، ولو صدقوا وقصدوا حق العلم لأصحوا ، فساد الرعايا بفساد

الملوك ، وفساد الملوك بفساد العلماء ، وفساد العلماء باستيلاء حب المال

والجاه .

ويتم الإمام « الغزالي » ريع العادات بكتاب : آداب المعيشة وأخلاق

النبية ، عيين ما كان عليه لرسول ﷺ ، من خلق - هو كما في القرآن ،

ويشرح في استفاضة ما يوضع قول الله تعالى لرسوله :

﴿ وإنك لعل خلق عظيم ﴾ .

ويبتدئ ريع المهلكات : بكتاب من انفس الكتب ، لا غنى عنه قط لمن

يريد أن يعالج التصوف عملياً ، أو أن يقتنع بحقيقته نظرياً ، ذلك هو كتاب :
« شرح عجائب القلب » وأهميته ترجع إلى أن القلب : هو العالم بالله ، وهو
المقرب إلى الله ، وهو العامل لله ، وهو الساعي إلى الله ، وهو المكاشف بما عند
الله ولديه .

فإذا تساءلت : ما معنى القلب الذي له هذه المنزلة ؟ يأتيك الجواب أنه :
« هو لطيفة ربانية ، روحانية لها بهذا القلب الجسدي تعلق ، وتلك اللطيفة
هي حقيقة الإنسان ، وهو المدرك ، العالم ، العارف ، وهو الخائب ، والمغتاب
والمطالب » .

وفي النصوص التي ذكرناها فيما بعد ما يفنى عن تلخيص هذا الكتاب .
ويتلو ذلك : كتاب « رياضة النفس » وتهذيب الأخلاق » .

ومن هذا العنوان وحده تفهم أن « الفزالي » مزج بين رياضة النفس ،
وتهذيب الأخلاق ، أو بتعبير آخر ، جعل رياضة النفس تهديماً للأخلاق .
والخلق الحسن إنما هو صفة سيد المرسلين ، وأفضل أعمال الصديقين وهو
على التحقيق شطر الدين ، وثمره مجاهدة المتفنين ، ورياضة المتعبدين .

ولقد كان صلوات الله وسلامه عليه يقول : « إن أحبكم إلي ، وأقربكم
منى مجلساً يوم القيامة ، أحاسنكم أخلاقاً » .

وأعظم المهلكات لابن آدم ، شهوة البطن .

فلا بد من كسر هذه الشهوة ، وما يساعد على كسرها ، ألا يأكل الإنسان
إلا حلالاً ، وألا يجعل الأكل هدفاً وغاية ، والأفضل بالإضافة إلى الطبع
المتعدل ، أن يأكل بحيث لا يحس بثقل المعدة ، ولا يحس بألم الجوع ، بل
ينسى طعمه فلا يؤثر فيه الجوع أصلاً ، فإن مقصود الأكل بقاء الحياة والقوة على

العبادة ، وثقل المعدة يمنع من العبادة ، وألم الجوع أيضاً يشل القلب ، ويحرم
منها .

ثم يبحث الإمام عن « آفات اللسان » .

وما من شك في أن اللسان من نعم الله العظيمة ، ولطائف صنعه الغريبة .

ولكن الناس تساهلوا في الاحتراز عن آفاته وهو الله . وهي كثيرة ، وما من

شك في أن من أسباب النجاة ما نصح به الرسول ﷺ في قوله : « أسكت

عليك لسانك » .

والكذب ، والغيبة ، والتمجيد ، والاستهزاء ، والسخرية ، كل ذلك : من

آفات اللسان . والمثل العربي يقول : « مقتل الرجل بين فكيه » .

والطريقة المثل : ألا يتحدث الرجل بما يغضب الله .

ومن الآفات التي تفسد عن الناس أمورهم « الغضب » . وقد روى

أبو هريرة أن رجلاً قال : يا رسول الله مرني بعمل وأقلل ، فقال له صلوات الله

وسلامه عليه : « لا تغضب » ، فحدد الرجل السؤال . فقال له : « لا تغضب » .

فما يزال الغضب ، الجلوس به كان الإنسان قائماً ، والاضطجاع إذا كان

جالساً .

وما يزال الغضب الوصي . والاختسال .

وما يزاله السجود .

« ألا إن الغضب جرة في قلب ابن آدم ، ألا ترون إلى حمرة عينيه ،

وانضاج أوداجه ؟ فمن وجد منك شيئاً فليصق خده بالأرض » وهذه إشارة

إلى السجود .

وحب الدنيا رأس كبر حبيته ، ولا يزال ابن آدم يجري وراءها في جشع

ول تكالِب فستعبده إلى أن يكفُ والمؤمن يستعبد الدنيا . فتدل له ،
لهذهها عطية للآخرة .

وحب الدنيا بحيل ، لأنه متكالب عليها ، وقد روى بسند صحيح عن
رسول الله ﷺ :

« إن الله ، عز وجل ، يقول : إنا أنزلنا المال لإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ولو
كان لابن آدم واد من ذهب ، لأحب أن يكون له ثمان ، ولو كان له الثاني ،
لأحب أن يكون له ثالث ، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ، ويتوب الله
عل من تاب . »

أما للقياس الصحيح فهو قوله تعالى :

﴿ ومن يوق شح نفسه ، فأولئك هم المفلحون ﴾ .

وحب الجاه ، والرياء والكبر ، والعجب ، والغرور : كلها : من الآفات
التي يجب أن يتحل عنها المؤمن ، إذا أراد أن يخلص لله نيته وقصده .

أما إذا وصلنا إلى ريع المنجيات ، فقد وصلنا إلى حرة التاج ، وإلى النور
المهادي ، وإلى صفاء الصفاء ! !

ويبتدئ هذا القسم ، أول ما يبتدئ به التوبة « فإن التوبة عن الذنوب
بالرجوع إلى ستار العيوب ، وعلام الغيوب ، مبدأ طريق السالكين ، ورأس
مال الفائزين ، وأول أقدام المرئدين ، ومفتاح استقامة المائلين ، ومطلع
الاستصفاء والاجتهاد للمقربين .

ووجوب التوبة : ظاهر بالأخبار والآيات ، وهو واضح بنور البصيرة عند
مرر انفتحت بصيرته ، وشرح الله بنور الإيمان صدره :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا ﴾ .

أما وجوب التوبة على الفور ، فلا يستتاب فيه .

ومها يكن من شيء فـ ﴿ إن الله يحب التوابين ، ويحب المتطهرين ﴾ ،

وبقول ، صلوات الله وسلامه عليه :

« لله أفرح بتوبة العبد المؤمن من رجل نزل في أرض دوية ، مهلكة ومعه
راحته ، عليها طعامه وشرابه ، فوضع رأسه فنام نومة ، فاستيقظ وقد ذهبت
راحته فطلبها حتى إذا اشتد عليه الحر والمطش ، أو ما شاء الله قال : أرجع إلى
مكاني الذي كنت فيه فأنام حتى أموت ، فوضع رأسه على ساعده ليجت ،
فاستيقظ فإذا راحته عنده ، عليها زاده وشرابه ، فالحه تعالى ، أشد فرحاً بتوبة
العبد المؤمن من هنا براحلته . »

والإيمان « نصفان » نصف صبر ، ونصف شكر ، لقد وردت بذلك الآثار
وشهدت به الأخبار ، وقد وصف الله الصابرين ، وأضاف أكثر الدرجات
والخيرات إلى الصبر ، وجعلها ثمرة له ، فقال تعالى :

﴿ إِنَّمَا يَوْفَى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ وقال صلوات الله وسلامه
عليه :

« الصبر نصف الإيمان » وقال :

« الصبر كثر من كثرة الجنة . »

ونعم الله على المرء لا تحصى ، وواجب الإنسان نحو المنعم بهذه النعم هو
الشكر ، والشكر نفسه : سبب في زيادة النعم ، يقول تعالى :

﴿ لئن شكرتم لأزيدنكم ﴾ .

والرجاء والخوف : جناحان بها يطير المقربون إلى كل مقام محمود ،
ومطيطان بها يقطع من طريق الآخرة كل حفة كتود .

فالمسلم يهرب به عناءه ، والنية بغير إخلاص ، رياء ، وهو المنطق كعناء ، ومع المعصيان سواء ، والإخلاص من غير صدق وتيقن ؛ هباء . وقد قال الله تعالى في كل عمل كان بإرادة غير الله مشرباً منسوراً :

﴿ وقتلنا إلى ما عملوا من عمل ، فجعلناه هباءً منثوراً ﴾ .

ويقول صلوات الله وسلامه عليه :

« إنما الأفعال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها ، أو امرأة

ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه » .

ومن راقب الله لآز ، ومن حاسب نفسه بما .

وقد وردت السنة : بأن تفكر ساعة خير من عبادة سنة . وكثر المثل في

كتاب الله تعالى ، على التمسر والاعتبار ، والنظر والافتكار ، ولا يخفى أن المعكر

هو مفتاح الأوزار ، ومبدأ الاستيعار ، وهو شبكة الملوم ، ومصيدة الممارف

والفهوم .

وقد أمر الله تعالى بالتفكير والتبصر في كتابه العزيز في مواضع لا تحصى ،

وأتى على المتفكرين ، فقال تعالى :

﴿ إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار آيات لآولي

الالباب ، الذين يدعون الله قياماً وقعوداً وعلى حسرتهم ويتذكرون في خلق

السموات والأرض : ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانه فقلنا صداب النار ﴾

وقد روى أن رسول الله ﷺ : بكى حينما تزلت هذه الآية وقال :

« ويل لمن قرأها ولم يفكر فيها » .

وما يعين - على وجه العموم - التفكير في الموت وما بعده ، والكفيس من

ويقرن الإمام والنزالي ، القفر بالزهد . . . والزهد في الدنيا ، مقام شريف من مقامات السالكين ، وهو تحقيق لقوله تعالى :

﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم ، وأموالهم ، بأن لهم الجنة ، يقاتلون في سبيل الله ، فيقتلون ويقتلون ، وعدا عليه حقا ، في التوراة والإنجيل

والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله ؟ فاستبشروا بيمينكم الذي بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم ﴾ .

والزهد إذن قوة ، لأنه يبع النفس والمال لله ، ويجرد في سبيله .

والتوكل ، متولد من منازل الدين ، ومقام من مقامات المؤمنين ، بل هو من

معال درجات للمؤمنين ، وهو ثمرة من ثمار التوحيد ، فمن وحده الله حق توجيهه

توكل عليه :

﴿ أليس الله بكاف عبده ؟ ﴾ .

أما هبة الله ، فإنها النعمة القصوى من المقامات ، والنزوة العليا من

الدرجات ، ومن ثمارها : الشوق ، والأنس ، والرضا ، وليس حول الهبة

مقام ، إلا وهو مقدمة من مقدماتها : الكاثوية ، والصبر ، والزهد ،

وغيرها . فهي واسطة المقد ، ودرية القلادة :

« والذين آمنوا أهدى الله » .

لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله ، أحب إليه مما سواها .

وقد انكشف لأرباب القلوب ، بعميرة الإيمان ، وأنوار القرآن : أن

لا وصول إلى السعادة إلا بالملم والمادة .

« فالتاس كلهم : حلكي إلا المالون ، والمالون كلهم : حلكي إلا

المالون ، والمالون كلهم حلكي إلا المخلصون ، والمخلصون : على خطر عظيم » .

دان نفسه وعمل لما بعد الموت . يقول في صلوات الله وسلامه عليه :
«كنى بالموت واعظاً» .

ويختم الإمام الغزالي كتابه بقوله :

«وروي أنه وقف صبي في بعض المعازي يتأدى عليه - ليعه - اليمن يريد
في يوم صائف شديد الحر ، فبصرت به امرأة في خفاء القوم ، فأقبلت تشد ،
وأقبل أصحابها خلفها حتى أدخلت الصبي ، وألصقته إلى صدرها ، ثم ألفت
ظهرها على الطحاء ، وجعلته على بطنها تقيه الحر ، وقالت : ابني ، ابني ،
فكفى الناس وتركوها على ما هم فيه ، فأقبل رسول الله ﷺ ، حتى وقف
عليهم ، فأخبروه الخبر فسر برحمتهم ، ثم بشرها فقال :

«أعجبتم من رحمة هذه لابنها؟ قالوا : نعم ، قال ﷺ :

«إن الله تبارك وتعالى : أرحم بكم جميعاً من هذه بابنها» .

فتفرق المسلمون على أفضل السرور ، وأعظم البشارة .

فهذه الأحاديث وما أوردناه في «كتاب الرحاء» بشرنا بسعة رحمة الله
تعالى ، فترجو من الله تعالى ، ألا يعاملنا بما نستحقه ، وأن يتفضل علينا بما هو
أهله ، بمنه وسعة جوده ورحمته .

أثر الإحياء :

أما أثر هذا الكتاب في العالم الإسلامي : فقد كان ضخماً ، لقد شرح
واختصر عدة مرات ، وانتقده الكثيرون ، ودافع عنه الكثيرون ، وترجم الكثير
منه إلى الإنجليزية ، والفرنسية ، والإسبانية ، وغير ذلك من اللغات الحية ،
شرقية وغربية .

وعطوطاته ، التي بمكبات العالم ، لانكاد تحصر ، وقد طبع في القاهرة
وحدها ما يقرب من عشرين طبعة ، وطبع في الهند ، وفي تركيا ، وفي فارس .
ولا يزال الكتاب للآن في العالم الإسلامي مصدر إلهام ونور ، ودراسة
تختلف نتائجها ، لاختلاف نزعات الدارسين .

ولا يزال في القطر المصري جماعات تعقد حلقات أسبوعية ، تخصصها
لقراءة «الإحياء» والتعمد بشرح ما فيه من حكم ومواعظ .

تقدير العلماء لكتاب «الإحياء» :

أما تقدير العلماء ، لهذا الكتاب : فتصوره الآراء التالية :

يكاد الناقلون يجمعون على كلمة : «أني المظفر» سبط «أبي الفرج

ابن الجوزي» في قوله :

«ووضعه على مذاهب الصوفية ، وترك فيه قانون الفقه ، فأنكروا عليه

ما فيه ، من الأحاديث التي لم تصح» .

وفكرة الأحاديث التي لم تصح ، أذاع بها كثيرون من أعداء الإمام

«الغزالي» ، وتحدثوا عنها مقبلين ومدبرين ، قائمين وقاعدتين ، ولكن ها هو

ذا المولى «أبو الخير» يقول :

«أما الأحاديث التي لم تصح ، فلا ينكر عليه إيرادها ، لجوازه في الترغيب

والترهيب» .

ولواقع . أن الإمام «الغزالي» لم يأت بهذه الأحاديث التي لم تصح ،

لإثبات حكم . أو للاستدلال على مدعى ، ذلك أنه يذكر الآيات القرآنية التي

يثبت بها ما تؤدي إليه من أحكام ، وقواعد ، وهي على هذا الوضع كافية

للإثبات والاستدلال ، ثم يأتي بعد ذلك بالأحاديث ، وأقوال الصحابة والتابعين .

وإذا كان الأمر كذلك فإننا حينما نستبعد الأحاديث الضعيفة من الإحياء ، فإن كل المبادئ والقواعد والمغزات والمعبر التي أتى بها الإمام « العراق » في هذا الكتاب ، تحتفظ بقيمتها ، من ناحية الإثبات ، والاستدلال .

ويتبين من هذا ، أنه لا قيمة لهذا الاعتراض . لا شكلاً ولا موضوعاً . على أنه قد قام العالم الثبت الحجة « الحافظ »^(١٠) « العراق » الذي قال فيه شيخه : « إن ذهنه لا يقبل الخطأ » بتخريج أحاديث هذا الكتاب ، فأصبحت السنة واضحة ، وأصبح الطريق أبلج .

وشيء آخر عن هذا الاعتراض له أهمية ، وهو أن كثيراً من الأحاديث التي قال عنها الإمام « العراق » « لا أصل لها » بين الإمام « الزبيدي » شارح الإحياء أصداً ، وكثيراً من الأحاديث التي قال عنها الإمام « العراق » إنها ضعيفة ، بين

(١٠) الحافظ العراقي : هارون بن الحسين أبو الفضل عبد الرحيم بن الحسين العراقي ولد بمصر في جمادى الأولى سنة ٧٢٥ هـ .

أما نسبه إلى العراق : فترجع إلى أن أصل أبيه من العراق . وتوفى والده وهو في الثالثة من عمره ، ولكن عناية الله بأهله ، إذ وجهه الله لطلبه لثلاثة : ذكاء خلوقاً ، وفتحاً صائباً ، وحمية عالية في طلب العلم : وسرت له عناية الله الجورقتاني ، فأخذ من كل العلوم الإسلامية عظم وانزاع ، ولكنه تخصص في « علم الحديث » وظهرت فيه حواشيه ، وكان من توفيق الله ، أن منحه ذاكرة قوية حافظه . فلقبه شيوخه « بحافظ الوقت »

ومن أجل الحديث قام « الحافظ العراقي » بعدة رحلات ، ساراً في ذلك على طريق الأئمة السابقين الذين كانوا يقطعون مئات الأميال في طلب الحديث الشريف .

لقد سافر العراقي إلى الشام ، متفلاً بين حواشرها ، وسافر إلى مكة والمدينة . وانتهت حياته في شعبان سنة ٨٠٦ هـ . وقد بلغ من العمر إحدى وأربعين سنة ، عدم فيها الحديث عمدة جيلة

الإمام « الزبيدي » أنها ضعيفة ، من الوجه الذي رواها به الإمام « العراق » ولكنها هي نفسها حسنة ، أو قوية من وجه آخر ، وبين الإمام « الزبيدي » هذا الوجه الآخر .

قال الحافظ « العراق » عن كتاب « الإحياء » :
« إنه من أجل كتب الإسلام ، في معرفة الحلال والحرام ، جمع فيه بين ضواهر الأحكام ، ونزع إلى سرائر دقت عن الأفهام ، لم يقتصر فيه على مجرد الصروع والمسائل ، ولم يتجرد في النجاة ، بحيث يتسر الرجوع إلى الساحل ، بل مرع به علمي الظاهر والباطن ، ومزج معانيها في أحسن الموازن ، وسبك فيه نفائس اللفظ وضبطه ، وسلك فيه من المنطق الأوسط ، مقتدياً بقول « علي » كرم الله وجهه . خير هذه الأمة المنطق الأوسط ، يلحق بهم التالي ، ويرجع إليهم العالی » .

وقال « الزبيدي » شارح « الإحياء » :
« وأنا لا أعرف له نظيراً ، في الكتب التي صنفها العقهاء ، الجامعون في نصابهم بين النقل ، والنظر ، والفكر ، والأثر » .

وقال « ابن السبكي » :
« وهو من الكتب التي ينبغي للمسلمين الاعتناء بها ، وإشاعتها ، ليهتدى بها كثير من الخلق ، وقل من يظفر فيه إلا ويعطف به في الحال » .
وقال الشيخ « عبد القادر العبدروس » في كتاب « تعريف الأحياء بفضائل الإحياء » .

اعلم أن فضائل « الإحياء » لا تحصى ، بل كل فضيلة له باعتبار حيثياتها لا تستقصى .

النصوص (١١) التي تبين منح الغزالي

النص الأول : الطريق (١٢) :

ن طريق . تقديم المجاهدة ، وهو الصفات المدسومة ، وقطع العلاقات كلها ، والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى ، ومها حصل ذلك ، كان الله هو المتولى لقب عبده ، والمتكفل له بتويره بأنوار العلم . وإذا تولى الله أمر القلب فاصت عليه الرحمة ، وأشرق النور في القلب ، واتشرح الصدر ، وانكشف له سر الملكوت ، وانقشع عن وجه القلب حجاب المرة بلطف الرحمة ، وتلاأت فيه حقائق الأمور الإلهية ، فليس على العبد إلا الاستعداد بالتصفية المجردة ، وإحضار الهمة ، مع الإرادة الصادقة ، والتعطش التام ، والحرص بطوام الانتظار ، لما يفتحه الله تعالى من الرحمة ، فالأسياء والأولياء انكشف لهم الأمر ، وفاص على صدورهم النور ، لا بالتعلم والدراسة ، والكتابة للكتب ، بل بالزهد في الدنيا ، والتبري من علائقها ، وتفريغ قلب من شواغلها ، والإقبال بكنه الهمة على الله ، تعالى ، فمن كان لله ، كان الله له .

ورعوا أن الطريق في ذلك أولاً : فانقطاع علائق الدنيا بالكلية ، وتفريغ القلب منها ، وقطع الهمة عن الأهل ، والمال ، والولد ، والوطن ، وعن العلم ولولاية والجاه ، بل يصير قلبه إلى حالة يستوى فيها وجود كل شيء وعدمه ، ثم ينحو نفسه في زاوية ، مع الاقتصاد على الفرائض والرواتب ، ويجلس فارغ

(١١) أنزلنا هذه النصوص من طبعه ، السريوي ، وهي مرقمة بحسب صفحاتها في هذه الطبعة .

(١٢) الإحياء من ١٣٧٧ .

وكان عبد الله العيدروس ، رضى الله عنه ، يكاد يحفظه ، وروى عنه أنه قال : « من كنت أطلع كتاب الإحياء ، كل فصل وحرف منه ، وأحاوده ، وأتدبره ، فيظهر لي منه في كل يوم علوم ، وأسرار عظيمة ، ومفاهيم غزيرة ، غير التي قبلها ، ولم يسبقه أحد ، ولم يلحقه أحد » ومن كلامه : عليكم يا إخواني بمتابعة الكتاب والسنة : أعني الشريعة المشروحة في الكتب الغزالية ، خصوصاً كتاب ذكر الموت ، وكتاب الفقر والزهد ، وكتاب التوبة ، وكتاب رياضة النفس .

وقد أئزم الشيخ عبد الله العيدروس « أنحاء قراءة الإحياء ، فقرأه عليه مدة حياته خمساً وعشرين مرة .

وتحتم هذه التقديرات ، برأى أعتقد أنه فيصل الحق ، في موضوع « كتاب الإحياء » وهو رأى فضيلة العالم الجليل الاستاذ الأكبر الشيخ محمد الخضر حسين ، شيخ الأزهر الأسبق ، وهو عالم لا يتهم بصحيفة ، والآراء مجمعة على أنه من العلماء الذين حاولوا جاهدين أن يكون كل ما يصدر عنهم إنما يراد به وجه الله ، يقول :

« وإذا وجد العلماء في كتاب الإحياء مأخذ معلومة ، فإنه من صنع بشر غير معصوم من الزلل ، وكفى بكتاب الإحياء ، فضلاً وهو منزلة أن تكون درر فوائده فوق ما يتناوله العبد ، وأن يظفر منه طلاب العلم ، وعشاق الفضيلة بما لا يظفرون به من كتاب غيره . »

« ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً » .

القلب ، مجموع الحمم ، ولا يفرق فكره بقراءة قرآن ، ولا بالتأمل في تفسير ، ولا يكتب حديثاً ولا غيره بل يجتهد ألا يخطر بباله شيء سوى الله تعالى فلا يزال بعد جلوسه في الخلوة قائلاً بلسانه . الله ، الله ، على اللوام مع حضور القلب ، حتى ينتهي إلى حالة يترك تحريك اللسان ويرى كأن الكلمة جارية على لسانه .

ثم يصبر عليه إلى أن يمحي أثره عن اللسان ، ويصادف قلبه مواظباً على الذكر .

ثم يواظب عليه إلى أن يمحي عن القلب صورة اللفظ وحروفه وهيئة الكلمة ، ويبقى معنى الكلمة مجرداً في قلبه ، حاضراً فيه ، كأنه لازم له ، لا يفارقه . وله اختيار إلى أن ينتهي إلى هذا الحد ، واختيار في استدامة هذه الحالة بدفع الوسواس . وليس له اختيار في استجلاب رحمة الله تعالى ، بل هو بما فعله صار متعرضاً ، لنفحات رحمة الله .

فلا يبقى إلا الانتظار ، لما لله من الرحمة ، كما فتحها على الأنبياء والأولياء بهذه الطريق .

وعند ذلك ، إذا صدقت إرادته ، وصفت همة ، وحسنت مواظبته ، قلم تجاذبه شهواته ، ولم يشغله حديث النفس بعلاق الدنيا ، تلمع لوامع الحق في قلبه .

ويكون في ابتدائه : كالبرق الخاطف ، لا يثبت ، ثم يعود ، وقد يتأخر ، وإن عاد فقد يثبت ، وقد يكون مختطفاً . وإن نلت فقد يطول ثباته ، وقد لا يطول ، وقد يتظاهر أمثاله على التلاصق ، وقد يقتصر على فن واحد . ومنازل أولياء الله تعالى ، فيه لا تحصر ، كما لا يحصى غاوت خلقهم

وأخلاقهم ، وقد رجع هذا الطريق إلى تطهير محض من جابك ، ونصفي ، وجلاء . ثم استعداد ، وانتظار فقط .

وأما النظار وذوو الاعتبار : فلم ينكروا وجود هذا الطريق وإمكانه ، وإفضاءه إلى هذا المقصد ، على التنوير ، فإنه أكثر أسرار الأنبياء ، والأولياء ولكن استوعروا هذا الطريق ، واستطنوا ثمرته ، واستعدوا استجماع شروطه ، وزعموا أن نحو العلائق إلى ذلك الحد كالتعلم .

• • •

النص الثاني : بيان شواهد الشرع على صحة طريق أهل التصوف في اكتساب المعرفة لا من التعلم ولا من الطريق المتباد (١٣) .

اعلم : أن من انكشف له شيء ، ولو الشيء اليسير ، بطريق الإلهام والوقوع في القلب ، من حيث لا يدري ، فقد صار حارفاً بصحة الطريق ، ومن لم يدرك بنفسه قط ، فنبهني أن يؤمن به ، فإن درجة المعرفة فيه عزيزة جداً ، ويشهد لذلك شواهد الشرع والتجارب والحكايات .

أما الشواهد فقوله ، تعالى . ﴿ والدليل جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ﴾ فكل حكمة تظهر من القلب ، بالمواظبة على العبادة من غير تعلم ، فهي بطريق الكشف والإلهام .

وقال ﷺ : « من عمل بما علم ، ورثه الله علم ما لم يعلم ، ووقفه فيما يعمل ، حتى يستوجب الجنة ، ومن لم يعمل بما يعلم ، تاه فيما يعلم ولم يوفق فيما يعمل ، حتى يستوجب النار » .

وقال الله تعالى : ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ﴾ من الإشكالات

(١٣) الإحياء : ص ١٣٨٥ .

تعليم الخلق ، فلا يسمى ذلك علماً لدنيا ، بل اللدني : الذي يتمتع في سر القلب من غير سبب مألوف من خارج . فهذه شواهد النقل .

ولو جمع كل ما ورد فيه من الآيات والأخبار والآثار لخرج عن الحصر . وأما مشاهدة ذلك بالتجارب ، فذلك أيضا خارج عن الحصر وظهر ذلك على الصحابة والتابعين ومن بعدهم .

وقال أبو بكر الصديق ، رضي الله عنه ، لعائشة ، رضي الله عنها ، عند موته إنما هما أخواك وأختاك . وكانت زوجته حاملا ، فولدت بنتاً . فكان قد عرف قبل الولادة أنها بنت . وقال عمر ، رضي الله عنه في أثناء خطبته : يا سارية الجبل ، إذ انكشف له أن العدو قد أشرف عليه ، فحدره لمعرفته ذلك ، ثم بلوغ صوته إليه من جملة الكرامات العظيمة .

وعن أنس بن مالك ، رضي الله عنه قال ، دخلت على عثمان رضي الله عنه - وكنت قد نقيت امرأة في طريق ، فنظرت إليها حزرا ، وتأملت محاسنها - فقال عثمان رضي الله عنه ، لما دخلت : يدخل على أحدكم ، وأثر الزنى ظاهر على عينيه ! ! أما علمت أن زنى العينين لمنظر ؟ لتبين أول أعزيتك ، فقلت : أوحى بعد النبي ؟ فقال لا ، ولكن بصيرة وبرهان ، وفراسة صادقة .

وعن أبي سعيد الخراساني قال : دخلت المسجد الحرام ، فرأيت فقيراً عليه خرقتان ، فقلت في نفسي :

هذا وأنشأه كل على الناس ، فناداني وقال :

﴿ والله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه ﴾ فاستغفرت الله في سرى ، فناداني

وقال :

﴿ وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ﴾ . ثم عاب على وم قوله .

وقال زكريا بن داود دخل أبو العباس بن مسروق على أبي العفضل الهاشمي ، وهو عليل ، وكان ذا عيال ، ولم يعرف له سبب يعيش به ، قال : فلما قلت في نفسي : أين يأكل هذا الرجل ؟ قال فصاح بي ، يا أبا العباس ، رد هذه المهمة الدينية ، فإن لله تعالى أظافاً خفية .

النص الثالث : دليل الكشف (١١)

والدليل القاطع على الكشف الذي لا يقدر على جعله أمران :

أحدهما : عجاب الرؤيا الصادقة ، فإنه ينكشف بها الغيب . وإذا جار ذلك في النوم ، فلا يستحيل أيضا في اليقظة . فلم يفارق النوم اليقظة إلا في ركود الحواس ، وعدم اشتغالها بالمحسوسات ، فكم من مستبطن غائص ، لا يسمع ولا يبصر ، لاشتغاله بنفسه .

الثاني : إخبار رسول الله ﷺ عن العيب ، وأمور المستقل ، كما اشتمل عليه القرآن . وإذا جار ذلك للنبي ، ﷺ ، جاز لغيره . إذ النبي عبادة عن شخص كوشف بمحقات الأمور وشغل بإصلاح الخلق فلا يستحيل أن يكون في الوجود شخص مكاشف بالمحقات ، ولا يشتغل بإصلاح الخلق ، وهذا لا يسمى نبياً ، بل يسمى ولياً .

من آمن بالأنبياء ! وصدق بالرؤيا الصحيحة ، لزمه لا محالة ، أن يقر بأن قلب له بابان : باب إلى الخارج ، وهو الحواس . وباب إلى المنكوت من داخل القلب : وهو باب الإلهام والنفث في الروح ، والوحى .

(١١) الإحياء ص ١٢٨٩ .

فإذا أقر ، بها جميعاً لم يمكنه أن يحصر العلوم في التعلم ، ومباشرة الأسباب المألوفة ، بل يجوز أن تكون المجاهدة ميلاً إليه .

فهذا ما ينبه على حقيقة ما ذكرناه : من عجيب تردد القلب بين عالم الشهادة وعالم الملكوت .

وأما إلتئيب في انكشاف الأمر في المنام بالمثال المخرج إلى التعبير ، وكذلك تمثل الملائكة للأنبياء والأولياء بصور مختلفة ، فذلك أيضاً من أسرار عجائب القلب ، ولا يلبق ذلك إلا بعلم المكاشفة ، فلنقتصر على ما ذكرناه ، فإنه كاف للاستحاث على المجاهدة ، وطلب الكشف منها ، فقد قال بعض المكاشفين : ظهر لي الملك ، فسألني أن أملي عليه شيئاً من ذكرى الجن ، عن مشاهدتي من التوحيد ، وقال : ما نكتب لك هملاً ، ونحن نحب أن نصعد لك بعمل تقرب به إلى الله عز وجل ، فقلت : ألسنا نكتبان الفرائض ؟ قال : بلى ، قلت : فيكيفكما ذلك .

وهذه إشارة إلى أن الكرام الكاتبين ، لا يطلعون ، عن أسرار القلب ، وإنما يطلعون على الأعمال الظاهرة .

• • •

النص الرابع : الفرق بين العلم النظري والعلم الكشفي^(١٥) .

فما ارتفع الحجاب بينه وبين اللوح المحفوظ ، ورأى الأشياء فيه ، وتفجر إليه العلم منه ، فاستغنى عن الاقتباس من داخل الحواس ، فيكون ذلك ككشف الماء من عمق الأرض . ومما أقبل على الخيالات الحاصلة من الحواس ، كان ذلك حجاباً له عن مطالعة اللوح المحفوظ . كما أن الماء إذا امتنع في الأنهار ،

(١٥) الإحياء ص ١٣٨١ .

منع ذلك من التصجر في الأرض ، وكما أن من نظر إلى ماء الذي يحكي صورة الشمس لا يكون ناظراً إلى نفس الشمس .

فإذن للقلب بابان . باب مفتوح إلى عالم الملكوت ، وهو اللوح المحفوظ ، وعالم الملائكة . وباب مفتوح إلى الحواس الخمس ، المتمسكة بعالم الملك والشهادة وعالم الشهادة والملك أيضاً ، يحاكي عالم الملكوت نوعاً من المحاكاة فأما افتتاح باب القلب إلى الاقتباس من الحواس ، فلا ينبغي عليك . وأما افتتاح بابه للدخول إلى عالم الملكوت ، ومطالعة اللوح المحفوظ : فتعلمه علماً يقينياً : بالتأمل في عجائب الرؤيا ، وإطلاع القلب في النوم على ما سيكون في المستقبل ، أو كان في الماضي ، من غير اقتباس من جهة الحواس . وإنما يفتح ذلك الباب لمن انفرد بذكر الله تعالى .

قال ﷺ : « سبق المفردون » .

قيل : ومن هم المفردون يا رسول الله ؟

قال : المتزهدون بذكر الله تعالى ، وصح لهم عنهم أوزارهم ، فوردوا القيامة خفافاً .

ثم قال في وصفهم بعبارة عن الله تعالى : « ثم أقبل بوجهي عليهم ، أتري من واجهته بوجهي يعلم أحد أي شيء أريد أن أعطيه ؟ » ثم قال تعالى : « أول ما أعطيهم أن أقدف النور في قلوبهم فيخبرون حتى كما أخبر عنهم » .

ومدخل هذه الأخبار هو الباب الباطن .

فإذن الفرق بين علوم الأولياء والأنبياء ، وبين علوم العلماء والحكماء هذا وهو أن علومهم تأتي من داخل القلب ، من الباب المنفتح إلى عالم الملكوت

وعلم الحلة يأتي من أبواب العلوم . مستوحاة إلى عالم الله .

النص الخامس : الجود الإلهي (١٧) .

علوم الله - سبحانه - لا نهاية لها ، وأقصى الرتب رتبة النبي ، الذي تنكشف له الحقائق ، من غير اكتساب ولا تكلف ، بل يكشف إلهي في أسرع وقت .

وبهذه السعادة يقرب العبد من الله تعالى ، قرباً بالمعنى والحقيقة والصفة ، لا بالمكان والمسافة .

ومراتق هذه الدرجات هي : منازل السائرين إلى الله تعالى ، ولا حصر لتلك المنازل ، وإنما يعرف كل سالك منزله الذي بلغه وسلوكه ، فيعرفه ويعرف ما خلفه من المنازل . فأما ما بين يديه ، فلا يحيط بحقيقته علماً ، لكن قد يصدق به إيماناً بالغيب ، كما أنا تؤمن بالنبوة ، والنبي ، ونصدق بوجوده ، ولكن لا يعرف حقيقة النبوة إلا النبي .

وكما لا يعرف الجبين حال الطفل ، ولا الطفل حال المميز ، وما يفتح له من العلوم الضرورية ، ولا المميز ، حال العاقل ، وما اكتسبه من العلوم النظرية ، فكذلك لا يعرف العاقل ما افتتح الله على أوليائه من مزايا لطفه ورحمته : ﴿ ما يفتح الله للناس من رحمة ، فلا يحسب لها ﴾ .

وهذه الرحمة مبنولة بحكم الجود والكرم ، من الله سبحانه وتعالى غير مضمون بها على أحد ، ولكن إنما تظهر في القلوب المتعرضة ، لتفحات رحمة الله تعالى ، كما قال ﷺ :

(١٧) الإحياء : ١٣٥٩

« إن لربكم في أيام دهركم لتفحات ، ألا تعرضوا لها . »
والعرض لها بتطهير القلب ، وتركته من الخبث والكدورة ، الحاصلة من الأخلاق المذمومة ، كما سيأتي بيانه :

وإلى هنا الجود الإشارة بقوله ﷺ :
« يتزل الله كل ليلة إلى سماء الدنيا فيقول هل من داع ، فأستجيب له ؟ »
ويقوله عليه الصلاة والسلام ، حكاية عن ربه عز وجل :
« لقد طال شوق الأبرار إلى لقائي ، وأنا إلى لقائهم أشد شوقاً . »
ويقوله تعالى في الحديث القدسي : « من تقرب إلي شبراً ، تقربت إليه ذراعاً . »

كل ذلك إشارة إلى أن أوار العلوم لم تحتجب عن القلوب ، لبخل ، ومنع من جهة المنم ، تعالى عن البخل والمنع علواً كبيراً .

ولكن حجب الخبث وكدورة ، وشغل من جهة القلوب ، فإن القلوب كأواني ، ما دامت ممتلئة باده لا يدخلها الهواء ، فالقلوب المشغولة بعمر الله ، لا تدخلها المعرفة بجلال الله تعالى وإليه الإشارة بقوله ﷺ : « لولا أن الشياطين يجرمون على قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السماء . »
ومن هذه الجملة يتبين أن خاصية الإنسان : العلم والحكمة .
وأشرف أنواع العلم : هو العلم بالله وصفاته وأفعاله ، ليه كمال الإنسان ، وفي كماله مساعده وصلاحه لجوار حضرة الجلال والكمال .

النص السادس (١٧) : شواهد الشرع في حب العبد لله تعالى :

(١٧) الإحياء ص ٢٥٨١ .

اعلم أن الأمة مجمعة على أن الحب لله تعالى ، ولرسوله ﷺ فرض ، وكيف يفرض ما لا وجود له ؟ وكيف يفسر الحب بالطاعة ، والطاعة تبع الحب وثمرته ، فلا بد وأن يتقدم الحب ، ثم بعد ذلك بطبع من أحب .
ويدل على إنشائه لله تعالى قوله عز وجل : ﴿ يَحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ وقوله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ﴾ .

وهو دليل على إثبات الحب ، وإثبات التفاوت فيه .
وقد جعل رسول الله ﷺ ، الحب لله من شرط الإيمان في أخبار كثيرة ، إذ قال أبو رزین العقيلي : يا رسول الله ، ما الإيمان ؟ قال : « أن يكون الله ورسوله ، أحب إليك مما سواهما » .

وفي حديث آخر :
« لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما » .
وفي حديث آخر :
« لا يؤمن العبد حتى أكون أحب إليه من أهله وماله والناس أجمعين » .
وفي رواية « ومن نفسه » .

كيف وقد قال الله تعالى ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَرْوَاحُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا ، وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبُّ إِلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ ، فَتَرْتَفَعُوا خِيفًا عَلَىٰ بَاطِنِ اللَّهِ بِأَمْرِهِ ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ (١٨) .
وإنما جرى ذلك في معرض التهديد والإنكار . وقد أمر رسول الله ﷺ ،
باجبة فقال .

(١٨) التوبة ٢٤ .

« أحبوا الله لا يفتنوكم به من نعمه ، وأحِبُّوا لِحَبِّ اللَّهِ إِيَّاي » .
ويروى ، أن رجلا قال يا رسول الله : إني أحبك فقال ﷺ « استعد للفقر » فقال إني أحب الله تعالى . فقال : « استعد للبلاء » .
وعن عمر رضی الله عنه ، قال . نظر النبي ﷺ ، إلى مصعب بن عمير مقبلا وعيه إهاب كبش قد تمتطق به ، فقال النبي ﷺ : « انظروا إلى هذا الرجل الذي نور الله قلبه لقد رأيت بين أبويه يغذوه بأطيب الطعام والشراب ، فدعاه حب الله ورسوله إلى ما ترون » .

وفي الخبر المشهور ، أن إبراهيم عليه السلام ، قال لملك الموت إذ جاءه لقبض روحه :
« هل رأيت خبيلا يميت خليله ؟ فأوحى الله تعالى ، إليه : هل رأيت محبا يكره لقاء حبيبه ؟ فقال : يا ملك الموت الآن فاقبض » .
وهذا لا يحده إلا عهد يحب الله بكل قلبه . فإذا علم أن الموت سبب اللقاء اتزعج قلبه إليه . ولم يكن له محبوب غيره حتى يلتفت إليه .
وقد قال نبينا ﷺ في دعائه :

« اللهم ارزقني حبك ، وحب من أحبك ، وحب ما يقربني إلى حبك ، واجعل حبك أحب إلي من الماء البارد » .
وجاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال يا رسول الله ، متى الساعة ؟ قال : « ما أعددت لها » فقال : ما أعددت لها كثير صلاة ولا صيام إلا أني أحب الله ورسوله . فقال له رسول الله ﷺ : « المرء مع من أحب » قال أنس . فما رأيت المسلمين فرحوا بشيء بعد الإسلام فرحهم بذلك .

وقال أبو بكر لصديق رضى الله عنه : « من داق من خالص محبة الله تعالى فغية الصور للفتن من الضلال »

شغل ذلك عن طلب الدنيا وأوحشه عن جميع البشر .

وقال الحسن : « من عرف ربه أحبه ، ومن عرف الدنيا زهد فيها ، والمؤمن لا يلهو ، حتى يفغل ، فإذا تفكر حزن » .

وقال أبو سليمان الداراني : « إن من خلق الله خلقاً ما يشغلهم الجنان وما فيها من التعميم عنه ، فكيف يشغلون عنه بالدنيا ؟ » .

ويروى : « أن عيسى عليه السلام مر بثلاثة نفر ، وقد نخلت أبدانهم ، فقال : ما الذي بلغ بكم ما أرى ؟ فقالوا : الخوف من النار ، فقال : حتى علم الله أن يؤمن الخائف ، ثم جاوزهم إلى ثلاثة آخرين ، فإذا هم أشد نحولاً وتفكيراً ، فقال : ما الذي بلغ بكم ما أرى ؟ قال : الشوق إلى الجنة ، فقال : حتى علم الله أن يعطيكم ما ترجون ، ثم جاوزهم إلى ثلاثة آخرين . فإذا هم أشد نحولاً وتفكيراً كأن على وجوههم المراني من النور ، فقال ما الذي بلغ بكم ما أرى ؟ قالوا : نحب الله عز وجل ، فقال : أنتم المقربون ، أنتم المقربون ، أنتم المقربون » .

وقال : عبد الواحد بن زيد : « مررت برجل قائم في الثلج ، فقلت : أما تحمد البرد فقال : من شغلته حب الله ، لم يحمد البرد » .

وعن سري السقطي قال : تدمي الأمم يوم القيامة بأبنيائها عليهم السلام ، فيقال يا أمة موسى ، ويا أمة عيسى ويا أمة محمد ، غير المهين لله تعالى ، عليهم ينادون يا أولياء الله ، هلموا إلى الله سبحانه ، فتكاد قلوبهم تتحلج فرحاً .
وقال هرم بن حبان : المؤمن إذا عرف ربه عز وجل ، سبه وإذا أحبه أقبل إليه ، وإذا وجد حلاوة الإقبال إليه لم ينظر إلى الدنيا بعين الشهوة ، ولم ينظر إلى الآخرة بعين الفتنة ، وهي تحسره في الدنيا ، وتروجه في الآخرة .

وقال يحيى بن معاذ : عفوهُ يستغرق الذنوب فكيف رضوانه ؟ ! ورضوانه يستغرق الآمال ، فكيف حبه ؟ وحبهُ يدهش العقول ، فكيف وده ؟ ووده ينسى ما دونه فكيف لطفه ؟
وفي بعض الكتب : عهدي : أنا - وحقك - لك محب ، فيحقي عليك كني لي محباً .

وقال يحيى بن معاذ : « مثقال خردلة من الحب أحب إلى من عبادة سبعين سنة بلا حب » .

وقال يحيى بن معاذ أيضاً : « إلهي إني مقيم بفنائك ، مشغول بشانك ، صغيراً أحدثني إليك ، وسررتني معرفتك ، وأمكتني من لطفك ، ونقلتني في الأحوال ، وقلبتني في الأعمال : سترتني وتوبتني ، وزهدتني وشوقاً ، ورضاً ، وحنناً . تسفيني من حياصك ، ونهملتني في رياضك . . ملارماً لأمرك ، ومشغولاً بقولك ، ولما طر شاربي ، ولاح طائرتي ، فكيف أنصرف اليوم عنك كبيراً ، وقد اعتدت هذا منك صغيراً ، على ما بقيت حركك دندنة ، وبالضراعة إليك مهمة ، لأني محب وكل محب بحبيبه مشغوف ، وعن غير حبيبه مصروف ، وقد ورد في حب الله تعالى ، من الأخبار والآثار ، ما لا يدخل في حصر حاصر ، وذلك أمر ظاهر ، وإنما التعموض و تحقيق معناه . فلستغفل به » .

الفصل السادس المنقذ من الضلال

- توطئة
- مدخل المسئلة
- أصناف الطالبين (علم الكلام ، الفللفة ، أصناف الفلاسفة ، أقسام علومهم ، مذهب التعلیم ، طرق الصوفية)
- حقيقة النبوة
- سبب نشر العلم

توطئة

الحمد لله ، الذي يفتح بحمده كل رسالة ومقالة ، والصلاة على محمد
المصطفى ، صاحب النبوة والرسالة ، وعلى آله ، وأصحابه ، المهادين من
الضلالة .

أما بعد : فقد سألتني أيها الأخ في الدين ، أن أبت إليك غاية العلوم ،
وغائلة للمذاهب أغوارها .

وأحكى لك ما قاسيته في استخلاص الحق من بين اضطراب الفرق مع
تباين المسالك والطرق . وما استجرات عليه من الارتفاع عن حضيض التقليد ،
إلى بفاع^(١) الاستبصار .

وما استندته أولاً من علم الكلام .

وما اجتويته^(٢) ثانياً : من طرق أهل التعليم ، القاصرين لدرك الحق على
تقليد الإمام .

وما ازدريته ، ثالثاً : من طرق المتفلسف .

وما ارتضيته ، آخراً : من طريقة التصوف :

وما انجلى لي في تضاهيف تفتيشي عن أقاويل الخلق ، من لباب الحق .

وما صرفني عن نشر العلم ببغداد ، مع كثرة الطلبة .

وما ردتني إلى معاودتي ، « بنيسابور » بعد طول الددة .

(١) البفاع : ما ارتفع من الأرض .

(٢) تجويت : اجتويت البلد إذا كرهت المقام به وإن كنت في نية .

فاثدرت لإجابتك إلى مطلقك ، بعد الوقوف على صدق رغبتك ، وقلت
مستعياً بالله ، ومتوكلاً عليه ، ومستوقفاً منه ، وملتجئاً إليه :

اعلموا - أحسن الله ، تعالى ، إرشادكم ، وألان للحن قيادكم - : أن
اختلاف الخلق في الأديان والمثلل ، ثم اختلاف الأمة في المذاهب مع كثرة الفرق
وتباين الطرق ببحر عميق ، غرق فيه الأكتيون ، وما بما منه إلا الأقلون ، وكل
مريق يزعم أنه الناجي ، و﴿ كل حزب بما لديهم فرحون ﴾ . وهو الذي وعدنا
به سيد المرسلين ، صلوات الله وسلامه عليه ، وهو الصادق المصدوق ، حيث
قال : « مستغرق أمتي ثلاثاً وسبعين فرقة الناجية منها واحدة^(٣) » ، فقد كان
ما وعد أن يكون .

ولم أزل في حتموان شباني - منذ راهقت البلوغ ، قبل بلوغ العشرين ، إلى
الآن ، وقد أناف السن على الخمسين - : أقتحم لجة هذا البحر العميق ،
وأخوض غمرته خوض الجسور ، لا خوض الجبان الجنور : أتوغل في كل

(٣) روى هذا الحديث على اختلاف في متنه ، في عدة كتب ، بعدة أسانيد ولكنه لم يرو في
صحيح البخاري ، ولأن صحيح مسلم .

وقد قال « ابن حزم » عنه ، إنه لا يصح أصلاً من جهة الإسناد .
وقال « ابن الزبير » في العواصم والقواصم : « إياله أن تكثر زيادة كلها في النار إلا واحدة : فإنها
ريادة فاسدة ، ولا يهد أن تكون من دسيس الملاحدة

على أنه قد روى هذا الحديث بالخطبة الآتية الثتان وسبعون في الجنة . وواحدة في النار ، وقال المقدسي
في « أحسن التقاسم » إن الحديث على هذا الوضع ، أصح إسناداً
ومع ذلك ، فقد أخذ مؤرخو الأديان أمثال « الشهرستاني » يعلون الفرق التي في النار ، ويتكلمون
للوصول بها إلى « اثنين وسبعين فرقة » ، مع أن تشعب الفرق واختلاف المذاهب والآراء لا ينهي حتى
تقوم الساعة

انظر مقدمة كتاب ، « التبصير في الدين » التي كتبها « الشيخ رابع الكوزي » رحمه الله تعالى

مطلمة ، وأنتحجم على كل مشكلة ، وأنتفحم كل ورطة ، وأنتفحص عن عقيدة
كل فرقة ، وأنتكشف أسرار مذهب كل طائفة ، لأمر بين محق ومبطل ،
- ومتسلف ومبتدع - .

لا أقامر باطنياً إلا وأحيب إن أطلع على بطائه .
ولا أظاهرياً إلا وأريد أن أعلم حاصل ظهارته .
ولا فلسفياً إلا وأقصد الوقوف على كنه فلسفته .
ولا متكلمياً إلا وأجتهد في الاطلاع على غاية كلامه ومجادلته .
ولا صوفياً إلا وأحرص على العثور على سر صوفته .
ولا متعبداً إلا وأترصد ما يرجع إليه حاصل مبادته .
ولا زنديقاً معطلاً إلا وأتحسس وراءه للتنبه لأسباب جراته ، في تعطيله
وزندقته .

وقد كان التعطش إلى درك حقائق الأمور : دأباً ، وديدني ، من أول
أمرى . وريعان عمري : غريزة . وفطرة من الله . وضعت في جلتي لا باختيارى
وحيلتي ، حتى انحلت عني رابطة التقليد ، وانكسرت على العقائد الموروثة ،
على قرب عهد من الصبا ، إذ رأيت :

صبيان النصراني : لا يكون لهم نشوء إلا على لتنصر ، وصبيان اليهود ،
لا نشوء لهم إلا على النهود : وصبيان المسلمين لا نشوء لهم إلا على الإسلام ،
وسمعت الحديث المروي عن رسول الله ﷺ حيث قال :

« كل مولود يولد على الفطرة : فأبواه يهودانه ، وينصرانه ، ويمجسانه .
فتحرك باطنى إلى حقيقة الفطرة الأصلية ، وحقيقة العقائد المعارضة بتقليد
الوالدين والأستاذين ، والتميز بين هذه التقليدات ، وأوائلها تلقينات ، وفي تميز

الحق منها عن الجاهل اختلافات .

قلت في نفسي : أولاً ، إنما مطلوبى : العلم بحقائق الأمور ، فلا بد من طلب حقيقة العلم : ما هي ؟

ظهر لى : أن العلم اليقيني : هو الذى ينكشف فيه المعلوم انكشافاً لا يبق معه ريب ، ولا يقارنه إمكان الغلط والوهم ، ولا يتسع التلب لتقدير ذلك ، بل الأمان من الخطأ يبنى أن يكون مقارناً لليقين ، مقارة أو تحدى بإظهار بطلانه - مثلاً - من يقلب الحجر ذهباً والعصا ثعالباً ، لم يورث ذلك شكاً وإنكاراً ، فإنى إذا علمت ، أن العشرة : أكثر من الثلاثة فو قال لى قائل ، لا بل الثلاثة أكثر ، بدليل أنى أقلب هذه العصا ثعالباً ، وقلها ، وشاهدت ذلك منه . لم أشك - بسية - في معرفتى ، ولم يحصل لى منه إلا التعجب من كجبة قدرته عليه .

فأما الشك فيما علمته ، فلا .

ثم علمت : أن كل مالا أعلمه على هذا الوجه ، ولا أتيتته هذا النوع من اليقين ، فهو علم لا ثقة به ، ولا أمان معه ، وكل علم لا أمان معه ، فليس علم يقينى .

مدخل السفسطة

ثم فشت من علومى ، فوجدت نفسي : عاطلاً من علم موصوف بهذه الصفة ، إلا في الحسيات والضروريات .

قلت : الآن بعد حصول اليأس ، لا مطمع في اقتناس المشكلات إلا من الحليات ، وهى الحسيات ، والضروريات : فلا بد من إحكامها أولاً ، لأتيقن أن تقنى بالهجات ، وأمانى من الغلط في الضروريات : من جنس أمانى الذى كان من قبل في التقليدات ، ومن جنس أمانى أكثر الخلق في النظريات ، أم هو أمان محقق لا خدر فيه ، ولا غائلة له .

فأقبلت بجد بليغ ، أتأمل في الهجات والضروريات ، وأنظر : هل يمكنى أن أشكك نفسي فيها ؟ فانهى لى طول التشكيك إلى أن لم تسمح نفسي بتسليم الأمان في الهجات أيضاً ، وأحد يتسع هذا الشك فيها ، ويقول : من أين الثقة بالحواس ؟ وأقواها حاسة البصر ، وهى تنظر إلى الظل ، فتراه واقعاً غير متحرك ، وتحكم بنفى الحركة ، ثم بالتجربة والمشاهدة - بعد ساحة - تعرف : أنه متحرك ، وأنه لم يتحرك دفعة بنفة ، بل حل التدريج ذرة ، ذرة ، حتى لم تكن له حالة وقوف .

وتنظر إلى الكوكب ، فتراه صغيراً في مقدار دينار ، ثم الأدلة المحتمية تدل على أنه أكبر من الأرض في المقدار .

هنا ، وأمثاله ، من الهجات يحكم فيها حاكم الحس ، بأحكامه ، ويكذبه حاكم العقل ، ويخونه ، تكديماً لا سبيل إن مدافعته .

قلت : قد بطلت الثقة بالهضات أبصاً ، فلهذا لا ثقة إلا بالعقلية ، التي هي من الأوليات ، كقولنا : العشرة أكثر من الثلاثة ، ولتنق والإثبات لا يجتمعان في الشيء الواحد ، والشيء الواحد لا يكون حادثاً قديماً : موجوداً معنوياً ، واجباً محالاً .

فقلت الحواس : يم تأمن أن تكون ثقتك بالعقلية ، كثقتك بالهضات وقد كنت واثقاً بي ، فجاء حاكم العقل فكذبني ، ولولا حاكم العقل لكت تستمر على تصديق ، فلعل وراء إدراك العقل حاكماً آخر ، إذا تجمل كذب العقل في حكمه ، كما تجمل حاكم العقل فكذب الحس في حكمه ، وعدم نحن ذلك الإدراك ، لا يدل على استحالة !

فترقت النفس في جواب ذلك قليلاً ، وأيدت إشكالاتها المنام ، وقالت : أما نراك تعتقد في النوم أموراً ، وتتحيل أحوالاً ، وتعتقد لها ثباتاً ، واستقراراً ، ولا تشك في تلك الحالة فيها ، ثم تستيقظ فتعلم أنه لم يكن لجميع متخيلاتك ومعتقداتك أصل ، وطائل ؟

فيم تأمن أن يكون جميع ما تعتقده في يقظتك ، بحس أو عقل ، هو حق بالإضافة إلى حالتك التي أنت فيها ، لكن يمكن أن تطراً عليك حالة تكون سببها إلى يقظتك - كنسبة يقظتك إلى منامك ، وتكون يقظتك يوماً بالإضافة إليها ! فإذا وردت تلك الحالة ، تيقنت أن جميع ما توهمت بعقلك خيالات لا حاصل لها .

ولعل تلك الحالة ما تدعيه الصوفية : أنها حالتهم ، إذ يزعمون أنهم يشاهدون في أحوالهم التي لهم إذا خاصوا في أنفسهم ، وغابوا عن حواسهم ، أحوالاً لا توافق هذه المعقولات .

ولعل تلك الحالة هي الموت إذ قال رسول الله ﷺ :
« الناس نيام ، فإذا ماتوا انتبهوا » .

فلعل الحياة الدنيا نوم بالإضافة إلى الآخرة ، فإذا مات ظهرت له الأشياء على خلاف ما يشاهده الآن ، ويقال له عند ذلك :
﴿ فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد ﴾ .

فلما خطرت لي هذه الخواطر ، وانقدحت في النفس ، حاولت لذلك علاجاً لم يتيسر ، إذ لم يكن دفعه إلا بالدليل ، ولم يكن نصب دليل إلا من تركيب العلوم الأولية ، فإذا لم تكن مسلمة ، لم يمكن تركيب الدليل .
فأعضل هذا الداء ، ودام قريباً من شهرين ، أنا فيها على السفسطة بحكم الحال ، لا بحكم التعلق والمقال .

حتى شئ الله تعالى ، من ذلك المرص ، وعادت النفس إلى الصحة والاعتدال ، ورجعت الضروريات العقلية مقبولة ، موثوقاً بها على أمر و يقين ولم يكن ذلك منظم دليل وترتيب كلام ، بل نور قدده الله ، تعالى ، في الصدر ، وددت النور هو معناه أكثر المعارف ، فمن ظن أن الكشف : موقوف على الأدلة المحررة . فقد ضيق رحمة الله الواسعة ، ولما مثل رسول الله ، عليه الصلاة والسلام ، عن « الشرح » ومعناه في قوله تعالى :

﴿ لمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ﴾ . قال :
« هو نور ، يقده الله تعالى ، في القلب » .

فقيل : وما علامته ؟

قال : « التحاني عن دار الغرور ، والإثابة إلى دار الخلود » وهو الذي

قال : عليه السلام ، فيه :

أصناف الطالبين

ولما شغاني الله تعالى ، من هذا المرض بفضله ، وسعة جوده ، المحصرت
أصناف الطالبين عندي في أربع فرق :

- ١- المتكلمون : وهم يدعون أنهم أهل الرأي ، والنظر .
- ٢- الباطنية : وهم يزعمون أنهم أصحاب التعليم ، والمخصوصون
بالاجتناب من الإمام المعصوم .
- ٣- الفلاسفة : وهم يزعمون أنهم أهل المنطق والبرهان .
- ٤- والصوفية : وهم يدعون أنهم خواص الحضرة ، وأهل المشاهدة
والمكاشفة .

فقلت في نفسي : الحق ، لا يملو هذه الأصناف الأربعة ، فهؤلاء هم
السالكون سبيل طلب الحق ، فإن شذ الحق عنهم ، فلا يبقى في درك الحق
مطمع ، إذ لا مطمع في الرجوع إلى التقليد بعد مفارقتها ، إذ من شرط المقلد ألا
يعلم أنه مقلد ، فإذا علم ذلك انكسرت رجاجة تقليده ، وهو شعب^(٤) لا
يرأب^(٥) وشعث^(٦) لا يلم بالتلفيق والتأليف ، إلا أن يذاب بالنار ، وتستأنف
له صنعة أخرى مستجدة .

فابتدرت لسلك هذه الطرق ، واستقصاه ما عند هذه الفرق :

(٤) للشعب : من الأصدقاء وهو هنا بمعنى الحق

(٥) يرأب صلح

(٦) شعث . صخرى

« إن الله تعالى : خلق الخلق في ظلمة ، ثم ورث عليه من نوره .
فمن ذلك النور : ينبغى أن يطلب الكشف .

وذلك : النور ينبجس من الجود الإلهي في بعض الأحيان ، ويجب التردد
له ، كما قال عليه السلام : « إن لربكم في أيام دهركم نعمات ، ألا تفرصوا
لها . »

والمقصود من هذه الحكايات . أن يعمل في كمال الجهد في الطلب ، حتى
ينتهي إلى طلب مالا يطلب . فإن الأوليات ليست مطلوبة ، فإنها حاضرة ،
والحاضر إذا طلب تفر واختفى . ومن طلب مالا يطلب لا يتم بالتقصير في طلب
ما يطلب .

عبدتاً يعلم الكلام ،
ومثياً بطريق الفلسفة ،
ومثلاً يتعلم الباطنية ،
ومربياً بطريق الصوفية .

- نظر في الكلام إلا وفي كلية دخل :-

وقال مالك : أرويت إن جامد من هو أجند منه ، أيدع دية كل يوم ، لعين جديد ؟
قال أبو بكر : تناظر القوم ويجادلوا في الفقه ، ونهوا عن الجدل في الاحتقاد لأنه يؤدي إلى الانسلاخ
من الدين . ألا ترى إلى مناظرة بشر . في قوله ، عز وجل : (ما يكون من مجرى ثلاثة إلا هو رابعم)
حي قال : هو بذاته ، في كل مكان . فقال له خصمه : فهو في كلنوتك ، وفي حشك ، وفي جوف
حمار ، تعالى الله عما يقول . حكى ذلك وكيع رحمه الله ، وأما والله أكره أن أحكى كلامهم . . . من هذا
وشبهه نهي العلماء .

من كتاب التمهيد للمرحوم الشيخ مصطفي حيد الرازي

وقد جاء فيه أيضاً عن شيخ الإسلام للمروى المتوفى سنة 841 هـ .

وأخرج عن طريق عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده ، قال : « خرج رسول الله ﷺ ، على
أصحابه ذات يوم ، وهم يتراحون في القدر ، فخرج مصعباً حتى وقف عليهم ، فقال يا قوم هذا
صلت الأمم قبلكم باختلافهم على أنبيائهم ، وضربهم الكتاب بفضه يعضون وإن القرآن لم يترن لتعبروا
بعضه ببعض . ولكي رن القرآن ، لصدق بفضه بعضاً ، ما عرفتم منه فاصلوا به ومما تشابه فأمسوا به »
وأخرج عن أبي هريرة قال : « خرج علينا رسول الله ﷺ ، ونحن نتنازع في القدر ، فنضب ، حتى
احمر وجهه ، ثم قال : أيها أمرئ ، ألم بهذا أرسلت إليكم ؟ إنما هلك من كان قبلكم حين تنازعوا في
الأمر . عزمت عليكم ألا تنازعوا . »

وأخرج عن أبي الفراء ، وأبي أمامة ، وأنس بن مالك ، ورواه ابن الأسيق قالوا : « خرج بنا
رسول الله ﷺ ، ونحن نتنازع في شيء من الدين ، فنضب غضباً شديداً ، لم ينصب مظه . ثم انتهى ،
قال : يا أمة محمد ! لا تتجورا على أنفسكم ثم قال : أيها أمرئتك . أوليس عن هذا سبقكم ؟ إنما هلك
من كان قبلكم بهذا . ثم قال : دروا المراء لقله حموه ، دروا المراء ، فإن نعمه قليل ، ويحيط
العداوة بين الإخوان . دروا المراء ، فإن المراء لا تؤمن كتبه . دروا المراء ، فإن المراء يورث الشك ، ويحبط
العمل ، دروا المراء فإن المؤمن لا يجازي ، دروا المراء ، هكذا يدك إنما . ألا تزل بخارياً . دروا المراء فإن
المراء لا أشجع له يوم القيامة ، دروا المراء ، فلأن زعيم ثلاثة آيات في الجنة في وسطها ، وربها ،
وأحلاما لم ترك المراء ، وهو صادق ، دروا المراء ، فإنه أول ما تنزل الله عنه بعد عبادة الأوتان ، وشرب
الحمر ، دروا المراء فإن الشيطان قد يس من أن يسب ، ولكن روى بالتحريش ، وهو المراء في الدين ،
دروا المراء ، فإن بني إسرائيل لغتروا على إحدى وسبعين فرقة والنصارى على اثنين وسبعين فرقة =

علم الكلام : مقصوده وحاصله :

ثم في ابتدأت بعلم الكلام ، فحصلته ، وعقلته ، وعاملت كتب المحققين
منهم .

وصفت فيه ما أردت أن أصنف .

عصافته علماً وفيها بمقصوده ، غير واف بمقصودي .

وإنما مقصوده . حفظ عقيدة أهل السنة ، وحراسها عن تشويش أهل
البدعة (٧)

(٧) يرى أن الإمام الغزالي - مع طعمه في النهاية لسلم الكلام - كان محملاً للتكلمين . وسرنا أن
مذكر هنا رأى السلف في شيء من الاستعانة

قال ابن عبد البر ، المتوفى سنة 463 في كتاب جامع بيان العلم وفضله . حكي السلف - رحمهم
الله عن الخلدان في الله ، حل لناؤه ، في صفاته ، وأسمائه . وأما العفة فاجتمعوا على الخلدان فيه ،
والتنازع لأنه علم يحتاج فيه إلى رد الفروع إلى الأصول للحاجة إلى ذلك . وليس الاعتصامات كذلك .
لأن الله ، عز وجل : لا يوصف عند الجاهة - أهل السنة - إلا بما وصف به نفسه ، أو وصفه به رسوله
ﷺ ، أو أوصفت الأمة عليه . وليس كذلك شيء فيترك بقياس أو إتمام نظر ، وقد سبنا عن التكبير في
الله ، وأمرنا بالتكبير في خلقه الدال عليه . وعن مصعب بن عبد الله الزبيدي . « كان مالك بن أنس
يحول : الكلام في الدين أكرهه ، ولم يزل أهل بلدنا يكرهونه ، ويهرون عنه . هو الكلام في رأى حبه
والقدر ، ومما نسيه ذلك ، ولا أحب الكلام إلا فيما نحت عمل . »
وقال أيضاً في الكتاب نفسه : « وقال أحمد بن حنبل : لا يفتح صاحب كلام بدياً ولا تكاد نرى أحداً =

فقد ألقى الله تعالى إلف عباده على لسان رسوله عقيدة هي : الحق ، على ما فيه صلاح دينهم ودنياهم ، كما نطق بمرعته القرآن والأخبار .

ثم ألقى الشيطان في وساوس المبتدعة أمورا مخالفة لسنة ، فلهجروا بها ، وكادوا يشوشون عقيدة الحق على أهلها .

فأنشأ الله تعالى ، طائفة المتكلمين ، وحرك دواعيهم نصرة السنة بكلام مرتب ، يكشف عن تلبسات أهل البدعة المحدثنة على خلاف السنة الماثورة ، فنه نشأ علم الكلام وأهله (٨) .

مران أنى صغرى على ثلاث وسبعين فرقة كلهم على الفصالة ، إلا السواد الأعظم ، قالوا : يا رسول الله ، وس السواد الأعظم ؟ قال : من كان على ما أنا عليه وأصحابي ، ثم قال إن الإسلام بدأ عربياً ، وسيؤخر عربياً فطوى للفرقاء ، قالوا : يا رسول الله ، ومن الفرقاء ؟ قال : الذين يصلحون إذا فسد الناس ، ولا يجارون في دين الله أحد .

(٨) تحدث الإمام الغزالي عن علم الكلام غير مرة في كثير من كتبه ، وتحدث في الإجماع ، عن الآراء في كونه حلالاً أم حراماً ، ثم قال .

ورق التحريم ذهب الشافعي ومالك وأحمد بن حنبل ومطهران وجميع أهل الحديث من السلف قال ابن عبد الأهل رحمه الله : سمعت الشافعي ، رضي الله عنه ، يوم ناظر حصصاً الفرد ، وكان من متكلى المعتزلة يقول لأن يلقى الله عز وجل ، العبد بكل ديب ما خلا الشرك بالله عز وجل من أن يفتاه بشيء من علم الكلام . ولقد سمعت من شخص كلاماً لا أقدر أن أحكيه .

وقال أيضاً . قد اطلمت من أهل الكلام على شيء ما ظنته قط ، ولأن يلقى العبد بكل ما سى الله عنه ما عدا الشرك ، غير له من أن ينظر في الكلام .

وحكى الكرايسي أن الشافعي رضي الله عنه سئل عن شيء من الكلام مضرب ، وقال سئل عن هذا حصصاً الفرد وأصحابه أنزاهم الله .

ولما مرص الشافعي رضي الله عنه ، دخل عليه حصص الفرد فقال له من أنا ؟ فقال حصص الفرد لا حفظك الله . ولا رعاك حتى تحوب مما أنت فيه .

وقال أيضاً لو علم الناس مالى الكلام من الأهواء ، لقروا من فرارهم من الأسد . وقال أيضاً : إذا سمعت الرجل يقول : الاسم هو للمسمى أو غير المسمى فشهد بأنه من أهل الكلام ولاديين له .

فلقد قام طائفة منهم بما ندبهم الله تعالى إليه ، فأحسنوا الدب عن السنة ، والتضال عن العقيدة المتلقاة بالقبول من النبوة ، والتغيير في وجه ما أحدث من البدعة .

ولكنهم احتملوا في ذلك على مقدمات تملوها من خصومهم ،

قال الزعفراني : قال الشافعي : حكى في أصحاب الكلام ، أن بصروا باجر يد وبطاف بهم في القتال والمشاعر ، ويقال : هذا جزء من ترك الكتاب والسنة ، وأخذ الكلام

وقال أحمد بن حنبل لا يطلع صاحب الكلام أبداً ، ولا تكاد ترى أحداً نظروا الكلام إلا ولى قلبه دخل . وبالغ في فقه حتى هجر الحارث المحلبي مع زعمه وورعه بسبب تصنيفه كتاباً في الرد على المبتدعة ، وقال له : أئتت بحكي بدعتهم فولا ثم رد عليهم أ أئتت بحمل الناس بتصنيفك على مخالفة البدعة ، والتضكر في تلك الشيات ، فيدعومهم ذلك إلى الرأي واليهت .

وقال أحمد ، رحمه الله علماء الكلام زنادقة

وقال مالك ، رحمه الله : أرتبت إن جماعة من هو أجدل منه ، أبدع دينه كل يوم لدين جديد ؟ يعني أن أقوال المتجادلين إن تضاروت

وقال مالك رحمه الله أيضاً : لا يجرى شهادة أهل البدع والأهواء .

فقال بعض أصحابه في تأويله : إنه لو اد بأهل الأهواء أهل الكلام ، على أى مذهب كانوا . وقال أبو يوسف : من طلب العلم بالكلام لزندق .

وقال الحسن : لا يجادلوا أهل الأهواء ، ولا يجالسوهم ، ولا تسعوا معهم . وقد اتفق أهل الحديث من السلف على هذا .

ولا يحرص ما نقل عنهم من التشديدات فيه .

وقالوا : ما سكتت عنه الصحابة - مع أنهم أهدى بالحقائق ، وأقبح بترتيب الألفاظ من غيرهم - إلا لطمهم بما يتولد منه من الشر ، لذلك قال النبي ﷺ :

« حدثت للتطوع ، هلك المتطوعون ، هلك المتطوعون ، أى المتصفون بالحق والاستقصاء جديلاً واحبوا أيضاً بأن ذلك لو كان من اللين ، لكان ذلك أهم ما يأمر به رسول الله ﷺ ، ويعلم طريقه ، ويحق عليه وحل تربيته ، فقد علمهم الاستجابة ، وتدريبهم إلى علم القرائن ، وألقى عليهم ، ونهاهم عن الكلام في القدر وقال : أمسكوا عن القدر وحل هذا استمر الصحابة رضي الله عنهم فازيادة على الأستاذ عظيم وظلم ، وهم الأستاذون والقدماء ، ونحن الأتياع ، والتلاميذ .

واضطربهم إلى تسليمها : أما التقليد ، أو إجماع الأمة ، أو مجرد القبول من القرآن والأخبار .

وكان أكثر جوضهم في استخراج مناقصات الخصوم ، بمؤاخذاتهم بلوارم مسلماتهم وهذا قليل النفع في حق من لا يسلم سوى الضروريات شيئاً أصلاً . فلم يكن الكلام في حق كافياً . ولا لداني الذي كنت أشكوه شايئاً^(٩) .

نعم ، لما نشأت صنعة الكلام ، وكثر الخوض فيه ، وطالت المدة تشوق المتكلمون إلى محاولة المذهب عن السنة بالبحث عن حقائق الأمور ، وخاصوا في البحث عن الحواهر والأعراض وأحكامها ، لكن لما لم يكن ذلك مقصود علمهم ، لم يبلغ كلامهم فيه الغاية القصوى ، فلم يحصل منه ما يحو بالكليّة ظلمات الخيرة ، في اختلافات الخلق .

ولا أبعد أن يكون قد حصل ذلك لغيري ، بل لست أشك في حصول ذلك لطائفة ، ولكن حصولاً مشوباً بالتقليد في بعض الأمور التي ليست من الأوليات .

والغرض الآن : حكاية حالي ، لا الإنكار على من استثنى به ، فإن أدوية الشفاء تختلف باختلاف الداء ، وكم من دواء يتضع به مريض ويستضره آخر .

(٩) وتحدث الإمام الغزالي في الإحياء أيضاً عن صنعة علم الكلام وثاقته سراً بهذا النص عن رأيه الخالص فقال :

وأما منفعته فقد يقل أن فائدته ، كشف الحقائق ، ومعرفة حق ما هي عليه وهيات ، فليس في الكلام وعاء هذا المطلب الشريف ، ولعل التحبيد والتضليل فيه أكثر من الكشف والتعريف ، وهذا يد سمعت من محدث ، أو حشوي ربما حطر بيالك أن الناس أعناء ما جهروا ، فاسمع هذا من حبر الكلام ثم قل له بعد حفيظة الخبرة وبعد التامل في حق من انتهى فوجبه المتكلمين وجاوز ذلك إلى التعمق في علوم آخر تناسب نوع الكلام ولحق أن الطريق إلى حقائق المعرفة من هذا الوجه مفقود .

الفلسفة :

أحاصيلها : ما يدم منها ، وما لا يدم . وما يكفر قاله ، ولا يكفر ، وما يدع فيه ، وما لا يدع ، ويبان ما سرقوه : من كلام أهل الحق ، ومزجوه بكلامهم لترويج باطلهم في درج ذلك ، وكيفية حصول نفرة النفوس من ذلك الحق ، وكيفية استخلاص صراف الحق الخالص من الزيف والبهرج : من جملة كلامهم .

ثم إلى ابتدأت - بعد الفراغ من علم الكلام - بعلم الفلسفة ، وعلمت بقيئاً : أنه لا يقف على فساد نوع من العلوم ، من لا يقف على منتهى ذلك العلم ، حتى يساوى أعمهم في أهل ذلك العلم ، ثم يزيد عليه ، ويجاور درجته ، فيطلع على ما لم يطلع عليه صاحب العلم ، من عوره وعائله ، وإذا ذاك يمكن أن يكون ما يدعيه من فساد حقاً .

ولم أر أحداً من علماء الإسلام صرف عنايته وهمته إلى ذلك .

ولم يكن في كتب المتكلمين من كلامهم - حيث شتموا بالرد عليهم - إلا كلمات معقدة مبعدة ظاهرة التناقض والفساد لا يعل الاغترار بها بما قل علمي ، فضلاً عما يدعي دقائق العلوم . فسمت : أن رد المذهب قبل فهمه والاطلاع على كنهه : رمي في حياية .

فشمرت عن ساق الجسد في تحصيل ذلك العلم من الكتب ، بمجرد المطالعة ، من غير استعانة بأستاذ ، وأقبلت على ذلك في أوقات فراغي من التصنيف والتدريس في العلوم الشرعية ، وأنا مُصنر^(١٠) بالتدريس والإفادة

(١٠) مثل .

الصانع المذير^(١١٦) العالم القادر ، ورسوماً : أن العالم : لم يزل موجوداً ، كذلك

وإن خلافاً لم يحدث أحد من الآفة والذين ليس من كان أمياً^١ ثم قال أرسطو في لفظة الآفة
من كتاب السماء ما نصه :

أنا من ذهب إلى قول أنا هو نفس ديموقريطس بقوله قال إن الأركان لم تحدث باستحالة بعضها في
حس بل لا حدوث إلا في الظاهر بأمر موجود على حدتها . ففروق بعد الإجماع . ١ .

ثم قال في كتاب السماء والهيكلين : في ثلاثة الأول - وعضوم . أن الأركان إنما اجتمعت فقد
تحدث الأجسام وإذا انفردت فسدت الأجسام ، وعضوم أيضاً . أن الوجود لا يسمو أبداً إلى الجسم ، ١ .
وقال ديموقريطس في تاريخ الهيكلين : وراضم أن الجسم لا يحدث منه شيء وأن الوجود لا يسمو إلى
الجسم ، ١ . ثم يوافق هذه التصور في تاريخ الهيكلين ويشتاقها مطابقة ، فضلاً عما ذكره
من عجب الجسمين^١

فقد جرح : أن الدهرية عند هيرب : هم خيبة ديموقريطس (ورائها نفس وأن الطبيعيين :
هم بقية الأقسام من اللاسطة .

وطبعت ديموقريطس : هو كتابة القسوى في لفظة الهيكلين كراعي العصر الأول .
العنى من الأسماء فوظم بلفظه الذي لا يجرأ .

وبه أحد النظم من حكمتي للبرق فوله بالكون .
وبه أحد نظم من اللاسطة والطبيعت فوظم في أفكار هيراقس ورسمة الوجود .

في طابق قول ديموقريطس : يا حله الطبيعيين من اللاسطة في مصرنا هذا لا يوجد بين القولين تجاراً ،
الهم إلا ما بدأ من تقدم العلوم في زمان

واقف : أن من العصر على الطبيعت ، ولم يزل يفرق السمات : لا يسه إلا الاعتقاد والعمل
بشأنهم مع أن من يسمو في مراتب الأمر يحق : أن يظل هذا الرأي لا يفتنى ، في كل زمان ، إلا
بإفكار المتناقض ومنهم من قام العقل ١ . سئلنا للتأليب اللطيفة ، فطرط مكنية الجبسة .

(١١٧) إن الطبيعة التي لا يجهل فيها شيء : أن الأربعة العظمى من اللاسطة ومن السماء في جانب
الجهنم

والإطاد في جو اللاسطة ، وهو السماء خلوة .
وما لا ذلك فيه أن حيازة اللسطة : القسوة شيم والطين : جوتون فشرط ، والألمون ،
وأرسطو ، وألمون ، وميكارت من الوطين .

يتضح من العلية يتعداد .

فأطلق الله سبحانه وتعالى ، بمجرد المطالعة في هذه الأوقات المختلة على

مثنى علومهم ، في أقل من سعين ، ثم لم أزل أراطلب على التفكير فيه بعد
فهمه ، قريباً من ستة أطاوده وأزوده ، وأتفقد خرافاته ، وأغوازه ، حتى
اطلمت على ما فيه : من خداع ، وتليس ، وتحقق ، وتجميل ، اطلاقاً لم
أشك فيه .

فأصبح الآن حكايته ، وحكاية حاصل علومهم : فإني رأيتهم أصنافاً ،
ورأيت علومهم أقساماً ، وهم - على كثرة أصنافهم - يلزمهم وصمة الكفر
والإطاد ، وإن كان بين القسماهم والأقسامين ، وبين الأواسع منهم والأوائل
تفاوت عظيم في البعد عن الحق ، والتقرب منه .

أصناف اللاسطة وضمون وصمة الكفر كالآتي :

اعلم : أنهم - على كثرة فرقهم ، واختلاف مفاهيمهم - ينقسمون إلى ثلاثة
أقسام :

- الدهريون ،
- والطبيعيون ،
- والإلهيون ،

الصف الأول : الدهريون^(١١٨) وهم طائفة من الأقسامين : جهموا

(١١٦) بعد أن ذكر سئلنا ، كلام البيهقي والمراد من الدهرية قال . هـ فإن لو حيازة لاسطة
الأصول التي احصتها البيهقي والقرناني بما ذكرناه في حق الدهرية وجدنا أرسطو يقول في كتاب : السماء
والعالم حكياً من دأبناو هيربس : :

وإذا كان الإلهاد المنطوق شفوياً ، فلن ذلك لا يتفق أنه حقيقة موجودة وأن له مظهر مستمر ، وهم - على حد تعبير الإمام الخزالي - جعلوا الصانع للمثير العالم القادر وزعموا أن العالم لم يزل موجوداً كذلك بنفسه ، وبلا صانع ، ولم يزل الحيوان من النطفة ، والنطفة من الحيوان ، كذلك كان ، وكذلك يكون أبداً .

و ديوبترطس في العهد اليوناني هو الذي حاول بكل جهده أن يضع من الإلهاد مذهباً ، وكانت فكرته هي :

أن المادة قديمة ، وهي مركبة من أجزاء لا تنجزاً ، وهذه الأجزاء ، أو اللوات : دائمة التحرك في الفضاء اللانهائي . ومن اجتماعها تتكون الأجسام ويافتراقها تنفص . وهكذا استمر الأمر من الأزل ، وسيبقى إلى الأبد بدون غاية ولا هدف : إنها الآلية البحتة .

وهذه الفكرة ، وإن كانت قديمة ، فإنها فكرة كل من يتخذ الإلهاد مذهباً في المصود الحديثة وإن اختلفت كيفية التعبير عنها

إنها فكرة للماديين المحدثين كما كانت فكرة القدماء ولم يغير من جوهرها لمطعم الذرة أو تفتيتها ، اللهم إلا في كيفية التعبير عنها

وقدرت القدماء في سهولة وفي قوة على هذا المذهب وكذلك فعل المحدثون وكانت حجبتهم ، من الدقة ومن الإحكام ، بحيث تجعل التأمل فيها لا يتأتى له أن يقول بغيرها .

وقد حرص جميع القدماء الأستاذة سائلاتاً في المخطوط للمنون بستان : المذاهب الإسلامية ، ونحن نورد تلخيصه الرائع فيج يلى :

(١) وأما القول بالطبيعة . وأن لا شيء غيرها : فهو لا يرضى المائل للتبصر كأنه يقول : نعم . أم لا أتأزع في كون للطبيعة والحركة من أصول الموجودات ، وإنما توقفت في كيفية صدور الفعل منها

فلم يكن هناك مادة تتحرك من الأبد إلى الأبد ، فمن أين حصل لهذا العالم هذا النظام للمجيب ، والترتيب الغريب الذي حوت فيه العقول ، وتفرقت عن إدراكه الضمور .

كيف ينسب ذلك إلى الاتفاق والصلقة و مجرد البحث ؟ ليت شعري ، كيف اجتمعت تلك الأجزاء ؟ وكيف تألفت على اختلاف أشكالها وثباين موادها وقوامها ؟ ! وكيف نقت على تألقها ؟ ! وكيف تجددت على نمط واحد المرة بعد المرة ؟ ! ؟

وقد شهدت العاوية بأن حركات أجراء لانهاية لها ولا محرك لا تقضي إلا إلى غاية الاتهام وعدم القيام

هذا لعمري ، كمثل من وضع حروف المعجم في ظروف ، أو صندوق ثم جعل يركبها يوماً بعد يوم ، طمعاً منه أنها تتألف من تنفاء نفسها ، فيتركب منها تصيدة بليقة ، أو رسالة عميقة في المنطق أو كتاب في الهندسة دقيق ! !

أليس ذلك من التسه الجبن ، فإنه لو دام على تحريكها السنين والمدهور لا حصل من كده إلا حل حروف ! !

لكيف يصور حدوث هذا الوجود (العالم) بما هو عليه من الإلتزام والإحكام وتضافر الأجزاء ، وصحيب متناسلتها بعضها لبعض . من حركات تضافية في خلاه لانهاية له ؟ ! ؟

قال أرسطو في كتابه : (صحيح الكيان)
(إن كل نظام يبدل على وجود العقل) .

(رب) فضلاً عن هذا فإن ما يحصل اتفاقاً لا يحصل إلا مرة واحدة . ولا يتكرر ولا يسوغ بناء حكم عقل عليه ، ولا يقبل القياس . بخلاف ما شهدت به التجربة في حلقا من الثبوت . ولولا هذا لا أمكن إنشاء علم من العلوم الرياضية والطبيعية .

(جـ) هذا ، وإذا فرضنا وجود مجرد الطبيعة ، ولا شيء سواها ، فمن أين هذه القوة العقلية التي يجمعها كل واحد من نفسه ؟ ! ؟

وهي - مع ما فيها ، من السجور والتصوير وكثرة الخطأ - من أظهر هذه الشواهد على وجود ما يخالف مجرد المادة في هذا العالم .

ولا سبيل من المادة إلى الأفعال العقلية ، لما بينها من المغايرة الأصلية . فوجود هذه القوة يستلحق وجود جوهر يمانسها ويمثلها ، ليكون أصلاً لها ومركزاً . هل يمثل ، ما شاهدته من تصور المفولات ، والكشف عن الكليات وتخريخ القضايا وتركيب القياسات ، ليس هو في نفس الأمر ، إلا اصطلاك جزء من المادة بجزء آخر ! !

هل يمثل ، أن ما تضمنته عقولنا ، من الأبحاث الدقيقة ، والمآخذ العميقة كالمثلث ، والرياضيات والإلهيات ، وماضنت به القلوب ، من الشعر المرائق والمطرب من الألحان ، وسحر البيان ، أصله من تلك الأجزاء ؟ ! ؟

وكانت النار من اصطلاك الحجر وذلك في خصوص النار إذ ليس بين مادة النار ومادة الحجر فرق كبير

(د) إن المادة عبر قادرة على أن تكون علة نفسها فمن باب أخرى وأولى أنها لا تكون علة لها هو أصلها من مكاناً وأهم شأناً في درجة الوجود ، وإلا كان الأتمس أصلاً لها هو أرفع ، وهذا ما تبعه وتأنه

بنفسه ، وبلا صانع ، ولم يزل الحيوان من النطفة ، والنطفة من الحيوان ، كذلك كان ، وكذلك يكون أبداً . وهؤلاء هم الزنادقة (١٣) .

والصنف الثاني : الطيبيون : وهم قوم أكلوا بحمهم : عن عالم الطبيعة وعن عجائب الحيوان والنبات .

وأكلوا الخوض في علم تشريح أعضاء الحيوانات .

فرأوا فيها من عجائب صنع الله تعالى ، وبدائع حكمته ، ما اضطروا معه إلى الاعتراف بفاطر حكيم مطلع على غايات الأمور ومقاصدها ، ولا يطالع التشريح وعجائب منافع الأعضاء مطالع ، إلا ويحصل له هذا العلم الضروري

القطرة السليمة .

(١٣) بقول مستلثا أيضا :

« من يصرف في حواشي الأمور محقق ، أن مثل هذا الرأي لا يفيض في كل زمان إلا بل إنكار الحقائق وعدم دعائم العقل كيف لا ومن قال : إنه ليس في الوجود إلا نفس ولا شيء سواه ، كيف يمكن له أن يحكم بالوجود ؟ »

وقد أصاب المحقق ناصر الدين الطوسي في شرح المصطلح حيث قال نقلا عن أرسطو وغيره :
الحس إدراك فقط .

والحكم تأليف بين مدركات بالحس ، أو بفهم الحس .

وليس من شأن الحس التأليف الحكمي ، لأنه إدراك فقط فلا شيء من الأحكام محبة أصلا ، فإذن كل ما هو محس لا يمكن أن يوصف من حيث كونه محس . بكونه يقينياً أو غير يقين أو حقا أو باطلاً أو صواباً أو خطأ فإن جميع هذه الأوصاف من لواحق الأحكام . وهو وصح لمن لم يتحقق ماهية الحس وأنه مقصور بالضرورة على خصوص المدرك لا يتعداه

على أن المدرك والمدرك لا زالا يتفرقان فكيف يحكم به على غيره ، وكيف نفي عليه حكماً عقلياً ، وكيف يبي عن حقيقته إذ كل ذلك معروف عن ما هو غير الحس ، فإن إذا بصورت مثلا أن قد سمعت الصوت فقد تجاوزت حد الإدراك الحسي ، وأدخلت فيه حكماً عقلياً ليس له بالحس تعلق فكل فلسفة مقصورة على مجرد الحس لا يكون منها حينئذ إلا النك في الحقائق ، كما وقع في اليونان في أثناء القرن الرابع قبل الميلاد .

بكمال تدبير الباني لبينة الحيوان ، لا سيما بنية الإنسان .

إلا أن هؤلاء لكثرة بحمهم عن الطبيعة - ظهر عندهم - لاعتدال المزاج - تأثير عظيم في قوام قوى الحيوان به . فظنوا أن القوة العاقلة من الإنسان تابعة لمزاجه أيضاً ، وأنها تبطل ببطان مزاجه فيعتمد . ثم إذا اعتمد ، فلا يعقل إعادة المعدوم ، كما زعموا . فذهبوا إلى أن النفس نوت ولا تعود ، فجحوا بالآخرة ، وأنكروا الجنة ، والنار ، والحشر ، والنشر ، والقيامة ، والحساب ، فلم يبق عندهم للطاعة ثواب ، ولا للمعصية عقاب ، فأغفل عنهم اللجام ، وانهمكوا في الشهوات انتهك الأنعام .

وهؤلاء أيضاً زنادقة ، لأن أصل الإيمان هو : الإيمان بالله ، واليوم الآخر ، وهؤلاء جعلوا اليوم الآخر ، وإن آمنوا بالله وصفاته .

الصنف الثالث : الإلهيون : وهم للتأخرون منهم مثل سقراط ، (١٤) وهو

(١٤) سقراط من أشهر فلاسفة الإغريق ومؤسس فلسفة الأخلاق وإلى مدارسه الأخلاقية التي شادها لاتباعه من بعده ترجح أكثر الفكر الأخلاقية التي عرفتها فلسفات العصور حتى عصرنا هذا .
عاش في القرن الخامس قبل الميلاد وجمعه في سبيل الحق حقائق مصرعه على أيدي حاسديه من أصدر الباطل فكان مصرعه مأساة دامية لا تزال حتى اليوم تثير أشجان أصداء الحق في كل زمان ومكان وتوحى إلى أنفسهم بأسمى مثل البطولة والشجاعة والثبات على الحق .
ومنهجه في البحث مشهور . والحديث التالي يعطينا صورة منه وقد جرى بينه وبين أرسطو ديموس الذي كان يكر الإله ، ومنه نستبين أيضاً بعض أفكاره .

قال سقراط : أفي الناس من يجهل براءته في الصنائع ؟ فقال :

نعم . وسمى من الشعراء والمصورين ممن كان يعلوهم أريج من خبثه .

فقال سقراط : أيها عندك أرفع شأناً ؟ أم يصح اللاتين العارية عن الحركة والعقل ؟ أم من يصور الأضباع الحية للمحركة ؟

فقال : من يصنع الصور الحية اللهم إلا إذا كانت تلك الصور من عمل المصادة والاعتناق لاس عمل العقل . قال سقراط : إذا فرضنا أشياء لا يظهر المقصود منها ، وأشياء أخرى بينة القصد والمنفعة ، فما

أستاذ « أفلاطون » و « أفلاطون » أستاذ « أرسطاطاليس » .

وه « أرسطاطاليس » هو الذي رتب لهم المنطق ، وهذب لهم العلوم ، وحرر لهم ما لم يكن محرراً من قبل ، وأنضح لهم ما كان فجاً من علومهم . وهم يحمليهم ، ردوا على الصنفين الأولين من الدهرية ، والطبيعية ، وأوردوا في الكشف عن فضائهم ما اغتوا به غيرهم ، وكفى الله المؤمنين القتال بتقاتلهم .

ثم رد أرسطاطاليس على أفلاطون^(١٦) وسقراط ومن كان قبله من الإلهيين ، ردّاً لم يقصر فيه حتى تبرأ عن جميعهم ، إلا أنه استبق أيضاً من

قولك في تلك الأشياء ؟ ما هي التي عندك من فعل العقل ، وما هي التي عندك من فعل الاتفاق ؟ قال : لا شك أن ما ظهر قصده ومضته من فعل العقل

قال سقراط : أولست ترى أن صانع الإنسان في أول نشأته جعل له آلات الخس لئلا تلك الآلات من المنفعة الظاهرة ؟ فأعطاه البصر ، والأذنين ، ليصير واسع ما يكون ليثمه صادقاً . وما لك من الروائع لو لم تكن لنا الخياشيم وكيف تدرك المطاعم وتفرق بين المر والحلو والمر ، لو لم يكن لمن يتلوق به . إن بصرتنا معرض للآفات . أولست ترى كيف احتست القدرة الإلهية بذلك ؟ فحسبت الأجنان كالأبواب فتح ما يصب البصر ، وحسبت الأهداب كالمناخل لتلقيها من اسرار الرياح ، وما قولك في آلة السمع ، وهي تضل جميع الأصوات ولا تختلج أبداً ؟ أما وأيت الحيوانات ، كيف ربيت أستاذنا للثمة ؟ وأصلت لتقطع الأشياء خلقها إلى الأعراس فتدقها دقا ؟

بإذا تأملت في ترتيب ذلك أيمكتك أن تشك : هل هي من فعل الاتفاق أو من فعل العقل ؟ قال أرسطو ديموس : نعم إذا فكرت في ذلك ، لأنك في أنها من فعل صانع حكيم كثير المنابة مصنوعات من مخلوط « ستلانا » .

(١٥) فيلوف يوتالي ولد سنة ٤٢٩ . وتوفي سنة ٣٤٧ ق م ويطلق عليه (أفلاطون الإلهي) ذلك أن الروحانية : تحمل من فلسفته المركز الرئيسي ومظهره في (المثل) وعلى رأسها (مثال الخير) مشهورة وقد ترجم من كتبه إلى العربية حديثاً بعض المحاورات وكتاب (الجمهورية)

ردائل كفرهم وبدعهم ، بقايا لم يوفق للتزوع عنها ، فوجب تكفيرهم ، وتكفير شيعتهم من المتفلسفة الإسلاميين كابين سينا و الفارابي وأمثالهما .

عل أنه لم يقم بنقل علم : أرسطاطاليس^(١٧) أحد من ممثلي الفلسفة الإسلاميين كقيام هذين الرجلين ، وما نقله غيرهما ليس يخلو عن تحييط وتحليل ، يتشوش فيه قلب المطالع ، حتى لا يفهم : وما لا يفهم : كيف يرد أو يقبل ؟ وعموم ما صح عندنا من فلسفة أرسطاطاليس ، بحسب نقل هذين الرجلين ، ينحصر في ثلاثة أقسام :

١- قسم يجب التكفير به .

٢- وقسم يجب التبديع به .

٣- وقسم لا يجب إنكاره أصلاً ، فلتفصله .

أقسام علومهم :

اعلم : أن علومهم - بالنسبة إلى الغرض الذي نطلبه ستة أقسام :
رياضية ، ومنطقية ، وطبيعية ، وإلهية ، وسياسية ، وخلقية .

١- أما الرياضية : فتتعلق بعلم الحساب ، والهندسة ، وعلم هيئة العالم ، وليس يتعلق شيء منها بالأمور الدينية نفيًا وإثباتًا ، بل هي أمور برهانية ، لا

(١٦) أرسطو (٣٨٤ - ٣٢٢ ق م) هو أعلم فلاسفة اليونان الأقدمين وبعده بعض الناس أعظم شخصية فلسفية وجدت حتى الآن وهو مقدوني الأصل : رحل إلى أثينا وتلقى على أفلاطون ولازمه ويسمى أتباعه (بالمثاليين) ويلقب هو به المعلم الأول ، لأنه أول من رتب المنطق ونقله وكرمه علماً له حدوده وأهدافه وقد طلب إليه لثام فيليس المقبولي تعلم ابنه الإسكندر فأخذ يعلمه ثلاث سنوات وقد ترجم إلى العربية حديثاً من كتبه كتاب « الأخلاق » و « الكون والفساد » و « السياسة » ترجمها الأستاذ أسعد لطفى السيد وترجم له الأستاذ الاحواقي كتاب فلسفي .

سبل إلى مجادتها بعد فهمها ، ومعرفتها .
وقد تولدت منها آفتان :

الآفة الأولى : أن من ينظر فيها يتعجب من دقتها ، ومن ظهور براهينها :
فيحسن بسبب ذلك اعتقاده في الفلاسفة ، فيحسب أن جميع علومهم في
الوضوح ، وفي وثاقة البرهان ، كذا العلم . ثم يكون قد سمع من كثرهم ،
وتعظيمهم ، وتواضعهم بالشرح ، ما تداولته الألسنة ، فيكفر بالتقليد المحض ،
ويقول ، لو كان الدين حقاً ، لما احتج على هؤلاء مع تدقيقهم في هذا العلم !
فإذا عرف بالتسامح ، كثرهم وجعلهم ، فيستدل على أن الحق : هو الجسد
والإنكار للدين . وكما رأيت من يضل عن الحق بهذا القدر ولا مستدل له
سواه !

وإذا قيل له . الحاذق في صناعة واحدة ليس يلزم أن يكون حاذقاً في كل
صناعة ، فلا يلزم أن يكون الحاذق في الفقه ، والكلام ، حاذقاً في الطب ،
ولا أن يكون الجاهل بالعقليات جاهلاً بالنحو ، بل لكل صناعة أهل بلغوا فيها
رتبة البراعة والسبق . وإن كان الحق والجهل قد يلزمهم في غيرها ، فكلام
الأدائل في الرياضيات برهاني ، وفي الإلهيات تخميني . لا يعرف ذلك إلا من
حضره وحاضر فيه ، فهذا إذا قرر على هذا الذي اعتدع بالتقليد لم يقع منه موقع
القبول ، بل تحمله غلبة العوى وشقوة البطالة ، وحب التكايس على أن يصير
على تحسين الظن بهم في العلوم كلها .
فهذه آفة عظيمة ، لأجلها يجب زجر كل من يخوض في تلك العلوم (١٧) ،

(١٧) إن الرياضيات الآن لم تعد ثابتة للفلسفة ، أو مدعاً من طوبها ، وإنما هي مادة مستقلة لا يخرج
مها للمصحح الإسلامي ، وهي حتماً عرض لا يشكر المدارس لما في أمور الدين ولا في مبادئه وأصل وضعها

بأنها وإن لم تتعلق بأمر الدين ، ولكن لما كانت من مبادئ علومهم ، يسرى إليه
شروم وشؤمهم قتل من يخوض فيها ، إلا وينخلع من الدين ، وينحل عن
رأسه لحام التقوى .

الآفة الثانية : نشأت من صديق للإسلام جاهل ، ظن أن الدين ينبغي أن
ينصر بإنكار كل علم منسوب إليهم ، فأنكر جميع علومهم وادعى جهلهم فيها ،
حتى أنكروا قولهم في الكسوف ، والخسوف ، وزعم أن ما قالوه على خلاف
الشرع ، فلما فرغ ذلك سمع من عرف ذلك بالبرهان القاطع ، لم يشك في
برهانه ، لكن اعتقد أن الإسلام مبنى على الجهل ، وإنكار البرهان القاطع ،
فازداد للفلسفة حياءً ، وللإسلام بغضاً .

ولقد عظمت على الدين جناية من ظن أن الإسلام ينصر بإنكار هذه
العلوم ، وليس في الشرع تعرض لهذه العلوم بالنق ، والإنيات ، ولا في هذه
العلوم تعرض للأخورد الدينية . وقوله عليه السلام :

« إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله تعالى ، لا يتخسفان لوت أسد ،
ولا لحياه ، فإذا رأيت ذلك فاقرعوا إلى ذكر الله تعالى ، وإلى الصلاة » .
ليس في هذا إنكار علم الحساب ، المعروف بسمي الشمس ، والقمر ،
واجتماعها ، أو مقابلتها على وجه الخصوص .

أما قوله ، عليه السلام : « ولكن الله إذا تجل لشيء خضع له » فليس توجد
هذه الزيادة في المصاحح أصلاً .

فهذا حكم الرياضيات وأفتها .

في أيام الإيم التزول كان فيه وضعها الآن وما من شك في أن الإيم التزول - وهو وضع الأتي مستوي -
لو حاش بيتنا الآن لما قال ذلك

٢- وأما المنطقيات : فلا يتعلق شيء منها بالدين ، نفيًا وإثباتًا ، بل هو النظر في طرق الأدلة والمقاييس ، وشروط مقدمات البرهان ، وكيفية تركيبها وشروط الحد الصحيح ، وكيفية ترتيبه .
وأن العلم : إما تصور ، وسيلة معرفته الحد ، وإما تصديق وسبيل معرفته البرهان .

وليس في هذا ما ينبغي أن ينكر ، بل هو من جنس ما ذكره للتكلمون ، وأهل النظر في الأدلة ، وإنما يفارقونهم بالعبارات ، والاصطلاحات ، وزيادة الاستقصاء في التعريفات ، والتشحيات .

ومثال كلامهم فيها قولهم : إذا ثبت أن كل (أ) (ب) ، لزم أن بعض (ب) (أ) أي : إذا ثبت أن كل إنسان حيوان ، لزم أن بعض الحيوان إنسان ، ويعبرون عن هذا بأن الموجبة الكلية ، تنعكس موجبة جزئية . وأى تعلق لهذا بمهمات الدين ، حتى يمحذ وينكر ؟ فإذا أنكر لم يحصل من إنكاره - عند أهل المطلق - إلا سوء الاعتقاد في عقل المسكر ، بل في دينه الذي يرفع أنه موقوف على هذا الإبتكار .

نعم لهم نوع من الظلم في هذا العلم ، وهو أنهم يجمعون للبرهان شروطاً يعلم أنها تورث اليقين ، لا محالة ، لكنهم عند الانتهاء إلى المقاصد الدينية ، ما أمكهم الوفاء بتلك الشروط ، بل تساهلوا غاية التساهل .

وربما ينظر في المنطق أيضاً ، من يستحسنه ، ويراه واضحاً فيظن أن ما ينقل عنهم من الكفریات مؤيدة بمثل تلك البراهين ، فاستعجل بالكفر قل الانتهاء إلى العلوم الإلهية .

هذه الآفة أيضاً متطرفة إليه

٣- وأما علم الطبيعيات فهو بحث عن عالم السموات ، وكواكبها ، وما تحتها من الأجسام المفردة : كالماء ، والهواء ، والتراب ، والنار ، ومن الأجسام المركبة : كالحيون ، والنبات والمعادن ، وعن أسباب تغيرها ، واستحالتها ، وامتزاجها ، وذلك يضاهي بحث الطب عن جسم الإنسان ، وأعضائه الرئيسية والخادمة ، وأسباب استحالة مزاجه ، وكما أنه ليس من شرط الدين إنكار علم الطب ، فليس من شرطه أيضاً إنكار ذلك العلم ، إلا في مسائل معينة ، ذكرناها في كتاب : نهات الفلاسفة ، وما عداها مما يجب المخالفة فيها ، فعند التأمل يتبين أنها مندرجة تحتها .

وأصل جمليتها : أن تعلم أن الطبيعة مسخرة لله تعالى ، لا تعمل بنفسها ، بل هي مستعملة من جهة فاطرها ، والشمس ، والقمر ، والنجوم ، والعبائع مسخرات بأمره ، لا فعل لشيء منها بذاته عن ذاته .

٤- وأما الإلهيات : ففيها أكثر أغاليطهم لما قدروا على الوفاء بالبراهين على ما شرطوه في المنطق ، ولذلك كثرت الاختلاف بينهم فيها .
ولقد قرب مذهب أرسطاطاليس فيها من مذاهب الإسلاميين ، على ما نقله الفارابي (١٨) .

(١٨) الفارابي : (٢٦٠ - ٣٢٩) ولد في قراب . وهو إمام فارسي في نجوم بلاد الترك رحل إلى بغداد ثم استقر به المقام في كتف سيف الدولة يحيى هشمة الزاهد ، موجهاً كل هم إلى الدراسة والتأمل .
حول ابن خلكان : وكان مدة مقامه بدمشق لا يكون - غالباً - إلا حد جمع ماء ، أو مشتك رياض ، ويؤلف هناك كتبه ، ويتناوبه المشغولون عليه .

وكان الفارابي يحس الموسيقى تحيياً وتوليداً ، حتى يحكى ابن خلكان أن الآلة الموسيقية الفارابي إنما هي من وضعه ، وقد أطلق عليه المسلمون للمعلم الثاني ، كما أطلق على أرسطو : للمعلم الأول .
وتقدير للتورعيب مضافات ، فمنهم من يقدمه على ابن سينا ومنهم من يقدم ابن سينا عليه .

قصة التصوف المنطق من الضلال

ولكن مجموع ما غلطوا فيه يرجع إلى عشرين أصلاً يح تكفيرهم في ثلاثة منها ، وتبديهم في سبعة عشرة .

ولإبطال مفاهيم في هذه المسائل المثبتين ، صنعنا كتاب « التهاات » .
أما المسائل الثلاث ، فقد خالفوا فيها كافة المسلمين ، وذلك في قولهم :

١- إن الأجساد لا تحشر (٢٠) ، وإنما المثاب ، والمغائب هي الأرواح المجردة ، والموتويات والعقوبات روحانية لا جسمانية .

(١٩) ابن سينا : (٣٧٠ - ٤٢٨ م) كان فيلسوفاً عظيماً من فلاسفة الإسلام كما كان له في الطب قدم واسعة ولهم دقيق وقد ألف فيه كتاب « القانون الذي كان يدرس في معاهد أوروبا عدة قرون . أما كتبه الفلسفية فكثيرة ومتداولة ومن أشهرها كتاب : الإشارات وكتاب الشفاء وكتاب النجاة . (٢٠) لعل من الإنصاف ، الذي يدعوا إليه دائما الإمام الفزاري ، أن نذكر رأي ابن رشد في المسائل الثلاث التي كثر بها الإمام الفزاري التماساً

نذكر رأي ابن رشد ، مختصراً عن كتابي : فصل المقال : والكشف عن مناهج الأدلة يقول ابن رشد :

والمعاد : مما اتفقت على وجوده المشترع ، وقامت عليه البراهين عند العلماء وإنما احتضن الشارع في صفة وجوده ، ولم تختلف في الحقيقة في وجوده ، وإنما اختلفت في الشاهدات التي منعت بها للجسم تلك الحال الثانية . وذلك أن من الشارع من جعله روحانياً ، أمضى للعوس ، ومنها من جعله للأجسام والقومس معاً ، والاتفاق في هذه المسألة مبي على اتفاق القوس في ذلك ، واتفاق قديم البراهين الصرورية عند الجميع في ذلك . أمضى أنه قد اتفق الكل على أن للإنسان سعادتين ؟ أمروية وديوية ، واسبى ذلك عند الجميع على أصول يعرف بها عند الكل .

ثم أسد ابن رشد في بيان هذه الأمور ، من النقل والنقل ، ثم قال . فالشرائع كلها كما قلنا منصفة على أن للنفس من بعد الموت أسواراً من السعادة أو الشقاء ولكنها مختلفة في تمثيل هذه الأحوال ، ومعهم وجودها للناس ويشبه أن يكون التمثيل الذي في شريعتنا هذه أم إليها ما لأكثر الناس ، وأكثر تحريكاً لنفسهم إلى ما هنالك . والأكثر هم المقصود الأول بالشرائع

ولقد صدقوا في إثبات الروحانية ، فإنها كائنة أيضاً ، ولكن كذبوا في إنكار الجسمانية ، وكفروا بالشرعية لها نطقوا به .

وأما التمثيل الروحاني يشبه أن يكون أقل تحريكاً لنفس المجهود إلى ما هنالك والجمهور أقل رغبة فيه وبحرفاً له ، منهم في التمثيل الجسماني . ولذلك يشبه أن يكون التمثيل الجسماني : أشد تحريكاً إلى ما هنالك من الروحاني ، والروحاني أشد قبولاً عند المتكلمين الجاهلين من الناس ، وهم الأقل

ولمنا النبي . نجد أهل الإسلام - في فهم التمثيل الذي جاء في مثلنا في أسرار المعاد - ثلاث فرق فرقة رأيت أن ذلك الوجود هو عينه هذا الوجود الذي ههنا من التسم واللذة . أمضى أنهم رأوا أنه واحد بالجنس : وأنه إنما يختلف الوجودان بالدرام والانقطاع : أمضى أن ذلك دائم وهذا منقطع . وطائفة رأيت أن الوجود متباين ، وهذه اتضمت قسمين . طائفة رأيت أن الوجود المثل يهله المحسات : هو روحاني ، وأنه إما مثل به إرادة البيان والفرقاء صحيح كثيرة من الشريعة متهورة فلا معنى لتبديها .

وطائفة رأيت أنه جسماني ، لكن اعتقدت أن تلك الجسمانية - الموجودة هنالك - عاقبة لهذه الجسمانية لكون هذه بالية وذلك باقية وهذه أيضاً صحيح من الشرع .

ويشبه أن ابن عباس يكون ممن يرى هذا الرأي لأنه روى عنه أنه قال :

ليس في الدنيا من الآخرة إلا أسماء . ويشبه أن يكون هذا الرأي هو لقبين بالخواص

وذلك أن إمكان هذا الرأي : ينفي على أمور ليس فيها تناقض عند الجميع أحدها : أن النفس باقية . والثاني : أنه يلحق عن عودة النفس إلى أجسام آخر الحال الذي يلحق عن عودة تلك الأجسام بعينها .

وذلك : أنه يظهر أن مواد الأجسام التي ههنا توجد متعاقبة ، ومتصلة من جسم إلى جسم ، أمضى : أن المادة الواحدة بعينها توجد لأشخاص كثيرة ، ولأوقات مختلفة ، وأمثال هذه الأجسام ليس يمكن أن توجد كلها بالفعل ، لأن مادتها هي واحدة .

مثال ذلك أن إنساناً مات ، واستحال جسمه إلى التراب ، واستحال ذلك التراب إلى نبات ، فاضطرب إنسان آخر من ذلك النبات ، فكان منه مني حين تولد منه إنسان آخر .

وأما إذا فرضت أجسام أخرى ، وليس تحقق هذه الحال .

والحق في هذه المسألة أن فرض كل إنسان بها هو ما أمضى إليه نظره فيها . بعد أن يكون نظراً لا يقضي إلى إيصال الأصل جملة ، وهو إنكار الوجود جملة فإن هذا النحو من الاعتقاد ، يوجب تكفير صاحبه لكون العلم بوجود هذه الحال للإنسان معلوماً للناس ، بالشرائع والقول .

٢- ومن ذلك قولهم : إن الله تعالى يعلم الكلليات دون الجزئيات (٢١) .
وهذا أيضاً كقولهم صريح ، بل الحق أنه : لا يعزب عن علمه متقال ذرة في
السماوات ، ولا في الأرض .

٣- ومن ذلك قولهم بقدم العالم وأزليته (٢٢) علم يذهب أحد من المسلمين
إلى شيء من هذه المسائل .

(٢١) يذكر ابن رشد عن الإمام الغزالي قوله إن الفلاسفة يرون أنه سبحانه ، لا يعلم الجزئيات ثم
يقول : « ليس الأمر كما توهم عليهم ، بل يرون (الفلاسفة) أنه لا يعلم الجزئيات بالعلم المحدث الذي من
شرطه المحدث بمسئولها إذ كان (علم الله) حقه ما ، لا مطلقاً عنها ، كالحال في العلم المحدث .

وهذا هو خلية التزيم التي يجب أن يعرف به ، فإنه قد اضطر الغزالي إلى أنه عالم بالأشياء ، لأن
صنوعها عنه إنما هو من جهة أنه عالم ، لا من جهة أنه موجود فقط أو موجود بصفة كذا ، بل من جهة
أنه عالم ، كما قال تعالى : (ألا يعلم من خلق) وهو اللطيف الخبير) وقد اضطر الغزالي إلى أنه غير عالم بما
يعلم هو على صفة العلم المحدث ، فواجب أن يكون مثالك للموجودات علم آخر ، لا يكيف ، وهو علم
التقديم سبحانه ، وكيف يمكن أن يتصور أن لشئ من الحكمة ، يرون أن العلم القديم لا يبيح بالجزئيات
وهم يرون أنه صيب الإنجازات في السموات ، والوحى ، وغير ذلك من أنواع الإلهامات .

(٢٢) يقول ابن رشد : وأما مسألة قدم العالم . أوسعونه لأن الاختلاف فيها عدى - بين المتكلمين ،
من الأشعرية ، وبين الحكماء للتقدمين ، يكاد يكون واجباً للاختلاف في النسبة ، وبخاصة عند بعض
القسماء ، وذلك أنهم اتفقوا على أن ههنا ثلاثة أصناف من الموجودات ، طرفان ، وواسطة بين الطرفين
فاتفقوا في تسمية الطرفين ، واتخفوا في الواسطة .

وأما الطرف الواحد ، فهو موجود وجد من شيء غيره وعن شيء ، أمضى عن سبب فاعل ، ومن
مادة ، والزمان متقدم عليه - أمضى على وجوده - وهذه هي حال الأجسام التي يترك تكوينها بالفساد ،
مثل تكون : الماء ، والهواء ، والأرض والحيوان ، والنبات ، وغير ذلك . فهذا الصنف من الموجودات
اتفق الجميع من القسماء ، والأشعرية ، على تسميتها بمحدث .

وأما الطرف المقابل لهذا فهو موجود لم يكن من شيء ، ولا عن شيء ، ولا لنفسه زمان . وهذا أيضاً
اتفق الجميع من الطرفين على تسميته قديماً . وهذا الموجود يترك بالبرهان ، وهو الله تبارك وتعالى ، الذي
هو فاعل الكل ، ووجوده والحافظ له ، سبحانه وتعالى قدره .

وأما الصنف من الموجود ، الذي بين هذين الطرفين ، فهو موجود لم يكن من شيء ، ولا لنفسه

زمان ، ولكنه موجود عن شيء - أمضى عن فاعل - وهذا هو العالم بأسره . والكل منهم متفق على وجود
هذه الصفات الثلاث للعالم ، فإن المتكلمين يسلطون أن الزمان غير متقدم عليه ، أو يلزمهم ذلك ، إذ
الزمان عندهم شيء مقارن للحركات والأجسام ، وهم أيضاً متفقون مع القدماء على أن الزمان للمستقبل
غير متناه ، وكذلك الوجود للمستقبل ، وإنما يخفون في الزمان الماضي ، والوجود الماضي .

فالمتكلمون يرون أنه متناه ، وهذا هو مذهب أفلاطون وشيخه . وأرسطو وفرقه يرون أنه - غير متناه ،
كالحال في المستقبل . وهذا الموجود الآخر ، الأمر فيه بين أنه قد أخذ شيئاً من الوجود الكلي المحدث ،
ومن الوجود القديم . فمن غلب عليه ماله من شبه القديم ، على ماله من شبه المحدث ، سماه قديماً ، ومن
غلب عليه ماله من شبه المحدث ، سماه محدثاً . وهو في الحقيقة ليس محدثاً حقيقياً ، ولا قديماً حقيقياً ، فإن
المحدث الحقيقي قائم ضرورية والتقديم الحقيقي ليس له حقة .

ومهم من سماه محدثاً أزلياً ، وهو أفلاطون وشيخه ، تكون الزمان متناهياً عندهم من الماضي
فالمذهب في العالم ليست تتحدد كل التباين حتى يكفر بعضها أو لا يكفر ، فإن الآراء التي شأنها هذا ،
يجب أن تكون في الغاية من التباين ، أمضى أن تكون متقابلة كما عثر للمتكلمين في هذه المسألة ، أعنى أن
اسم القديم والمحدث في العالم بأسره هو من لتقابلة ، وقد تبين من قولنا . إن الأمر ليس كذلك

وهذا كله مع أن هذه الآراء في العالم ليست على ظاهر الشرع ، فإن ظاهر الشرع إذا تصحح ظهر من
الآيات الواردة ، في الأبناء من إيجاد العالم أن صورته محدثة بالحقيقة ، وأن نفس الوجود والزمان مشعر
من الطرفين - أمضى غير منقطع - وذلك أن قوله تعالى . (وهو الذي خلق السموات والأرض في ستة
أيام ، وكان عرشه على الماء) يقتضى بظاهرة أن وجوداً قبل هذا الوجود - وهو العرش - وديماً

قبل هذا الزمان ، أمضى لتقترب بصورة هذا الوجود ، الذي هو عند حركات الفلك وقوله تعالى (يوم
تبدل الأرض غير الأرض والسموات) يقتضى بظاهرة أن وجوداً ثانياً بعد هذا الوجود ، وقوله تعالى :
(ثم استوى إلى السماء وهي دخان) يقتضى بظاهرة أن السموات والأرض مخلقت من شيء .

والمتكلمون ليسوا في قولهم أيضاً في العالم ، على ظاهر الشرع ، بل تناولوا فإنه ليس في الشرع أن
لقد كان موجوداً مع الدم المحض ، ولا يوجد هذا في نفس أبداً ، فكيف يتصور في تأويل المتكلمين في هذه
الآيات ، أن الإصح انعقد عليه ؟ والظاهر الذي قلناه من الشرع في وجود العالم ، قد قال به فرقة من
الحكماء ويشبه أن يكون المختلفون في هذه المسائل العربية إما مصيبين ، ماجورين . وإنما عطفين منسويين
فإن التصديق بالشئ من قول الدليل القائم في النفس ، هو شيء اضطراري ، لا اختياري ، أمضى أنه
ليس لنا أن صدق ، أو لا يصدق كما لنا أن نؤمن أولاً نؤمن ، وإذا كان من شرط التكليف الاختيار ،

٤ - وأما ما وراء ذلك من تعييب الصفات ، وتوهم : إنه علم بالذات لا يعلم ذاته على الذات ، وما يجري مجراه ، فذهيهم فيها : قريب من مذهب المعتزلة ، ولا يجب تكفير المعتزلة بمثل ذلك .

وقد ذكرنا في كتاب : « فصل التفرقة بين الإسلام والزندقة » ما يبين به فساد رأى من يسارع إلى التكفير في كل ما يخالف مذهبه .

٥ - وأما السياسات : فمجموع كلامهم فيها يرجع إلى الحكم المصلحية ، المتعلقة بالأمر الدنيوية ، والإيالة السلطانية . وإنما أخذوها من كتب الله المترلة على الأنبياء ، ومن الحكم الماثورة عن سلف الأنبياء .

٦ - وأما الخلقية فجميع كلامهم فيها يرجع إلى حصر صفات النفس وأخلاقها ، وذكر أجناسها ، وأنواعها ، وكيفية معالجتها . ومجاهدتها . وإنما أخذوها من كلام الصوفية ، وهم المتأهلون ، المشهورون على ذكر الله ، تعالى ، وعلى مخالفة الهوى ، وسلوك الطريق إلى الله تعالى ، بالإعراض عن ملاذ الدنيا . وقد انكشف لهم في مجاهدتهم من أخلاق النفس وعيوبها ، وآفات أعمالها ما صرحوا بها ، فأخذها الفلاسفة ، ومرجوها بكلامهم ، توسلاً بالتحمل بها إلى ترويح باطلهم .

ولقد كان في عصرهم ، بل في كل عصر ، جماعة من المتألمين ، لا يجمل

فالصديق بالخطأ من قبل شعبة عرضت له ، إذا كان من أهل العلم مطبور ، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام :

« إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران ، وإن أخطأ فله أجر » .

وأى حاكم أحظم من الذي يحكم على الوجود بأنه كذا ، أو ليس بكذا ؟ وهؤلاء الحكام هم العلماء ، خصوم الله بالتأويل .

الله ، سبحانه العالم عنهم ، فإنهم أوتاد الأرض ، ببركاتهم تنزل الرحمة إلى أهل الأرض ، كما ورد في الخبر حيث قال عليه السلام : « بهم تحطرون ، وبهم ترزقون ، ومنهم كان أصحاب الكهف » .

وكانوا في سالف الأزمنة ، حل ما نطق به القرآن .

فتولد من مزجهم كلام النبوة وكلام الصوفية ، بكتهم آفتان :

١ - آفة في حق القابل .

٢ - آفة في حق الراد .

٣ - أما الآفة التي في حق الراد فعظيمة ، إذ ظنت طائفة من الضعفاء أن

ذلك الكلام إذا كان مدوناً في كتبهم ، وممزوجاً بإطلهم ينهى أن يهجر ولا يذكر ، بل ينكر على كل من يذكره ، إذ لم يسمعه أولاً إلا منهم ، فسبق إلى عقولهم الضعيفة أنه باطل ، لأن قائله مبطل ، كالتى يسمع من التصرفي قول : « لا إله إلا الله ، عيسى رسول الله » فينكره ويقول : « هذا كلام التصرفي » ولا يتوقف ريثاً يتأمل أن التصرفي : كار ، باعتبار هذا القول ، أو اعتبار إنكاره نبوة محمد - عليه السلام - فإن لم يكن كامراً إلا باعتبار إنكاره ، فلا ينسى أن يخالف في غير ما هو به كافر ، مما هو حق في نفسه ، وإن كان أيضاً حقاً عنده . وهذه عادة ضعفاء العقول : يعرفون الحق بالرجال ، لا الرجال بالحق .

والعاقل يقتدى بقول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، حيث

قال : « لا تعرف الحق بالرجال ، بل اعرف الحق ، تعرف أهله » .

والعاقل يعرف الحق ثم ينظر في نفس القول ، فإن كان حقاً قبله سواء كان

قائله مبطلاً ، أو حقاً ، بل ربما يحرص على انتزاع الحق من أقاويل أهل

الضلال ، عالمًا بأن معدن الذهب : الرغام^(٢٣) . ولا بأس على الصراف إن أدخل يده في كيس القلاب ، وانترج الأبريز الخالص ، من الزيف والبهرج ، مها كان واثقًا ببصيرته . وإنما يزجر عن معاملة القلاب الفروى ، دون الصيرفي البصر ، ويمنع من ساحل البحر الأخرق دون السباح الخادق . ويصد عن مس الحية الصبي ، دون المعزم البارح .

ولعمري ، لما غلب على أكثر الخلق ظنهم بأنفسهم الحداقة والبراعة ، وكحال العقل ، في تمييز الحق عن الباطل ، والهدى عن الضلالة ، وجب حسم الباب في زجر الكافة عن مطالعة كتب أهل الضلالة ما أمكن ؛ إذ لا يسلمون من الآفة الثانية التي ستذكرها ، وإن سلموا عن الآفة التي ذكرناها .

ولقد اعترض على بعض الكلمات المبثوثة في تصانيفنا ، في أسرار علوم الدين ، طائفة من الدين لم تستحكم في العلوم سرائرهم ، ولم تمتنع إلى أقصى غايات المداهب بصائرهم .

وزعمت : أن تلك الكلمات من كلام « الأوائل^(٢٤) » ، مع أن بعضها من مولدات الخواطر ، ولا يبعد أن يقع الخاطر على الخاطر .

وبعضها يوجد في الكتب الشرعية .

وأكثرها موجود معناه في كتب الصوفية .

وهب أنها لم توجد إلا في كتبهم ، فإذا كان ذلك الكلام معقولا في نفسه مؤيدا بالبرهان ، ولم يكن على مخالفة الكتاب والسنة ، فلم ينبغي أن يهجر ، أو ينكر ؟

(٢٣) الرغام : الزراب

(٢٤) يقصد به الأوائل ، الفلاسفة القدماء .

قلو ضحا هذا الباب ، وتطرقنا إلى أن نهجر كل حق سبق إليه خاطر مبطل لزمنا أن نهجر كثيرا من الحق ، ولزمنا أن نهجر جملة آيات من القرآن ، وأخبار الرسول ، وحكايات السلف ، وكلمات الحكماء ، والصوفية : لأن صاحب كتاب « إخوان الصفا » أوردها في كتابه ، مستشهدا بها ومستدرجا قلوب الحق بواسطة إلى باعسه ، ويتداعى ذلك إلى أن يستفرح المطلقون الحق من أيدينا ، بإيداعهم إياه في كتبهم .

وأقل درجات العالم : أن يميز عن العامي الضمير^(٢٥) ، فلا يعاف العسل وإن وحده في محجمة الحمام ، ويتحقق أن المحجمة لا تعبر ذات العسل ، فإن مرة الطمع منه ، مسية على جهل عامي ، منشؤه أن المحجمة إنما صنعت للدم المستقدر ، فيظن أن الدم مستقدر لكونه في المحجمة ، ولا يدري أنه مستقدر لصفة في ذاته ، فإذا عدت هذه الصفة في العسل ، فكونه في ظرفه ، لا يكسبه تلك الصفة ، فلا ينبغي أن يوجب له الاستقدار .

وهذا وهم باطل ، وهو غالب على أكثر الخلق ، فها نسبت الكلام ، وأسندته إلى قائل حس فيه اعتقادهم ، قبلوه ، وإن كان باطلا . وإن أسندته إلى من ساء فيه اعتقادهم ، ردوه ، وإن كان حقا .

فأدأ يعرفون الحق بالرجال ، ولا يعرفون الرجال بالحق ، وهو غاية

الضلال !

هذه آفة الرد .

٢ - آفة القبول : فإن من نظر في كتبهم : كهتوان الصفا ، وغيره ، فرأى

ما مزجوه بكلامهم ، من الحكم النبوية ، والكلمات الصوفية ، ربما

(٢٥) رجل حسر : لم يجر الأمور

أنكر أحمد بن حنبل على الحارث المحاسبي^(٢٦) ، رحمها الله ، تصنيفه في الرد على المعتزلة ، فقال الحارث :
الرد على البدعة فرض .
فقال أحمد :

نعم ، ولكن حكيت شيعتهم أولاً ، ثم أجبت عنها ، بيم تأمن أن يطالع الشية من يعلق ذلك بفهمه ، ولا يلتفت إلى الجواب ، أرينظر إلى الجواب ولا يفهم كنهه ؟

وما ذكره أحمد حق ، ولكن في شبهة لم تنتشر ولم تشتهر ، فأما إذا انتشرت فالجواب عنها واجب ، ولا يمكن الجواب عنها إلا بعد الحكاية .

نعم . . . ينبغي ألا يتكلف لهم شبهة ، ولم أتكلف أنا ذلك ، بل كنت قد سمعت تلك الشبهة من واحد من أصحابي المختلفين إليّ ، بعد أن كان قد التحق بهم ، وانتحل مذهبهم ، وحكى أنهم يصحكون على تصانيف المصنفين ، في الرد عليهم ، فإنهم لم يفهموا بعد حجبتهم . وذكر تلك الحجة ، وحكاها عنهم ، فلم أرض لنفسي أن يظن بي الغفلة عن أصل حجبتهم ؛ فذلك أوردتها ولا أن يظن بي أني وإن سمعتها فلم أفهمها ، فلذلك قررتها .

(٢٦) يقول عنه القشيري : حديم النظر في زمانه : علماً ، وورعاً ومعاملة وحلاً ، بصري الأصل مات به بغداد سنة ثلاث وأربعين ومائتين . قال أبو عبد الله بن حبيب القسوي بحسنة من شيوخنا والباكون سلموا لهم حالهم : الحارث بن أسد المحاسبي والحليد بن محمد أبو محمد رزم وأبو العباس بن عطاء وعمر بن عثمان الملكي . لأنهم جمعوا بين العلم والحقائق .

وما يروى عنه : قوله من صحح باطنه بالمراتب والإخلاص ، زين الله ظاهره بالمجاهدة واتباع السنة وقد قلب كتباً كثيرة ، يوجد بعضها مخطوطاً في دار الكتب المصرية ولدى مكتبة الجماعة .
وأما ما عرف من كتب : كتاب الرماية لحقوق الله وقد طبعته الآمنة مرحوت محبت وطبعناه في القاهرة طبعة متفنة . وقد طبع له كتاب التوهم بالقاهرة .

والانصداد أني قررت شيعتهم إلى أقصى الإمكان ، ثم أظهرت فسادها بغاية البرهان .

والحاصل : أنه لا حاصل عند هؤلاء ، ولا طائل لكلامهم .
ولولا سوء نصرة الصديق الجاهل ، لما انتهت البدعة - مع ضحضا - إلى هذه الدرجة .

ولكن شدة التعصب ، دعت المذابين عن الحق إلى تطويل التراع معهم في مقدمات كلامهم ، وإلى مجاحدتهم في كل ما نطقوا به فجاخصهم في دعواهم ، والحاجة إلى التعليم ، والمعلم ودعواهم أنه : لا يصلح كل معلم ، بل لابد من معلم معصوم . وظهرت حجبتهم في إظهار الحاجة إلى التعليم والمعلم ، وضعف قول المكبرين في مقابلته ، فاغتر بذلك جماعة ، وظنوا أن ذلك من قوة مذهبهم وضعف مذهب المخالفين لهم ولم يفهموا أن ذلك لضعف ناصر الحق ، وجهله بطريقه ؛ بل الصواب الاعتراف بالحاجة إلى العلم ، وأنه لابد أن يكون المعلم معصوماً ، ولكن معلماً المعصوم هو : محمد ﷺ .

فإذا قالوا : هو ميت .

فتقول : فعلمكم خائب

فإذا قالوا : معلماً علم الدعاة ، وبشهم في البلاد ، وهو يتنظر مراجعتهم إن اختلفوا ، أو أشكل عليهم مشكل .

فتقول : ومعلمنا قد علم الدعاة ، وبشهم في البلاد ، وأكمل التعليم ؛ إذ قال الله تعالى : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ﴾ وبعد كمال التعليم ، لا يضر موت المعلم ، كما لا تضر غيبته .

فبي قولهم : كيف تحكون فيما لم تسمعه ؟ أبالنص ؟ ولم تسمعه ؟ أم

بالاجتهاد والرأى ، وهو مظنة الخلاف ؟

فتقول : ففعل ما فعله معاذ ، إذ بعثه رسول الله ، عليه الصلاة والسلام ، إلى اليمن (٢٧) . أى تحكم بالنصر ، عند وجود النصر ، وبالاجتهاد عند عدمه ، بل كما يفعله دعواتهم إذا عدوا عن الإمام إلى أقاصى البلاد ، إذ لا يمكنهم أن يحكموا بالنصر . فإن النصوص المتناهية لا تستوعب الوقائع غير المتناهية ، ولا يمكنه الرجوع في كل واقعة إلى بلدة الإمام ، وإلى أن يقطع المسافة ويرجع فيكون المستفتى قد مات ، وفات الانتفاع بالرجوع .

فمن أشكلت عليه القبلة ، ليس له طريق إلا أن يصل بالاجتهاد ، إذ لو سافر إلى بلدة الإمام لمعرفة القبلة ، لغات وقت الصلاة ، إذن جازت الصلاة إلى غير القبلة بناء على الظن . ويقال : « إن الخطئ في الاجتهاد له أجر واحد وللمصيب أجران » فكذلك في جميع المجتهدات .

وكذلك أمر صرف الزكاة إلى الفقير . وربما يظنه فقيراً باجتهاده ، وهو غنى باطنياً بإخفاء ماله . ولا يكون مؤاخداً به وإن أخطأ لأنه لم يؤخذ إلا بموجب ظنه .

(٢٧) حيناً أراد رسول الله ﷺ أن يبعث معاذاً كاتباً باليمن قال له :

بم تفتى يا معاذ ؟

يقال : بما في كتاب الله .

قال : فإن لم تجد ؟

قال : بما في سنة رسول الله

قال : فإن لم تجد ؟

قال : أجتهد رأى .

فقال رسول الله : الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله لما يحب رسول الله . .

فإن قال : ظن مخالفه كظنه .

فتقول : هو مأمور باتباع ظن نفسه ، كاجتهاد في القبلة ، يتبع ظن نفسه ، وإن مخالفه غيره .

وإن قال : فالقول يتبع أبا حنيفة ، والشافعى - رحمهما الله - أم غيرها ؟ .
فأقول . فالقول في القبلة عند الاشتباه ، إذ اختلف عليه المجتهدون كيف يصنع ؟

فيقول : له مع نفسه اجتهاد في معرفة الأفضل الأعم بدلائل القبلة ، فيتبع ذلك الاجتهاد ، فكذلك في المذاهب .

فرد الخلق إلى الاجتهاد - ضرورة - الأنبياء والأئمة مع العلم أنهم قد بخطئون بل قال رسول الله عليه الصلاة والسلام : « أنا أحكم بالظاهر ، والله يتولى السرائر » أى ، أنا أحكم بظن الحاصل من قول الشهود ، وربما أخطأ فيه ، ولا سئل إلى الأمن من الخطأ للأنبياء في مثل هذه المجتهدات فكيف نطمع في ذلك ؟
ولهم ها هنا سؤالان .

أحدهما قولهم : هذا وإن صح في المجتهدات ، فلا يصح في قواعد العقائد ، إذ الخطئ غير معذور ، فكيف السبيل إليه ؟

فأقول : قواعد العقائد ، يشتمل عليها الكتاب والسنة ، وما وراء ذلك من التمهيل ، والمتنازع فيه يُعرف الحق فيه بالوزن بالقسطاس المستقيم وهى الموازين التى ذكرها الله تعالى في كتابه ، وهى خمسة ، ذكرتها في كتاب « القسطاس المستقيم » .

فإن قال : خصومك يخالفون في ذلك الميزان

خصمك وأكثر الخصوم يخالفونك ، ولا فرق بينك وبينهم ؟
وهذا هو سؤالهم الثاني .

فأقول : هذا أولاً يتقلب عليك ، فإنك إذا دعوت هذا المتحير إلى نفسك فيقول المتحير : يم صرت أولى من مخالفك ، وأكثر أهل العلم يخالفونك فليت شعري ! بماذا نجيب ؟ أنجيب بأن تقول : إمامي منصوص عليه ، فمن صدقت في دعوى النص ، وهو لم يسمع النص من الرسول ؟ وإنما يسمع دعواك مع تطابق أهل العلم على اعتراضك وتكذيبك .

ثم هب أنه سلم لك النص ، فإن كان متحيراً في أصل النبوة ، فقال : هب أن إمامك يدلي بمعجزة عيسى فيقول : الدليل على صدق ، أفي أحبي أباك فأحياء ، فناطقني بأنه محق ، فبماذا أعلم صدقه ؟ ولم يعرف كافة الخلق صدق عيسى بهذه المعجزة ، بل عليه من الأسئلة المشككة ما لا يدفع إلا بدقيق النظر العقل ، والنظر العقلي لا يوثق به عندك ، ولا يعرف دلالة المعجزة على المصدق ما لم يعرف أن الله لا يضل عباده - وسؤال الإضلال وعسر تحرير الجواب عنه مشهور - فبماذا تدفع جميع ذلك ؟ ولم يكون إمامك أولى بالثبوت من مخالفه ؟ فيرجع إلى الأدلة النظرية التي ينكرها ، ونخصمه يدلي بمثل تلك الأدلة ، وأوضح منها ، وهذا السؤال قد انقلب عليهم انقلاباً عظيماً ، ولو اجتمع أولهم وأخروهم على أن يحميوا جواباً ، لم يقدرُوا عليه .

وإنما نشأ الفساد من جماعة من الصفة ، ناظروهم ، فلم يشتغلوا بالقلب بل بالجواب ، وذلك مما يطول فيه الكلام ، ولا يسبق سريعاً إلى الإيهام ، فلا يصلح للإحكام .

فإن قال قائل : فهذا هو القلب ، فهل عمه جواب ؟

فأقول : لا يتصور أن يفهم ذلك الميزان ثم يخالف فيه أهل التعليم ، لأنى استخرجته من القرآن وتعلمته منه .

ولا يخالف فيه أهل المنطق : لأنه موافق لما شرطوه في المنطق ، غير مخالف له .

ولا يخالف فيه المتكلم : لأنه موافق لما يذكره في أدلة النظريات ، وبه يعرف الحق في الكلاميات .

فإن قال : فإن كان في يدك مثل هذا الميزان فلم لا ترفع الخلاف بين الخلق ؟ فأقول : لو أصغوا إلى لرفضت الخلاف بينهم .

وذكرت طريق رفع الخلاف في كتاب « القسطاس المستقيم » فتأمله ، لتعلم أنه حق ، وأنه يرفع الخلاف قطعاً لو أصغوا ، ولا يصغون بأجمعهم .

بل قد أصغى إلى طائفة ، فرفضت الخلاف بينهم ، وإمامك يريد رفع الخلاف بينهم مع عدم إصغائهم ، فلم لم يرفع إلى الآن ؟

ولم لم يرفع على رضى الله عنه ، وهو رأس الأئمة ؟ أو يدعى أنه يقدر على حمل كافتهم على الإصغاء قهراً ، فلم لم يحملهم إلى الآن ؟

ولأى يوم أجله ؟ وهل حصل بين الخلق ، بسبب دعوته إلا زيادة خلاف وزيادة مخالف ؟ نعم ! كان يحشى من الخلاف نوع من الضرر ولا ينتهى إلى سفك الدماء ، وتخريب البلاد ، وإيتام الأولاد ، وقطع الطرق ، والإغارة على الأموال ، وقد حدث في العالم من بركات رفضكم الخلاف ما لم يكن بمثله عهد .

فإن قال : ادعيت أنك ترفع الخلاف بين الخلق ، ولكن المتحير بين المذاهب المتعارضة ، والاختلافات المتعاقبة ، ولم يزمه الإصغاء إليك دون

فأقول : نعم اجوابه أن التحير لو قال أنا متحير ، ولم يعنى المسألة التي هي متحير فيها ، يقال له : أنت كمريض يقول : أنا مريض ، ولا يذكر عين مرضه ، ويطلب علاجه . فيقال له ليس في الوجود علاج للمرض المطلق ، بل لمرض معين : من صداع ، أو إسهال ، أو غيرهما ، فكذلك التحير ينبغي أن يعين ما هو متحير فيه ، فإن عين المسألة عرفته الحق فيها بالوزن بالموازن الخمسة التي لا يفهمها أحد إلا ويعترف بأنه الميزان الحق ، الذي يوثق بكل ما يورن به فيفهم الميزان ، ويفهم أيضاً صحة الوزن ، كما يفهم متعلم الحساب ، نفس الحساب وكون المهاسب المعلم عالماً بالحساب ، وصادقاً فيه وقد أوضحت ذلك في كتاب « القسطاس المستقيم » في مقدار عشرين ورقة ، فليتأمل .

وليس المقصود الآن بيان فساد مذهبهم فقد ذكرت ذلك في كتاب « المستظهرى » أولاً .

وفي كتاب « حجة البيان » ثانياً ، وهو جواب كلام لهم عرض على بغداد وفي كتاب : « مفصل الخلاف » الذي هو اثنا عشر فصلاً ، ثالثاً وهو جواب كلام عرض على بهمدان .

وفي كتاب « الدرر » المرقوم « بالجداول » رابعاً ، وهو من ركيك كلامهم الذي عرض على بطوس .

وفي كتاب « القسطاس المستقيم » خامساً ، وهو كتاب مستقل بنفسه ، مقصوده : بيان ميزان العلوم ، وإظهار الاستغناء عن الإمام المعصوم ، لمن أحاط به .

بل المقصود : أن هؤلاء ليس معهم شيء من الشفاء المنجى من ظلمات

الآراء بل هم من عجزهم عن إقامة البرهان على تعبير الإمام ، ظلماً حاربتهم فصدقناهم في الحاجة إلى التعليم ، وإلى المعلم المعصوم ، وأنه الذي عيوه ، ثم سألبناهم عن العلم الذي تعلموه من هذا المعصوم . وعرضنا عليهم إشكالات علم يفهموها فضلاً عن القيام بجلها ! فلما عجزوا أحالوا عن الإمام الغائب ، وقالوا : إنه لا بد من التنفر إليه .

والمعجب أنهم صبروا عمرهم في طلب العلم ، وفي التسجع بالظفر به ولم يتعلموا منه شيئاً أصلاً ، كالتضج بالنحاسة ، يتعب في طب الماء حتى إذا وجده لم يستعمله ، ووجد متضمخاً بالخبائث .

ومنهم من ادعى شيئاً من علمهم ، فكان حاصل ما ذكره شيئاً من ركيك فلسفة فيثاغورس ، وهو رحل من قدماء الأوائل ، ومذهبه أرك مذاهب الفلاسفة ، وقد رد عليه أرسطاطاليس ، بل استرك كلامه ، واسترذله وهو المحكى في كتاب « إخوان الصفا » وهو على التحقيق حشو الفلسفة .

فالمعجب ممن يتعب طول العمر ، في طلب العلم ، ثم يقنع بمثل ذلك العلم الركيك المستغث ، ويظن بأنه ظفر بأقصى مقاصد العلوم !

فهؤلاء أيضاً جريتناهم ، وسبرنا ظاهريهم ، وباطنيهم ، فرجع حاصلهم إلى استدراج العوام ، وضحفاء العقول ، ببيان الحاجة إلى المعلم ، ومجادلتهم في إنكارهم الحاجة إلى التعليم ، بكلام قوى ، معصم ، حتى إذا ساعدتهم على الحاجة إلى المعلم مساعد وقال : هات علمه ، وأعدنا من تعليمه ، وقف وقال : الآن إذا سلمت لي هذا فاطلبه ، فإنما غرضي هذا القدر فقط إذ علم أنه لو زاد على ذلك لاقتضح ، ولعجز عن حل أدنى الإشكالات ، بل صجر عن فهمه ، فضلاً عن جوابه .

والشيل (٣٠٦) ، وأبي يزيد البسطامي (٣١١) ، قدس الله أرواحهم وغير ذلك

من كلام مشايخهم ؛ حتى اطلعت على كنه مقاصدهم العلمية ، وجمعت ما يمكن أن يحصل من طريقهم بالتعلم والسامع ؛ فظهر لي أن أخص خواصهم مالا يمكن الوصول إليه بالتعلم ، بل بالذوق ، والاطمئنان وتبدل الصفات .

وكم من الفرق بين أنا يعلم - حدد - الصفحة ، و حد الشيخ ، وأسبابها وشروطها ، وبين أن يكون صحيحاً وشبان ، وبين أن يعرف حد السكر ، وأنه صارة عن حالة تحصل من استيلاء أجرة تصاعد من المدة على مبادئ الفكر ، وبين أن يكون سكران ، بل السكران لا يعرف حد السكر وعلمه وهو سكران ، وما معه بين علمه من شيء ، والصاحي يعرف حد السكر وأركانه ، وما معه من السكر شيء .

وقال : مجلسها هذا يزيد أسرار الكعب والشفة ، وعلقت هذا شديد بحيث رسول الله ﷺ (من الرسالة الأخيرة) .

(٣٠٦) يتبادر اليك والفتا وأضله من أسروته صاحب الجبهة ومن له صوره ، وكان شيخ وفقه حلالاً وطوراً وطناً ، مالكي للمذهب ماشياً وغائبين سعة ، وبات مع أريح ولاجته وثقافته وفقهه (٣١١) - (٣١٢)

وكان النسل يزاو دسل رمضان حد فوف حد من عامره ويقول هذا شعر عظمه له ، فانا أول من عظمه (٣١١) كان من كبار راجعي المدارس ، قيل إنه مات سنة إحدى وستين ومائتين ، وقيل أريح ولاجته ومائتين

ودعت مرة فزياره رجل كان مقصوداً شهيراً بالوسط ، لما خرج الرجل من بيته ودخل المسجد رمى بيده على الأتية المصروف أوزيد ولم يعلم عليه وقال : هذا غير مأثور على أمير من أمراء رسول الله ﷺ فكيف يمكن أن يكون مأثوراً على سابعهم ؟

ومن كلامه : لو نظرت إلى رجل أصل من الكرامات حتى يرقق في الهواء فلا تتفوا به حتى تنظروا كيف يجوه عند الأمر واليوس وسط الملبود وأداء الترسية وانظر لرسالة اللبثية) .

هذه حقيقة حالهم ، فأخبرهم بحلهم (٣١٨) فلا يخبرناهم بنفسنا اليد عنهم .

طرق الصوفية :

ثم إن أنا تعلم من هذه العلوم أقيمت بحق على طريق الصوفية ، وعلقت أن طريقهم إنما تم بهم وصل .

وكان حاصل علمهم قطع حجابات النفس ، والتتوه من أغلاها المذمومة ، وصحتها الجيبة ؛ حتى يتوصل بها إلى تخليق القلب عن غير الله تعالى ، وتخليق يذكر الله .

وكان العلم أسر على من العمل ، فابتدأت بتحصيل علمهم ، من معالجة كتبهم ، مثل : قوت القلوب ، لأبي طالب المكي رحمه الله ، وكتب الحارث الخاصي ، والشوقيات المأثورة عن الجليل (٣١٩) .

(٣١٨) نسخهم

(٣١٩) سيد هذه المصنفات وبأسهم ، أسلف من جازيد ، وسنوه ورواه بالمرق وأبوه كان يتبع الإصباح فقال له القرابري ، وكان فقيهاً على مذهب أبي حنيفة وكان يفتي في حلقته بجمعه وهو ابن عشرين سنة ، مات سنة سبع وخمسين ومائتين ٣١٧

قال الروادري : سمعت السيد يقول لرسول ذكر المربة وقال أهل المربة بالله يصلون إلى ترك الحركات من باب البر والتعرب إلى الله ثم وصل فقلت السيد إن هذا قول قوم يكلموا باستماع الأفعال وهو عتدي عتيقة والذي يترن ويرن أسس حلالاً من الذي يقول هذا فإن المارين بالله تعالى أصوا بالأفعال من الله تعالى وإليه سمو فيها ، ولو سمت ألسن عام لم أنقص من أعمال البر ذرة إلا أن حال من هو ؟

وقال السيد العزلة كجارية ، روى عن أبي بكر بن محمد بن عبد الصلوات والصلوات . وقال من لم يحفظ القرآن ، لم يكن خليفة . لا يقتضي به في هذه الأثر ، لأن علمنا هذا صلب بالكتاب والسنة

والطبيب في حالة المرض ، يعرف حد الصحة ، وأسبابها ، وأدويتها وهو
ماقد الصحة .

كذلك فرق بين أن تعرف حقيقة الزهد وشروطها ، وأسبابها ، وبين أن
يكون حالك الزهد - مع عزوف النفس عن الدنيا .

فصحت يقيناً : أنهم أرباب الأحوال ، لأصحاب الأقوال . وأن ما يمكن
تحصيله بطريق العلم ، فقد حصته ، ولم يبق إلا مالا سبيل إليه بالسماع
والتعلم ، بل بالنوق والسلوك .

وكان قد حصل معي - من العلوم التي مارستها ، والمسالك التي سلكتها في
التفتيش عن صنق العلوم الشرعية ، والعقلية - إيمان يقين بالله تعالى وبالنبوة ،
وباليوم الآخر !

فهذه الأصول الثلاثة من الإيمان ، كانت قد رسخت في نفسي لا بدليل
معين محرم ، بل بأسباب ، وقرائن ، وتجارب لا تدخل تحت المحصر تفاصيلها .
وكان قد ظهر عندي أنه لا مطمع في سعادة الآخرة إلا بالتقوى ، وكف
النفس عن الهوى . وأن رأس ذلك كله : قطع علاقة القلب عن الدنيا ،
بالتجافي عن دار الغرور ، والإبانة إلى دار الخلود ، والإقبال بكنه المهمة على الله
تعالى ، وأن ذلك لا يتم إلا بالإعراض عن الجاه ، والمال ، والحرب من الشواغل
والعلائق .

ثم لاحظت أحوالي ، فإذا أنا منغمس في العلائق ، وقد أهدت في من
الجوانب .

ولاحظت أحوالي - وأحسنها التدريس والتعليم - فإذا أنا فيها مقبل على علوم
غير مهمة ، ولا نافعة في طريق الآخرة . ثم تفكرت في نيتي في التدريس ، فإذا

١٤ هي غير خالصة لوجه الله تعالى ، بل باعثها ومحركها طلب الجاه ، وانتشار
الصيت ، فتبقت أني على شفا جرف هار ، وآني أشفيت على النار ، إن لم
أشتغل بتلافى الأحوال .

فلم أزل أفكر به مدة . وأنا بعد على مقام الاختيار ، أصمم لعزم على
الخروج من بغداد . ومعارفة تلك الأحوال يوماً ، وأحل العزم يوماً وأقدم فيه
رجلاً وأؤحر عنه أخرى لا تصدق لي رغبة في طلب الآخرة بكرة إلا وتحمل
عليها جند الشهوة حملة ، ففترتها عشية ، فصارت شهوات الدنيا تجاذبني
سلاسلها إلى المقام ، وتمادى الإيمان بنادى : الرحيل الرحيل ، فلم يبق من
العمر إلا قليل ، وبين يديك السفر الطويل ، وجميع ما أنت فيه من العم
والعمل ، رياء ونحس . فإن لم تستعد الآن للآخرة . فمتى تستعد ؟ وإن لم تقطع
الآن هذه العلائق متى تقطع ؟ عند ذلك تبيحت الداعية ، ويحزم العزم على
الحرب والفرار !

ثم يعود الشيطان ويقول : هذه حال عارضة ، إياك أن تطلووعها ، فإنها
سريعة الزوال ، فإن أذعنت لها ، وتركت هذا الجاه العريض ، والشأن المنطوم
أحلى عن التكدير والتعويض ، والأمر المسلم الصافي من متارعة الخصوم ، ربما
التفتت إليه نفسك ولا يتيسر لك المعاودة .

فلم أزل أتردد بين تحديب شهوات الدنيا ، ودواعي الآخرة ، قريباً من ستة
أشهر أو لها : رحب ، ستة ثمان وثمانين وأربعمائة (٣٢) وفي هذا الشهر حاووز الأمر حد
لاختيار إلى الاضطراب : إذ أقفل لله على لساني حتى اعتقل عن التدريس ،
فكنت أجاهد معي أن أدرس يوماً واحداً تطيباً لقلوب المختلفة إلى ، فكان

(٣٢) في نسخة أخرى : ست وثمانين وأربعمائة .

وقوت الأبطال ، ترغصاً بأن مال العراق مرصد للمصالح ، لكونه وفقاً على المسلمين ، فلم أر في العالم مالا يأخذه العالم لعباله ، أصح منه .

ثم دخلت الشام ، وألفت به قريباً من ستين ، لاشغل لي إلا العزلة ، والخلوة والرياضة ، والجاهدة : اشتغلاً بتركية النفس ، وتهذيب الأخلاق ، ونصفية القلب لذكر الله تعالى ، كما كنت حصلت من علم الصوفية . فكنيت أعتكف مدة في مسجد دمشق ، أصعد منارة المسجد طول النهار ، وأغلق بابها عن نفسي .

ثم رحلت منها إلى بيت المقدس ، أدخل كل يوم الصخرة ، وأغلق بابها على نفسي .

ثم تحركت في داعية فريضة الحج ، والاستمئاد من بركات مكة ، والمدينة وزيارة رسول الله ، ﷺ ، بعد الفراغ من زيارة الخليل ، صلوات الله عليه ، فسرت إلى احجاز .

ثم جذبتني الهمم ، ودعوات الأطفال إلى الوطن ، فعادته ، بعد أن كنت أبعد الخلق عن الرجوع إليه .

فأثرت العزلة به أيضاً ، حرصاً على الخنوة ، ونصفية القلب للذكر . وكانت حوادث الزمان ، ومهات العيال وضرورات المعاش ، تغير في وجه المراد ، وتشوش صفوة الخلوة ، وكان لا يصفو لي الحال إلا في أوقات متفرقة ، لكنني مع ذلك لا أقطع طمعي منها ، فتدفعني عنها العوائق ، وأعود إليها . ودمت على ذلك مقدار عشر سنين .

وانكشف لي في أثناء هذه الخنوت أمور لا يمكن إحصاؤها واستقصاؤها والقدر الذي أذكره ليسمع به : أتى علمت يقيناً أن الصوفية هم السالكون

نصفه الصور المقدم من المصاحف

لاينطق لساني بكلمة واحدة ، ولا أستطيعها البتة ، حتى أورش ، إنه العقلة في اللسان ، حزناً في القلب ، بطلت معه قوة الهضم ومراة الطعام والشراب ، فكان لايباغ لي ثريد ، ولاينضم لي لقمة ، ونعمدي إلى صعب القوى حتى قطع الأطباء طمعمهم من العلاج ، وقالوا :

هذا أمر نزل بالقلب ، ومنه سرى إلى المزاج ، فلا سبيل إليه بالعلاج إلا بأن يتروح السر عن الهم الملم !

ثم لما أحسست بعجزى ، وسقط بالكلية اختياري التعمت إلى الله تعالى ، التجهاء المضطر ، الذي لا حيلة له . فأجانبني الذي يجيب المفطر إذا دعاه وسهل على قلبي الإعراض عن الجاه ، والمال والأولاد والأصحاب .

وأصهرت عزم الخروج إلى مكة ، وأنا أدبر في معنى سير الشام ، حذراً أن يطلع الخليفة ، وجملة الأصحاب ، على عزمي في المقام بالشام ، فتلطفت بلطائف الخليل في الخروج من بغداد ، على عزم ألا أهاودها أبداً ، واستهدمت للأئمة أهل العراق كافة ، إذ لم يكن فيهم من يجوز أن يكون الإعراض عما كنت فيه سبياً دينياً ، إذ ظنوا أن ذلك هو المنصب الأعلى في الدين . وكان ذلك مبلغهم من العلم .

ثم ارتبك الناس في الاستنباطات ، وظن من بعد عن العراق ، أن ذلك كان لاستشمار من جهة الولاية ، وأما من قرب من الولاية ، وكان يشاهد إلحاحهم في التعلق بي ، والانكباب على ، وإعراضهم عنهم . وعن الالتفات إلى قولهم ، فيقولون : هذا أمر سماوي . وليس له سبب ، إلا عين أصابت أهل الإسلام ، وزمرة العلم .

ففارتت بغداد ، وفرقت ما كان معي من المال ، ولم أدخر إلا قدر الكفاف

لطريق الله تعالى خاصة ، وأن سيرتهم أحسن السير ، وطريقهم أصوب الطرق ، وأخلاقهم أزكى الأخلاق . بل لو جمع عقل العقلاء ، وحكمة الحكماء وعلم الواقفين على أسرار الشرح من السماء ، لبعثوا شيئاً من سيرهم .

وأخلاقهم ، ويبدلوه بما هو خير منه ، لم يحدوا إليه سبيلاً ، فإن جميع حركاتهم وسكناتهم ، في ظاهريهم وباطنيهم ، مقتبسة من نور مشكاة النور ، وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به .

وبالجملة : فإذا يقول الفاتلون في طريقة طهارتها - وهي أول شروطها - تطهير القلب بالكلية عما سوى الله تعالى .

ومفتاحها - الجارى منها مجرى التحريم من الصلاة - استغراق القلب بالكلية بذكر الله .

وآخرها الفناء بالكلية في الله .

وهذا آخرها ، بالإضافة إلى ما يكاد يدخل تحت الاحتيال والكسب : من أوائلها ، وهي ، على التحقيق : أول الطريقة ، ومقابل ذلك : كالدلهيز للسالك إليه .

ومن أول الطريقة تبدئ الكاشفات والمشاهدات ، حتى إنهم في يقظتهم يشاهدون الملائكة ، وأرواح الأنبياء ، ويسمعون منهم أصواتاً ، ويقتبسون منهم فوائد .

ثم يترقى الحال من مشاهد الصور والأمثال ، إلى درجات يضيق عنها نطاق النطق ، فلا يحول معبر أن يعبر عنها ، إلا اشتمل لفظه على خطأ صريح لا يمكنه الاحتراز عنه .

وعلى الجملة : ينتهى الأمر إلى قرب يكاد أن يتخيل من طائفة الحلول ،

وطائفة الاتحاد ،

وطائفة الوصول

وكل ذلك خطأ .

وقد بينا وجه الخطأ فيه في كتاب : « المقصد الأسنى » بل الذى لا يست

الحالة لا ينبغي أن يزيد : عل أن يقول :

وكان ما كان مما لست أذكره فظن خيراً ولا تسأل عن الخبر

وبالجملة ، فمن لم يرزق منه شيء بالذوق ، فليس يدرك من حقيقة النبوة

إلا الاسم ، وكرامات الأولياء - على التحقيق - هي بدايات الأنبياء . وكان

ذلك أرحال رسول الله - عليه الصلاة والسلام - حيث نبئ ، حين أقبل إلى

جبل حراء ، حيث كان يخلو فيه بربه ، ويتعبد ، حتى قالت العرب : إن

محمداً عشق ربه .

وهذه حالة يتحققها من مسك سبيلها . .

فمن لم يرق الذوق فيتيقنها بالتجربة والتسامع إن أكثر معهم الصحة حتى

يفهم ذلك بقرائن الأحوال يقيناً ، ومن جالسهم استفاد منهم هذا الإيمان ،

فهم القوم لا يشق جلسهم .

ومن لم يرق صحتهم ، فليعلم إمكان ذلك يقيناً شواهد البرهان ، على

ما ذكرناه في كتاب « عجائب القلب » من كتب إحياء علوم الدين .

والتحقيق بالبرهان علم ، وملازمة عين تلك الحالة ذوق .

والقبول من التسامع ، والتجربة ، بحسن الظن ، إيمان . فهذه ثلاث

درجات !

﴿ يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ﴾

ووراء هؤلاء قوم جهال ؛ هم المنكرون لأصل ذلك ، لتعجبون من هذا الكلام يستمعون ، ويسمعون ، ويقولون العجب إنهم كيف يهدون ! وفيهم قال الله تعالى

﴿ ومنهم من يستمع إليك ، حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم : ماذا قال آنفاً ؟ أولئك الذين طبع الله على قلوبهم ، واتبعوا أهواءهم ﴾ (٣٣) ﴿ فأصمهم ، وأعمى أبصارهم ﴾ (٣٤) .

ومما بان لي ، بالضرورة من ممارسة طريقتهم : حقيقة النبوة ، وخاصيتها ولابد من التنبيه على أصلها ، لشدة مسيس الحاجة إليها .

حقيقة النبوة

واضطراب كافة الحلق إليها

اعلم أن جوهر الإنسان - في أصل انعطارة - خلق نخلاً ، ساذجاً ، لا حير معه من عوالم الله تعالى ، والعوالم كثيرة ، لا يخصصها إلا الله تعالى ، كما قال : ﴿ وما يعلم جنود ربك إلا هو ﴾ .

وإنما خبره في العالم بواسطة الإدراك ، وكل إدراك من الإدراكات : خلق ليصطلح لإنسان به على عالم من الموجودات ، ونعمى بالعوالم ، أحسن الموجودات ، فأول ما يخلق في الإنسان حاسة اللمس ، يدرك بها أجتاساً من الموجودات : كالحرارة ، والبرودة ، والرطوبة ، واليبوسة ، واللين ، والحشونة وغيرها . واللمس قاصر على الألوان والأصوات قطعاً ، بل هي كالمعلوم في حق اللمس .

ثم تخلق له حاسة البصر ، فيدرك بها الألوان ، والأشكال ، وهو أوسع عوالم الحسّات .

ثم ينفخ فيه السمع ، فيسمع الأصوات والسمات . ثم يخلق له الذوق .

وكذلك ، إلى أن يجاوز عالم الحسّات ، فيخلق فيه العبير وهو قريب من سبع سنين ، وهو طور آخر من أطوار وجوده ، فيدرك فيه أموراً زائدة على الحسّات لا يوجد منها شيء في عالم الحس .

ثم يترقى إلى طور آخر ، فيخلق له العقل : فيدرك الواجبات ، والنجائزات ،

(٣٣) محمد آية : ١٦

(٣٤) محمد آية : ٢٣

والمستحيلات ، وأموراً لا توجد في الأطوار التي قبله .

ووراء العقل طور آخر تفتح فيه عين أخرى ، يبصر بها الغيب ، وما سيكون في المستقبل ، وأموراً أخرى ، العقل معزول عنها ، كعزل قوة التمييز عن إدراك العقول ، وكعزل قوة الحس عن مدركات التمييز .

وكما أن المميز : لو عرضت عليه مدركات العقل لأبأها ، واستبعدتها ، فكذلك بعض العقلاء : أبوا مدركات النبوة ، واستبعدوها ، وذلك عين الجهل : إذ لا مستند لهم إلا أنه طور لم يبدعه ، ولم يوجد في حقه فيظن أنه غير موجود في نفسه . والأكمه لو لم يعلم بالتواتر والتسامع الأركان ، والأشكال ، وحكى له ذلك ابتداء ، لم يفهمها ، ولم يقربها .

وقد قرب الله تعالى ، ذلك على خلقه ، بأن أعطاهم أنموذجاً من خاصية النبوة ، وهو النوم ، إذ التأم يدرك ما سيكون من الغيب ، إما صريحاً ، وإما في كسوة مثال يكشف عنه التعبير : وهذا لو لم يحمره الإنسان من نفسه - وقيل له : من الناس من يسقط مفضيا عليه كالميت ، ويزول عنه إحساسه ، وسمعه ، وبصره ، فيدرك الغيب - لأنكره ، وأقام البرهان على استحالته ، وقال : القوى الحساسة أسباب الإدراك فن لا يدرك الأشياء مع وجودها وحضورها ، فبأن لا يدركها مع ركودها ، أولى وأحق ،

وهذا نوع قياس يكذبه الوجود والمشاهدة ، فكما أن العقل طور من أطوار الآدمي يحصل فيه عين يبصر بها أنواعاً من العقول ، والحواس معزولة عنها ، فالنبوة أيضاً عبارة عن طور يحصل فيه عين لها نور ، يظهر في نورها الغيب ، وأمور لا يدركها العقل .

والشك في النبوة إما أن يقع :

في إمكانها ، أو في وجودها ووقوعها .

أولى حصوله لشخص معين . ودليل إمكانها وجودها .

ودليل وجودها وجود معارف في العالم لا يتصور أن تنال بالعقل : كعلم الطب ، والنجوم^(٣٥) فإن من بحث عنها ، علم - بالضرورة - أنها لا تدرك إلا بالإهام إلهي ، وتوفيق من جهة الله تعالى ، ولا سبيل إليه بالتجربة ، فن الأحكام سحرية ، مالا يقع إلا في كل ألف سنة مرة ، فكيف ينال ذلك بالتجربة ، وكذلك خواص الأدوية .

فتبين هذا البرهان . أن في الإمكان : وجود طريق لإدراك هذه الأمور ، التي لا يدركها العقل ، وهو المراد بالنبوة ، لا أن النبوة عبارة عنها فقط ، بل إدراك هذا الحس الخارج عن مدركات العقل : إحدى خواص النبوة ، وطا خصوص كثيرة سواها وم ذكرنا فقطرة من بحرها إنما ذكرناها لأن معك أمودحاً منها : وهو مدركاتك في النوم ، ومعك علوم من جنسها في الطب ، والنجوم ، وهي معجزات الأنبياء ، ولا سبيل إليها للعقلاء بيضاعة العقل أصلاً .

وأما ما عدا هذا من خواص النبوة : إنما يدرك بالذوق ، من سلوك طريق التصوف ، لأن هذا فهمته بأنموذج رزقته وهو النوم ولولاه لما صدقت به . فإن كان للنبي خاصة ليس لك منها أنموذج ، ولا تفهمها أصلاً ، فكيف تصدق بها ؟ وإنما التصديق بعد الفهم .

وذلك الأنموذج يحصل في أوائل طريق التصوف ، فيحصل به نوع من الذوق بالقدر الحاصل ، ونوع من التصديق بما لم يحصل بالقياس إليه .

(٣٥) بل الإمام رحمه الله يريد أن يقول : الإنسان في ابتداء وجوده وخلقه أعمه الله الأسس التي يبني عليها تجاربه في عالم الطب وملاحظته في علم الفلك .

فهذه الخاصية الواحدة ، تكفيك للإيمان بأصل النبوة .
فإن وقع لك الشك في شخص معين أنه نبي أم لا ؟ فلا يحصل اليقين إلا
بمعرفة أحواله : إما بالمشاهدة ، أو بالتواتر والتسامع . فإنك إذا عرفت الطبع ،
والفقه ، يمكنك أن تعرف الفقهاء ، والأطباء ، بمشاهدة أحوالهم ، وسماع
أقوالهم ، وإن لم تشاهدتهم .

ولا تعجز أيضاً عن معرفة كون الشاخص - رحمه الله - فقيهاً ، وكون
جالينوس طبيباً ، معرفة بالحقيقة لا بالتقليد عن الغير ، بل بأن تتعلم شيئاً من
الفقه والطب وتطالع كتبها ، وتصابفها : فيحصل لك علم ضروري بحالها .
وكذلك إذا فهمت معنى النبوة ، فأكثرت النظر في القرآن ، والأخبار
يحصل لك العلم الضروري بكونه ، عليه السلام ، على أعلى درجات النبوة . وأعضد
ذلك بتجربة ما قاله في العبادات وتأثيرها في تصفية القلوب ، وكيف صدق في
قوله : « من عمل بما علم ، ورثه الله علم ما لم يعلم » .

وكيف صدق في قوله : « من أمان ظالماً ، سلطه الله عليه » .
وكيف صدق في قوله : « من أصبح وهمومه هم واحد (هو التقوى) ^(٣٦) »
كفاه الله تعالى هموم الدنيا والآخرة ^(٣٧) .

فاذا جريت ذلك في ألف ، وألفين ، وآلاف ، حصل لك علم ضروري
لا تتأري فيه .

فإن هذا الطريق : اطلب اليقين بالنبوة لامن قلب العصا ثعباناً ، وثق

(٣٦) ما بين القوسين زيادة عن الجامع الصغير وضمتها لبيان المعنى .

(٣٧) وفي سنن ابن ماجه عن رسول الله ﷺ : « ومن جعل همومه همّاً واحداً ، هم للمعاد ، كفاه

الله هم دنياه . ومن تشبث به همومه في أسرار الدنيا لم يزال الله في أي أوديته حلك » .

القمر ، فإن ذلك إذا نظرت إليه وحده لم تنضم إليه القرائن الكثيرة الخارجة عن
الحصر ، ربما ظننت أنه سحر ، وتخيل ، وأنه من الله إضلال ، فإنه ﴿ يضل
من يشاء ويهدي من يشاء ﴾ .

وترد عليك أمثلة المعجزات : فإن كان مستنداً إيمانك إلى كلام منظوم في
وجه دلالة المعجزة ، فيجزم إيمانك بكلام مرتب في وجه الإشكال والشبهة
عليها .

فليكن مثل هذه الخوارق إحدى الدلائل والقرائن في جملة نظرك ، حتى
يحصل لك علم ضروري ، لا يمكنك ذكر مستنده على التعمين ، كالذي يجزبه
جماعة بغير متواتر ، لا يمكنه أن يذكر أن اليقين مستفاد من قول واحد معين ،
بل من حيث لا يدري ، ولا يخرج عن جملة ذلك ، ولا يصح الآحاد ، فهذا
هو الإيمان القوى العلمي .

وأما الذوق فهو كالمشاهدة ، والأخذ باليد ، ولا يوجد إلا في طريق الصوفية
فهذا القدر من حقيقة النبوة كاف في الغرض الذي أقصده الآن ، وسأذكر وجه
الحاجة إليه .

سبب نشر العلم بعد الإعراض عنه

• ثم إنى واظبت على العزلة والخلوة ، قريبا من عشرين ، وبان لى فى أثناء ذلك على الضرورة ، من أسباب لأحسبها : مرة بالنوق ، ومرة بالعلم البرهاني ، ومرة بالقبول الإيماني أن الإنسان خلق من بدن وقلب ، وأضى بالقلب حقيقة روحه ، التى هى محل معرفة الله ، دون اللحم والدم الذى يشارك فيه الميت والييمة ، وأن البدن له صحة بها سعادته ومرض فيه هلاكه ، وأن القلب كذلك ، له صحة وسلامة ، ولا ينجو ﴿ إلا من أتى الله بقلب سليم ﴾ وله مرض فيه هلاكه الأبدى الأخرى ، كما قال تعالى : ﴿ فى قلوبهم مرض ﴾ وأن الجهل بالله سم مهلك ، وأن معصية الله ، بمتابعة الهوى دأوه الممرض ، وأن معرفة الله تعالى تزيده الهوى ، وطاعته بمخالفة الهوى دواؤه الشاق ، وأنه لا سبيل إلى معالته بإزالة مرضه وكسب صحته إلا بأدوية كما لا سبيل إلى معالجة البدن ، إلا بذلك ، وكما أن أدوية البدن تؤثر فى كسب الصحة ، بخاصية فيها ، لا يدركها العقلاء بوضاعة العقل ، بل يجب فيها تقليد الأطباء ، الذين أخذوها من الأنبياء ، الذين اطلعوا بخاصية النبوة على خواص الأشياء ، فكذلك بان لى - على الضرورة - أن أدوية العبادات - بمحدودها ، ومقاديرها المحدودة ، المقطرة من جهة الأنبياء - لا يدرك وجه تأثيرها بوضاعة عقل العقلاء ، بل يجب فيها تقليد الأنبياء الذين أدركوا تلك الخواص ، بنور النبوة لا بوضاعة العقل .

وكما أن الأدوية تركيب من أخلاط مختلفة النوع والمقدار ، وبعضها ضعف البعض فى الوزن والمقدار ، فلا يخلو اختلاف مقاديرها عن سر ، هو من قبيل الخواص ، فكذلك العبادات التى هى أدوية داء القلوب : مركبة من أفعال مختلفة النوع والمقدار ، حتى إن السجود ضعف الركوع ، وصلاة الصبح نصف صلاة العصر فى المقدار ، ولا يخلو عن سر من الأسرار ، هو من قبيل الخواص التى لا يطلع عليها إلا بنور النبوة .

ولقد نحاق ونجاهل جدا من أراد أن يستنبط - بطريق العقل - لها حكمة ، أو ظن أنها ذكرت على الاتفاق ، لاس سر إلى فيها يقتضيا بطريق الخاصية . وكما أن فى الأدوية أصولا هى أركانها ، وزوالها هى متماتها ، لكل واحد منها خصوص تأثير فى أعمال أصولها ، كذلك التوافل والسفن : متمات لتكامل آثار أركان العبادات .

وعلى الجملة : الأنبياء أطباء أمراض القلوب ، وإنما فائدة العقل وتصرفه أن عرفنا ذلك ، ويشهد للنبوة بالتصديق ، ولتفسه بالعجز عن درك ما يدرك بعين النبوة ، وأخذ بأيدينا ، وسلمنا إليها تسليم العميان إلى القائلين ، وتسليم المرضى التحيرين إلى الأطباء المشفقين . وإلى هنا ما مجرى العقل ومخطاه ، وهو معزول عما بعد ذلك ، إلا عن تفهم ما يلقىه الطبيب إليه .

فهذه أمور عرفناها بالضرورة الجارية مجرى المشاهدة ، فى مدة الخلوة والعزلة ثم رأينا فتور الاعتقادات فى أصل النبوة .

ثم فى حقيقة النبوة ، ثم فى العمل بما شرحت النبوة . وتحققنا شيوع ذلك بين الخلق ، فنظرت إلى أسباب فتور الخلق ، وضعف إيمانهم ، فإذا هى أربعة :

١- سبب من الخائفين في علم الفلسفة .

٢- وسبب من الخائفين في طريق التصوف .

٣- وسبب من المتسبين إلى دعوى التعليم .

٤- وسبب من معاملة الموسمين بالعلم فيما بين الناس .

فإنني تبعت ، مدة آحاد الخلق ، أسأل من يقصر منهم في متابعة الشرع ، وأسأله عن شيبته ، وأبحث عن عقيدته وسره ، وقلت له ؛ مالك تقصر فيها ؟ فإن كنت تؤمن بالآخرة ، ولست تستعد لها وتبيعها بالدنيا ، فهذه حاقة ! فإني لا تبيع الاثنين بواحد ، فكيف تبيع ما لا نهاية له بأيام مهنودة ؟ وإن كنت لا تؤمن ، فأنت كافر . فدير نفسك في طلب الإيمان ، وانظر ما سبب كفرك الحق ، الذي هو منهبك باطناً ، وهو سبب جرأتك ظاهراً ، وإن كنت لا تصرح به ، تجسلا بالإيمان وتشرفاً بذكر الشرع !

فقال يقول : هذا أمر لو وجبت المحافظة عليه ، لكان العلماء أجدر بذلك ، وفلان من المشاهير ، بين الفضلاء ، لا يصل ، وفلان يشرب الخمر ، وفلان يأكل أموال الأوقاف ، وأموال اليتامى ، وفلان يأكل إدرار السلطان ولا يحتز عن الحرام ، وفلان يأخذ الرشوة على القضاء والشهادة ، وهلم جراً ، إلى أمثاله . .

وقائل ثان يدعى علم التصوف ، ويزعم أنه قد بلغ مبلغاً ترقى عن الحاجة إلى العبادة ،

وقال ثالث يتعمل بشبهة أخرى من شبهات أهل الإباحة !

وهؤلاء هم الذين ضلوا عن التصوف .

وقائل رابع لقي أهل التعليم فيقول : الحق مشكل ، والطريق إليه متعسر ،

والاختلاف فيه كثير ، وليس بعض المذاهب أولى من بعض ، وأدلة العقول متعارضة ، فلا ثقة برأي أهل الرأي ، والداعى إلى التعليم متحكم لا حجة له ؛ فكيف أدع اليقين بالشك ؟ .

وقائل خامس يقول : لست أفعل هذا تقليداً ولكني قرأت علم الفلسفة ، وأدركت حقيقة النبوة ، وأن حاصلها يرجع إلى الحكمة والمصلحة ؛ وأن المقصود من تعديتها : ضبط عوام الخلق ، وتقييدهم عن التقاتل ، والتنازع ، والاسترسال ، في الشهوات ، فما أنا من العوام الجهال ، حتى أدخل في حجر التكليف ، وإنما أنا من الحكماء ، أتبع الحكمة وأنا بصير بها ، مستغن فيها عن التقليد .

هذا منتهى إيمان من قرأ مذهب فلسفة الإلهيين منهم ، وتعلم ذلك من كتب ابن سينا وأبي نصر الفارابي .

وهؤلاء المتجملون بالإسلام .

وربما ترى الواحد منهم يقرأ القرآن ويحضر الجاعات والصلوات ، ويعظم الشريعة بلسانه ، ولكنه ، مع ذلك لا يترك شرب الخمر ، وأنواعاً من الفسق والفجور !

وإذا قيل له :

إن كانت النبوة خير صحيحة فلم تصلى ؟ فربما يقول :

لرياضة الجسد ، ولعادة أهل البلد ، وحفظ المال والولد ! وربما قال :

الشريعة صحيحة والنبوة حق . فإذا قيل له :

فلم تشرب الخمر ؟ فيقول :

إنما نهى عن الخمر لأنها تورث العداوة والبغضاء ، وأنا بحكمي محتز عن

ذلك ، وإلى أقصد به تشييد خاطرى .
حتى إن ابن سينا في وصية له كتب فيها أنه حاهد الله ، تعالى ، على كذا وكذا ، وأن معظم الأرواح الشرية ولا يقصر في العبادات الدينية ، ولا يشرب ثلها ، بل تداوياً وتشافياً ، فكان ينتهي حاله في صفاء الإيمان ، والبرام الصادات : أن استثنى شرب الخمر لغرض الشفاى .

فهذا إيمان من يدعى الإيمان منهم وقد انخدع بهم جماعة ، وزادهم ضعف اعراض المنرضين عليهم ، إذ اعترضوا بمجاهدة علم الهندسة والمنطق ، وغير ذلك ، مما هو ضرورى لهم ، على ما بينا حله من قبل .

علما رأيت أصناف الخلق من ضعف إيمانهم إلى هذا الحد ، بهذه الأسباب ، ورأيت نفسى ملية (٣٨) بكشف هذه الشبهة ، حتى كان فصح هؤلاء : أيسر عندى من شربة ماء ، لكثرة حوضى في علومهم ، وطرقهم ، أى طرق الصوفية والفلاسفة والتلمية والتوسمين من العلماء ، اقلح في نفسى أن ذلك متعين ، في هذا الوقت ، محتم .

فما تفنيك الخلوّة والعزلة ، وقد عم الداء ، ومرض الأطباء ، وأشرف الخلق على الملاك ؟

ثم قلت في نفسى : متى تشتغل أنت بكشف هذه النعمة . ومصادمة هذه الظلمة ، والزمان زمان القفرة ، والدور دور الباطل ؟ ولو اشتغلت بدعوة الخلق عن طرقهم إلى الحق ، لعاداك أهل الرمان بأحصمهم ، وأنى نقاومهم ، فكيف تباينهم ؟ ولا يتم ذلك إلا بزمان مساعد ، وسلطان متين قاهر ؟

فترخصت ، بينى وبين الله ، تعالى ، بالاستمرار على العزلة ، تمللا بالمعجز

(٣٨) قلب بللكان : أقام به ولزمه .

عن إظهار الحق بالحجة ، فقرر لله تعالى : أن حرك داعية سلطان الوقت من نفسه لا يتحرك من خارج ، فأمر أمر الإزام بالنهوض إلى تيسابور لتدارك هذه الفترة ، وبلغ الإزام حداً كاد ينتهى - لو أصورت على الخلاف - إلى حد الوحشة .

فخطرت لى أن سبب الرخصة عند ضعف ، فلا ينبغي أن يكون باعذك على ملازمة العزلة الكسل والاستراحة ، وطلب عز النفس وصونها عن أذى الخلق ولم تُرخص نفسك بمسارعة الخلق ؟ والله تعالى يقول :

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم : ألم . أحصب الناس أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون . ولقد صا الذين من قبلهم فليمن الله الذين صدقوا وليعلمس الكاذبين ﴾ (٣٩)

ويقول عز وجل ، لرسوله وهو أعر خلقه :

﴿ ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا ، على ما كذبوا ، وأوفوا ، حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ، ولقد جاعلك من نبأ المرسلين ﴾ (٤٠)

ويقول ، عز وجل :

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم : يس . والقرآن الحكيم . إنك لمن المرسلين . على صراط مستقيم .

تتريل العزيز الرحيم .
لتنزل قولاً ما أنذر آباءهم فهم غافلون .
لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون .

(٣٩) سورة الميكوت آيت ٣ - ١

(٤٠) سورة الأنعام آية ٣٤

إننا جعلنا في أحنافهم أخلالا فهي إلى الأذقان فهم مقمحون .
وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون .
وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون .
إنما تنذر من اتبع الذكر ﴿٤١﴾ .

فشاورت في ذلك جماعة من أرباب القلوب ، والمشاهدات . فاتفقوا على
الإشارة بترك العزلة والخروج من الزاوية .

وانضاف إلى ذلك منامات من الصالحين كثيرة ، متواترة تشهد بأن هذه
الحركة : مبدأ خير ، ورشد ، قلبها الله ، سبحانه ، على رأس هذه
المائة (٤٢) .

وقد وعد الله ، سبحانه ، بإحياء دينه ، على رأس كل مائة .
فاستحكم الرجاء ، وغلب حسن الظن بسبب هذه الشهادات ، ويسر الله
تعالى ، الحركة إلى نيسابور للقيام بهذا المهم في ذي القعدة ، سنة تسع وتسعين
وأربعمائة ، وكان الخروج من بغداد في ذي القعدة سنة ثمان وثمانين وأربعمائة
وبلغت مدة العزلة إحدى عشرة سنة .

وهذه حركة قدرها الله تعالى ، وهي من عجائب تقديراته التي لم يكن لها
انقذاح في القلب في هذه العزلة ، كما لم يكن الخروج من بغداد والتزوع عن
تلك الأحوال ، مما خطر إمكانه أصلا بالبال ، والله تعالى ، مقلب القلوب
والأحوال و « قلب للؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن » .

(٤١) سورة يس - آيات ١ - ١١

(٤٢) روى أبو داود ، والحاكم ، والبيهقي : « إن الله تعالى يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة
من يبعث لها نبيا »

وأنا أعلم : أني وإن رجعت إلى نشر العلم ، فما رجعت ! فإن الرجوع عود
إلى ما كان ، وكنت في الزمان أنشر العلم الذي به يكسب الجاه ، وأدعو إليه
بقولي وعملي ، وكان ذلك قصدي ، وبيتي . وأما الآن فأدعو إلى العلم الذي به
ينرك الجاه . ويعرف به سقوط رتبة الجاه .

هذا هو الآن نيتي وقصدي . وأمنيتي : يعلم الله ذلك مني .
وأنا أبعي أن أصنع نفسي ، وغيري ، ولست أدري أصل إلى مرادى ، أم
أعترم دون غرضي ؟ ولكن أومن بإيمان يقين ومشاهدة ، أنه لا حول ولا قوة
إلا بالله العلي العظيم ، وأنى لم أتحرك لكه حركتي . وأنى لم أعص ، لكه
استعلمني . فأسأله : أن يصلحني أولا ثم يصح لي ، ويهديني . ثم يهدي
لي ، وأن يريني الحق حقا ، ويرزقني اتباعه ، ويريني الباطل باطلا ، ويرزقني
اجتنابه .

• • •

ونعود الآن إلى ما ذكرناه . من أسباب ضعف الإيمان فيمن ذكر بذكر
طريق إرشادهم ، وإنقاذهم من مهالكهم .

أما الذين ادعوا الحيرة بما سمعوه من أهل التعليم ، فعلاجه ما ذكرناه في
كتاب : « القسطاس المستقيم » ولا تطول بذكره في هذه الرسالة .
وأما ما توهمه أهل الإباحة ، فقد حصروا شبههم في سعة أنواع ، وكشفتها
في كتاب « كيمياء السعادة » .

وأما من فسد إيمانه بطريق الفلسفة حتى أنكر أصل النبوة . فقد ذكرنا
حقيقة النبوة ووجودها بالضرورة ، بدليل وجود علم خواص الأدوية والحوم
وغيرها . وإنما قدمنا هذه المقدمة لأجل ذلك .

وإنما أوردنا للدليل من خواص الطب والنجوم ، لأنه من نفس علمهم ،
ونحن نبين لكل عالم بطن من العلوم : كالنجوم ، والطب ، والطبيعة ،
والسحر ، والطلسمات ، مثلاً من نفس علمه برهان النبوة .

وأما من ألبت النبوة بلسانه ، سوى أوضاع الشرع على الحكمة ، فهو على
التحقيق : كاهر بالسوء ، وإنما هو مؤمن بحكيم له طالع مخصص يقتضى طالع
أن يكون متبوعاً .

وليس هذا من النبوة في شيء .

بل الإيمان بالنبوة أن يقر بإثبات طور وراء العقل ، تتفتح فيه عين يدرك بها
مدرجات خاصة ، والعقل معزول عنها ، كعزل السمع عن إدراك الألوان .
والبصر عن إدراك الأصوات ، وجميع الخواص عن إدراك المعقولات .

فإن لم يجوز هذا ، فقد ألبنا البرهان على إمكانه ، بل على وجوده .
وإن جوز هذا فقد أثبت أن هاهنا أموراً تسمى خواص لا يدور تصرف
العقل حوالياً أصلاً ، بل يكاد العقل يكذبها . ويقضى باستحالتها فإن وزن

دائق^(٤٣) من الأفيون سم قاتل ، لأنه يجمد الدم في العروق ، لفرط برودته
والذى يدهى علم الطبيعة ، يزعم أن ما يبرد من المركبات ، إنما يبرد بمصرى
الماء والتراب ، فهما العصران الباردا والمعلوم أن أرطالا من الماء والتراب لا يبلغ

تبريدهم في الباطن إلى هذا الحد : فلو أخبر طبيعى بهذا ، ولم يحريه ، لقال :
هذا محال ، والدليل على استحالة أن فيه نارية ، وهوائية ، والهوائية والنارية
لا تزيد بها برودة ، فنقدر الكتل ماء وتراباً ، فلا يوجد هذا الإفراط بالتبريد ،

بين انضم إليه حاران قبلاً يوجب أولى . ويقدر هذا برهاناً !

(٤٣) الدائق يفتح النون وكسرها : سدس درهم ،

وأكثر براهين الفلاسفة في الطبيعيات والإلهيات : مبنى على هذا الجس ،
فإنهم تصوروا الأمور على قدر ما وجدوه وعقلوه ، وما لم يألفوه قدروا
استحالته .

ولو لم تكن الرؤيا الصادقة مأثورة ، وادعى مدع : أنه عند ركود
الخواص ، يعلم العيب لأنكره المنصفون بمثل هذه العقول .

ولو قيل لواحد : هل يجوز أن يكون في الدنيا شيء هو بمقدار حبة ، يوضع
في بلدة ، ليأكل تلك البلدة بجملتها ، ثم يأكل نفسه ، فلا يبقى شيئاً من البلدة
وما فيها ، ولا يبقى هو في نفسه ؟ لقال : هذا محال ، وهو من جملة الخرافات ،
وهذه حالة النار : ينكرها من لم ير النار . إذا سمعها .

وأكثر إنكار عجائب الآخرة هو من هذا القبيل .

فنقول للطبيعى : قد اضطررت إلى أن تقول : في الأيون خاصة في
التبريد ليس على قياس المعقول بالطبيعة ، فلم لا يجوز أن يكون في الأوضاع
الشرعية من الخواص ، في مداواة القلوب ، وتصفيها ما لا يدرك بالحكمة
العقلية . بل لا يبصر ذلك إلا بعين السوء ؟ بل قد اعتبروا خواص هي أعجب
من هذا ، فيما أوردوه في كتبيهم ، وهي من الخواص العجيبة ، الجهرية في معالجة
الحامل ، التي عسر عليها الطلق بهذا الشكل :

٤	٩	٢
٣	٥	٧
٨	١	٦

د	ط	ب
ح	هـ	ر
ز		و

يكتب على حرفتين . ثم يصبها ماء ، ونظر إليها الحامل بعينها . ونصحه
تحت قدميها ، فيسرع الولد في الحال إلى الخروج ، وقد أقرؤ بإمكان ذلك :
وأوردوه في كتاب «عجائب الخواص» ، وهو شكل فيه تسعة بيوت ، يرقم
فيها أرقام مخصوصة ، يكون مجموع ما في جدول واحد خمسة عشر . قرأته في
طول الشكل ، أوفى عرضه أو على التأريب .

فليت شعري ! من يصدق بذلك ، ثم لا يتسع عقله للتصديق ، بأن تقدير
صلاة الصبح بركعتين ، والظهر بأربع . والمغرب بثلاث هي الخواص غير
معومة بنظر الحكمة ؟ وسببها : اختلاف هذه الأوقات ، وإنما تدرك هذه
الخواص بنور النوبة .

والمعجب أما لو عجز العارفة إلى عبارة المنحمن ، لعقلوا اختلاف هذه
الأوقات فنقول : أليس يختلف الحكم في الطالع . ما تكون الشمس في وسط
السماء ، أو في الطالع ، أو في الغارب ، حتى يبنوا على هذا في تسييراتهم
اختلاف العلاج ، وتفاوت الأعمار والآجال ، ولا فرق بين الزوال وبين كون
الشمس في وسط السماء ، ولا بين المغرب وبين كون الشمس في الغارب ،
فهل لتصديقه سبيل ؟ إلا أن ذلك يسمعه بعبارة منجم ، جرب كذبه مائة
مرة ، ولا يزال يعاود تصديقه ، حتى لو قال المنجم له : إذا كانت الشمس في
وسط السماء . ونظر إليها الكوكب الفلاني . وانطلع هو الراح الفلاني .
هلست ثوباً جديداً في ذلك الوقت قتلت في ذلك الثوب ! فإنه لا يلبس الثوب
في ذلك الوقت ، وربما يقاسى فيه البرد الشديد ، وربما سمعه من منجم ، وقد
عرف كذبه مرات .

فليت شعري ! من يتسع عقله لقول هذه البدائع ويضطر إلى الاعتراف

بأنها خواص . معرفتها معجزة لبعض الأنبياء . كيف يبكر مثل ذلك مما يسمعه
من قول نبي صادق مؤيد بالمعجزات ، لم يعرف قط بالكذب ؟ فإن أنكروا فلسي
إمكان هذه الخواص في أعداد الركعات ، ورمى الحمار وعدد أركان الحج ،
وسائر تعبدات الشرع ، لم يجد بينها وبين خواص الأدوية والنجوم فرقاً أصلاً
فإن قال : قد جرت شيئاً من النجوم شيئاً من الطب ، فوحدت بعضه
صادقاً ، فانقدح في نفس تصديقه ، وسقط من قلبه استبعاده . ونهرته ،

وهذا لم أجريه فبم أعلم وجوده وتحقيقه ؟

وإن أقررت بإمكانه فأقول :

إليك لا تقتصر على تصديق ما جرت به ، بل سمعت أخبار المحررين وقلدتهم ،
فاسمع أقوال الأنبياء ، فقد جربوا ، وشاهدوا الحق في جميع ما ورد به الشرع
واسلك سبيلهم ، تدرك بالشاهد بعض ذلك .

على أي أقول : وإن لم تجربه فيفصلي عقدت برحوب التصديق والاتباع
قطعاً فإنما لو وصنا رحلاً بلخ . وعقل ، ولم يجرب أرض ، ففرض ، وله والد
مشفق حاذق بالطب يسمع دعواه في معرفة الطب مد عقل ، فعجز له والده
دواء ، فقال هذا يصلح لمرضك ويشعرك من سقمك . فمادا يقتضيه عقله ،
وإن كان الدواء مراً كربه المداق ؟ أبتناوله ؟ أو يكذب ويقول : أنا لا أعقل
ماسبة هذا الدواء ، لتحصيل الشفاء ولم أجريه ؟ فلا شك أنك تستحفه إن
فعل ذلك ! وكذلك يستحملك أهل البصائر في توقعك !
فإن قلت : فبم أعرف شفقة النبي عليه الصلاة والسلام ، ومعرفته بهذا
الطب ؟ فأقول :

وبم عرفت شفقة أهلك ، وليس ذلك أمراً محسباً ؟ بل عرفنا بقرائن

أجواله ، وشواهد أعماله في مصادره ، وموارده علماً ضروريا لا تتأري فيه .
ومن نظر في أقوال رسول الله عليه الصلاة والسلام . وما ورد من الأخبار في
إتمامه بإرشاد الخلق وتعلمه في جر الناس بأنواع الرقى ، والطف إلى تحسين
الأخلاق وإصلاح ذات البين ، وبالجملة إلى ما يصلح إلا به دينهم ، ودنياهم
حصل له على علم ضروري ، بأن شفقتة على أمته أعظم من شفقة الوالد على
ولده .

وإذا نظر إلى عجائب ما ظهر عليه من الأفعال وإلى عجائب الغيب الذي
أنبأ عنه في القرآن على لسانه ، وفي الأخبار وإلى ما ذكره في آخر الزمان ،
عظم ذلك كما ذكره علم - علماً ضرورياً أنه بلغ الطور الذي وراء العقل
وانفتحت له العين التي ينكشف منها الغيب الذي لا يدركه إلا الخواص ،
والأمور التي لا يدركها العقل .

فهذا هو منها نحصيل العلم الضروري بتصديق النبي عليه الصلاة والسلام ،
فجرب وتأمل القرآن وطالع الأخبار تعرف ذلك بالعبان .

وهذا القدر : يكفي في تنبيه المتفلسفة . ذكرناه لشدة الحاجة إليه في هذا
الزمان .

وأما السبب الرابع - وهو ضعف الإيمان بسبب سوء سيرة العلماء -
فيداوى هذا المرض بثلاثة أمور :

أحدها : أن تقول : إن العالم الذي تزعم أنه يأكل الحرام معرفته بتحريم
ذلك الحرام ، كعرفتك بتحريم الخمر ولحم الخنزير ، والربا ، بل بتحريم الغيبة
والكذب والهيبة ، وأنت تعرف ذلك وتفعله لا لعدم إيمانك بأنه معصية ، بل
لشهوتك العالة عليك ، فشهوته كشهوته ، وقد علمته عمله مسائل

وراء هذا يتميز به عنك ، لا يناسب زيادة رجوع عن هذا المحذور المعين ، وكلم
من مؤمن بالصب لا يصبر عن الفاكحة وعن الماء البارد ، وإن رجعه الطيب
عه ! ولا يدل ذلك على أنه غير صار ، أو على أن الإيمان بالطب غير صحيح
فهذا يحصل هفوات العلماء .

الثاني أن يقار للعامي : ينبغي أن تعتقد أن العالم اتخذ علمه ذمراً لنفسه في
الآخرة ، ويظن أن علمه ينجيه ، ويكون له شعيماً ، حتى يتساهل معه في
أعماله لمفضيلة علمه وإن جاز أن يكون زيادة حجة عليه ، فهو يجوز أن يكون
زيادة درجة له وهو ممكن ، فهو وإن ترك العمل بدلى بالعلم . أما أنت أيها
العامي ، إذا نظرت إليه ، وتركت العمل وأنت عن العلم عاطل فتهلك بسوء
عملك ، ولا شفيح لك .

الثالث ، وهو الحقيقة أن العالم الحقيقي لا يقارف معصية إلا على سبيل
المفوة . ولا يكون مصراً على المعاصي أصلاً . إذ العلم الحقيقي ما يعرف أن
المعصية : سم مهلك وأن الآخرة خير من الدنيا ومن عرف ذلك لا يبيع الخير بما
هو أدنى .

وهذا العلم لا يحصل بأنواع العلوم التي يشتغل بها أكثر الناس : فلذلك
لا يزيدهم ذلك العلم إلا جرأة على معصية الله تعالى .

وأما العلم الحقيقي فيزيد صاحبه خشية ، وخوفاً ، ورجاء ، وذلك بحول يسه
وبين المعاصي إلا الهفوات التي لا ينقل عنها البشرى العثرات ، وذلك لا يدل
على ضعف الإيمان ، فالؤمن مفتح ثواب . وهو بعيد عن الإصرار ،
والإكباب .

• • •

مخاطبة (٤٤١) حول و المنقلب من الضلال و

أخي الدكتور عبد الملهم محمود ، يعرف - بما بين إنوة المشيرة - بكيفية أبو المارقين وهي تسمية من الصورة التي يعرفه عليها هذا المحيط الروحي ، في مجال القلبين على الله ، من طلاب الملتحق ، والباحثين عن مشارق الأنوار ، وأسرار الخيوب .

والدكتور عبد الملهم يُعرف أيضاً فيما يتنا - نحن الصمديين - بأنه و غزالي مسمو و في هذا المصغر . . .

والواقع ، أن الدكتور عبد الملهم في ذاته ، ظاهرة صورية ، غير مكررة ، بما يقينس به من القيم ، وما يقاض عليه من الراهب ، وما يفسح له الله تعالى من الوقت ، واللذ ، فيتزرق إنتاجه سلسلا عذبا ، مندما في رقة ، رأيا متلاحقا في قوة ، بين متطرق ، ومكروب ، يتلاحق فيذكرنا بأعلام السلف الصالح ، ويطمئنا على مستقبل الرابنة القادمة ، ويملئ الناس مثلا حيا في كرامات الأواباء .

قارئ الدكتور عبد الملهم أو سامعه ، لا يحس الصنعة فيما يقرأ له ، أو يسمع منه ، ولكنه يحس القلب والمناطق ، والنقل والإيمان ، ويصير الأدب والفنل . والتواضع والفتنة بلا حدود ، كل ذلك يتقدح في ومضات ،

(٤٤١) حيا سمعت الطيبة الحويست من هذا الكتاب ، فعمل بكناه هذه المأثور الكتاب الكبري صاحب البركة الصوف السحر ، وصاحب القلم الصوف اللهم ، فضيلة الشيخ محمد زكي لرامح الزاهد الورق للعبية الصدية جراه الله خير البراء ، وشكر الله له جعل صنيعة .

هذا ما أردت أن أذكره في دم القلمنة والتعلم وآياتها وآيات من أكر عليها ، لا بطريقه .

ونسأل الله العظيم أن يخلصنا من آثره واجتاه ، وأرشدنا إلى الحق وهده ، وأنعمه ذكره حتى لا ينساه ، ووصمه من شر نفسه حتى لا يؤثر عليه سواه ، واستخلصه لنفسه حتى لا يبعد إلا إياه .

ولغات ، ولغات ، وملاحظ وقواعد ، وأصول تهتز بالحياة ، وتفعل بالعلم ،
والأصالة والمعرفة ، والصلة بالله ، والغيرة على محاربه ، ومحس المره منها ابتغاء
رضوان الله .

أنا أنا فأقرأ له وأسمعه كأنما أقرأ ما كتبه ، أو أسمع ما أحدث به .

إن إتحالي بالدكتور عبد الحلیم من نوع فريد ، فقد نلتق عد غياب جسدي
طويل ، فلا يحدث أحدنا الآخر ، بأكثر مما يحدث به زميله الذي لا يفارق ظله
ظله ، وفي إيجاز قد يصل إلى الاقصاب ، ثم يقننا هذا ، ريكفينا ، ومحصل
منه على معان شتى ، وأغراض أكثر ، يفريق عنها النطق ، ونعيا بها العبارة ،
وتنظّل قلوبنا تتناجى في حرارة ، وتتواصى في لهفة ، كما كانت قبل هذا اللقاء
الجسماني ، ثم بما تحصله هذه القلوب نكتفي ونشتفي ، إلى أن نجتمعنا الصدفة ،
أو القصد مرة أخرى ، وعندنا أعود فأحس كأننا لم نفرق ! !

أقول ذلك بمناسبة صدور الطبعة الخامسة ، الجديدة من كتاب « المنقذ
من الضلال » للغزالي بتقديم وتعليق وتحليل ، ودراسة الأخ الدكتور عبد الحلیم
محمود فقد صدرت هذه الطبعة في رجب هذا العام ، واستغرقت ٣٥٠ صحيفة
من القطع الكبير ، وأضاف إليها الأستاذ كعادته في كل طبعة سابقة لهذا الكتاب
أبواباً جديدة ، وألواناً مستحدثة دقيقة ، بعيدة العمق عريضة الهدف في أهم
وأخطر المباحث الموصولة بالتصوف الإسلامي ، على المستوى الفكري الشرق
والغربى معاً ، حتى أصبح هذا الكتاب الذي كان يباع في طبعته الأولى بخمسة
قروش ، يباع في هذه الطبعة الأخيرة بخمسين قرشاً تمنحك زبداً نقياً ودسماً من
العلم ، والمعرفة ، والتاريخ ، والتحقيق ، والاستدلال ، والإيمان ،

والإشراق ، وتعطيك التصوف الإسلامي في مثل ضوء الشمس بهاء ونقاء ،
وسمواً وخلوداً .

رضى الله عن الأخ الدكتور عبد الحلیم محمود ، وزاده مما يحب ويرضى
وتفمى بحبه وإتحائه فيه تعالى .

فهرس

الصفحة	
٢٦ - ٧	مقدمة : التصوف والحياة
	الفصل الأول : التصوف
١٢٠ - ٢٧	(لفظاً ، وتاريخياً ، وطريقاً ، ومصادر ، ونشأة ، ولغة عامة)
	الفصل الثاني : التصوف والشريعة
١٧٤ - ١٢١	(التصوف والدين ، التصوف والتحليل من الشريعة ، وحدة الوجود ، السجود للأوامر الإلهية كمظهر للتدين السلم والتصوف الصحيح)
	الفصل الثالث : التصوف والمعرفة
٢٣٤ - ١٧٥	(البحث العقل في وراء الطبيعة عبث ، في وسيلة المعرفة ، التصوف والشك ، الشك ومدارج السالكين ، الإمام الغزالي برسم طريق المعرفة ، مشكلة المعرفة الصوفية)

AL-MOSTAFA.COM

المجلة

الفصل الرابع : قضية التصوف

(إنكار التصوف، تحديد موطن النزاع، المشاكل التي يراد حلها، الحسن ومشاكل ما وراء الطبيعة، العقل ومشاكل ما وراء الطبيعة، البصيرة ومشاكل ما وراء الطبيعة، الطريق إلى المعرفة، طريق البصيرة طريق الصواب، التصوف أريستوقراطية، تفاوت الناس في فهم الدين، التصوف قوة، التصوف ليس دمجاً على الإسلام، التصوف في

العصر الحديث) ٢٣٥ - ٢٦٦

الفصل الخامس : الإمام الغزالي

(حياته، نبذة عنه بقلم أحد معاصريه، كتبه، تحليل

كتاب «الإحياء»، نصوص تبين منهجه) ٢٦٧ - ٣٢٤

الفصل السادس : المنقذ من الضلال

(توطئة، مدخل السلسلة، أصناف الطالبين، حقيقة

النيوة، سبب نشر العلم) ٣٢٥ - ٤٠٠

خاطرة ٤٠١ - ٤٠٣